الجواهري ـ شاعر الشعراء !

الدّكتورة نجاح العَطّار
وزيـرة الثقـافة

يا أبا فرات !

ترنحت من شكاة بعدك الدار، وهب، بنعيك، اعصار من الحزن يتلوه اعصار، فزورق العمر، تحطم، وا أسفاه، على صخرة الموت، والذي كان، في صوته الداوي، يجلجل الشعر، ويرعد، ويبرق، قد استكان من بعده الشعر، وتوقف الفم عن البوح، وأطبقت المنون العينين، ونام الجواهري، متنبي عصرنا، بعد أن أعيد السمهري الى غمده، وطالت يد الأقدار، من كان في نزاله مع الأقدار، ثورة بركان تلظّى، تشظى، انقذفت حممه، نيرانه، وتزلزلت، اندفاعاً عاصفاً، الأرض من تحته، وارتجت السماء من فوقه، وكان، هو الجواهري، حتف الطغاة، يلج البيوت عليهم، فيرتعدون هولا، خوفا، جبنا من غضباته، وكان، عمره كله، ذلك

الغضوب لأجل الحق، ناصراً له، مكافحاً منافحا في سبيله، حتى كأنه موكل بحمل رسالة من لاحملة لرسائلهم، وكان، في نبض الشعر، النبض المدوي، فإذا أنشد الشعر، انداح ذلك الدوي، دوائر بعد دوائر، بعد دوائر، حتى تبلغ أربعة فجاج الأرض.

نعم! مات الجواهري، الذي، في وقدة شبوب، كان كمن يمارس شعوراً بعدم الموت، لأنه، في الأمانة التي يحمل، كان يرى، يحيا، يجاهر، يفاخر، بأنه هو من يؤدي هذه الأمانة، كاملة غير منقوصة، قبل أن يرحل، قبل أن يودع، وقبل أن يترجل، فارس الشعر هذا، ويعلق سيفه، شأن المحارب المقدام، على جدار الزمن، الذي هيهات أن يجود بمثله، فقد انقضى ألف ونيف من الأعوام على رحيل المتنبي، قبل أن نحج، نحن العرب، أصحاب الديوان الشعري، متنبياً آخر، أكمل المسيرة، وأضاف عليها، وزاد فيها، وأغنى وثباتها، فخاف الخوف منه، وذعر الموت من نقعه، ولبست الهبوات الحمر، سود الثياب، وسود السروج، وسود الصافنات من بعده.

أن يموت الشاعر، فذلك حدث جلل، ولكن أن يموت شاعر الشعراء فذلك الجلل الأكبر، والأعظم، والأضخم، وذلك، في فراغ المكان، وفراغ الزمان، وفراغ الكون، هو الأخطر بلا قياس، فقد كان يكفي أن يقال محمد مهدي الجواهري، حتى يقال هذا هو الرجل الذي في كفيه نار، وفي أحداقه شرر، وفي صوته الجهوري انذار، وفي صدره روح نبوءة، وعلى لسانه الذي أكلته القافية - كما قال - لطف الكلام، وحدته، واشرئبابه أيضاً، وفي قامته المديدة، واطلالته المهيبة، وانشاده الذي لامثيل له، ألف دنيا من حماسة،

ومن ايماض، ونشوة، وقدرة، تشيل بالسامعين وترتفع، بهم ومعهم، إلى أعالي الأعالي، في عزم الرجولة، وانتشاء الذات، حين هي ذات لها فرادة، وعمادة، وجسارة، ونبالة، تقحم المعارك، ميادين للنزال، وللصراع، وللصرخة بالآخرين، أن تقحموا أزيز الرصاص، كما في وقعة الجسر ببغداد، وقبلها، وبعدها، وعلى مدى عمره المديد، الذي كان ملحمة إنسانية، فوقها ملحمة شعرية، وفوقها انطلاقة نسر، وانحطاط جلمود، وتوثب صافنة، وجهها قبلة الشمس، شروقاً لاتغرب، ذهبية لاتنطفئ، نارية لاترمّد، وبعد ذلك كله، وقبل ذلك كله، في الارتفاع والإيثار، جبهة المجد، جبهة دمشق، دمشقنا دمشق الجواهري، التي جاء إليها على لهف، وأقام فيها على هون، ورهو، وطمأنينة، ومعزة، في حمى أسد يعرف للشعراء، وللأدباء، وللفنانين، مكانتهم، فينزلهم فيها منزلة معرفة حمدانية، حاتمية، قيسية، فيها نخوة العظيم حين يلاقي عظيماً، وفيء الكبير حين يفيء على الكبير، وفيها حفاوة ونبالة، حين راحة الأسد أندى الراحات، وحين الحلم أوسع الحلوم، وحين العزيمة، في الوغى، حمدانية، فيها للمتنبي السلف، الاكرام، وفيها للمتنبي الخلف، للجواهري، الإكرام أيضاً، دون طلاب، دون إيماء، دون إيحاء، بأن يقول في الأسد، أو دمشقه، أي قولة من شعر أو نثر، لكن الجواهري بفيض نفسه والكبرياء، وبالاستلهام، على أنفته، من ملهم، قال في حافظ الأسد مالم يقله في غيره، فكانت، تبعاً لذلك، كرّة تاريخية أخرى، هي سيف دولة ومتنبي، والفارق أن المتنبي غادر سيف الدولة مغاضباً، وأقام الجواهري في حمى الأسد، وفي رحابه، وفي المنزل الأعز من منازله، على رضى، وعلى كفاء، وعلى رخاء،

وعلى أمان من كل عادية، وعلى اطمئنان من كل غاشية، فجاش، لهذا كله، صدره بشعر في الأسد، هو الأصفى، والأحلى، والأندى، في شعره كله، والجميع يعرف، ويسمع، ويعي، ولاحاجة للإفاضة والترداد.

وشاء من لارادّ لمشيئته، أن تفيض روح الجواهري في دمشق، وأن تصعد منها إلى الملأ الأعلى، وأذيع النبأ الفاجع، فكان له وقع الصاعقة على الناس، كل الناس، في سورية بخاصة، وفي الوطن العربي بعامة، وكان هذا التشييع المهيب، بين الزفرة والحسرة، بين الآهة والدمعة، والعزاء كل العزاء، أن الجواهري أراد أن يلاقي وجه ربه في دمشق، فلاقى وجه ربه فيها كما أراد، وهاهي دمشق تخرج كلها، أو قسمها الأكبر، والأجل، والأصدق، تشيع شاعرها، شاعرنا، شاعر العرب الكبير، إلى مثواه الأخير.

يا أبا فرات، يا ابن الفرات، وياعزه وفخره، ويا دارجاً في الخلود ضميره، نم قرير العين، رضي البال، صفي الجوارح، فقد بكتك دمشق كما تبكي الأصفياء الأصفياء من أعلامها وعظمائها، ولنا في سيرتك، وشعرك، وأهلك، العزاء والعوض، و﴿يا أيتها النفس المطمئنة، ارجعي إلى ربك راضية مرضية، فادخلي في عبادي، وادخلي جنتي﴾ صدق الله العظيم، ولاحول ولاقوة إلا بالله.

* * *

إحياء مسألة قديمة: الشعور

محمد وائل بشير الأتاسي

إنها بالفعل مسألة قديمة قدم الإنسان. فمنذ أن بدأ فكره يعمل، طرح عليه الموت مشكلة مستعصية. كيف يفقد الإنسان أحاسيسه ومشاعره، ألم يكن منذ قليل يحب ويعبر عن رغباته ويتحدث عن مشاعره، وهذه كلها لاصلة ظاهرة لها بشيء من جسمه، فكيف فقد هذا كله

* محمد وائل بشير الأتاسي: باحث من سورية، يهتم بالدراسات العلمية وفلسفة العلوم.

إلى غير رجعة. إنه لأمر يتعذر تصديقه، بل إن الخيال ليعجز حتى عن تصور صدق مايجري أمامه، وأن الموت زوال الشخص. إن شكل الإنسان ذاته لم يتغير فيه الكثير، فلماذا يفقد النطق والحركة والإحساس. ثم إنه ليس نائماً وإلا لاستيقظ.

لقد وجد الإنسان أخيراً حلاً لهذه المعضلة: إن الموت هو فقدان شيء لايُرى ولايُلمس ولاعلاقة له بالمادة، إنه الروح، هكذا أسماه. فالموت يحدث حين تفارق الإنسان روحه، ولربما عادت إليه يوماً ما.

ولقد عرف الإنسان على مختلف طوائفه وعروقه وأجناسه فكرة الروح. وهذه الفكرة منتشرة في جميع أصقاع الأرض وعند جميع الشعوب وبين مختلف الطبقات، من أدناها تحضراً وعلماً حتى أرقاها. ولكن طريقة التعبير عنها تختلف بحسب المركز العلمي للشخص. فالأطباء أنفسهم على مختلف اختصاصاتهم يتحدثون عن الحياة النفسية أو الحياة العقلية ويميزون بينها وبين الحياة الجسدية. وقد لايعتقدون بأن للإنسان حياتين منفصلتين كل الانفصال كما هو الاعتقاد بالروح. فالروح التي تفارق الجسد عند من يؤمنون بها لاتموت، ولكنها تترك للجسد جموده فيعود كباقي الجمادات. أما الطبيب وعالم النفس فلا يتطرقان لمثل هذه القضية، بل يعتبران أنها تدخل في مجال الميتافيزياء: ولكن هذا لايمنعها من التساؤل كيف يتم هذا التأثير المتبادل بين النفس والجسد، أو مايدعوانه مسألة العلاقة جسد- عقل. وكلمة عقل هنا نقصد بها مايقابلها بالإنجليزية mind وبالفرنسية esprit. وقد اصطلح مجمع اللغة العربية في مصر على اعتبار كلمة ذهن تعني (في الاصطلاح العلمي) مابه يتم الشعور بالظواهر النفسية المختلفة من تفكير وعواطف وإحساسات. فكلمة ذهن بهذا المعنى هي ما تقصده كلمة mind أو esprit بالفرنسية. ولكننا آثرنا الإبقاء على كلمة عقل لأنها أكثر تداولاً.

والشعور أو الوعي هو الحالة التي تصبح عليها عندالاستيقاظ من النوم. ولانقصد بهذا القول تعريف الشعور، بل جعل القارىء أكثر تفهماً لما

نقصده. وفي حالة الموت يغيب الشعور الى غير رجعة لذلك كان وجوده دليلاً عند من يعتقد بالروح على بقائها في الجسد. فطبيعة الشعور عندهم من طبيعة «الروح» أي أنه من طبيعة غير طبيعة الجسد. لذلك كانت مسألة الشعور لاتختلف جوهرياً عن مسألة الروح. لذلك حين درس الأطباء وعلماء النفس الظواهر النفسية عند الإنسان (وحتى عند الحيوان) في نهاية القرن الماضي وبداية الحاضر. تركوا مسألة ماهية الشعور جانباً وراحوا يدرسون الظواهر النفسية من انفعال وإدراك وذكاء الخ. . . ولكن مسألة العلاقة بين الشعور والجسد كانت تطفو بين حين وآخر وبإلحاح على السطح. إذ كثيراً ماتبين أن بعض الحالات النفسية هي انعكاس لأسباب جسدية غير مباشرة، كأن تكون عيباً في الجسد، أو تنشأ عن أسباب جسدية مباشرة كخلل بالدماغ. وقد ذكر في مقال سابق الجدل الذي ثار في نهاية القرن الماضي وبداية الحاضر حول منشأ الأمراض النفسية. فهذه المشكلة لم تمت، وإنما تخبو حيناً ثم تعود إلى الظهور. وإن كان النفسي يُرجع اليوم في معظم الأحوال إلى خلل في الدماغ. لكن هذا لايعني أن المشكلة خمد أوراها.

وحين بدأت الآلات الحاسبة تتطور وتأخذ أبعادها بالتضاؤل إلى أن أصبح بإمكان آلة صغيرة توضع في الجيب أن تقدم أفضل الاقتراحات وتتنبأ بأحوال الطقس وتغني عن تفجير القنابل الذرية لمعرفة نتائجها الخ. . . حلم كثير من الباحثين في مجال الإعلاميات والسبرنتيك بأن يصبح باستطاعتهم محاكاة عمليات الدماغ كلها، مادام هذا الأمر قد تيسر لهم بصورة في مجال بعض وظائفه. إذن لماذا لايكون ممكناً في النتيجة محاكاة الشعور وهو السمة الأبرز كما بينا للدماغ. فزعم بعضهم أنه يمكن للحواسيب أن **تحاكي الدماغ (مجرد محاكاة)**. وهؤلاء أنصار مايسمى بالذكاء الاصطناعي الضعيف (ذ ص ض). وزعم آخرون أن الدماغ نفسه ليس سوى حاسوب ببنيته المادية من أعصاب وعصبونات وغير ذلك هي عتاد هذا الحاسوب hard ware (أي

بديل الأسلاك والترانزستورات والمقاومات وغير ذلك). أما العقل فهو البرمجيات أي soft ware (أي مجموع البرامج المؤهل لها هذا الحاسوب). ويسمى هؤلاء أنصار الذكاء الاصطناعي القوي (ذ ص ق). وأما الشعور عند هؤلاء فليس سوى ظاهرة مصاحبة لعمل الحاسوب. بمعنى أن الحاسوب، متى ما أصبح بتعقيد الدماغ، ظهر الشعور تلقائياً كظاهرة مصاحبة.

وقد أثار هذا الزعم ردوداً كثيرة كان أبرزها ردان: رد سيرل John R. Searle ورد روجر بنروز Roger Penrose وسنكتفي بعرض فكرة سيرل بشيء من التفصيل أما الرد الآخر فسنوجزه بعد ذلك.

يقول سيرل في مقالة نشرتها «مجلة نيويورك للكتب» ثم نقلتها مجلة «البحث» الفرنسية - وعنها أوجزنا هذا العرض:

«إن السؤال: بأي طريقة بالتحديد تسبب السيرورات البيوعصبية ظاهرة الشعور في الدماغ، هو مسألة العلوم البيولوجية رقم واحد ومنذ زمن لايزال غير بعيد كانت هذه المسألة في نظر العلماء لا صلة لها على الإطلاق بالبحث العلمي (أي كما قلنا كانت متصلة بالميتافيزياء). في حين أن تشكيلة هائلة من المؤثرات (رائحة، نسيم، أصوات. . .) تحدث فينا سلاسل من العمليات البيوعصبية التي تؤدي في النتيجة إلى حالات الشعور (أو الإحساس) الذاتية، الداخلية، الموحدة، المرتبة، المتماسكة. ولكن ما الذي يحدث بالتحديد بين لحظة تعرض مستقبلاتنا للمؤثرات ولحظة تجربة الشعور؟ هناك ولاشك سيرورات دماغية تجري بين اللحظتين. وبحسب مانعرفه عن الدماغ تجري هذه السيرورات على المستوى الميكروي للمشابك والعصبونات والشبكات العصبية والتجمعات الخليوية». إن هذه السيرورات الأولية التي مازلنا نفتقر إلى حد ما إلى معرفة طريقة عملها هي التي تحدد خياتنا الواعية. هذا مايراه سيرل، وهذا مايراه معظم علماء البيولوجية وعلم النفس أيضاً. ولم يعد الأمر كما كان في العصور القديمة أو

أيام ديكارت حين كانوا يرون أن هناك واقعين منفصلين: واقع فيزيائي يصفه العلم، وواقع روحي هو واقع النفس الذي كان في نظر علماء عصر النهضة خارجاً عن إطار العلم. ولايزال عدد كبير من العلماء يأخذون بهذه الإثنينية. ويذكر سيرل من هؤلاء جون إكلس John Ecclés، وهو بيوعصبي حائز على جائزة نوبل. وعنده أن الإله يجمع النفس الى الجنين بعد ثلاثة أسابيع تقريباً من الحمل. أما برغسون فكان يعتقد أن تيار الحياة ينتقل من الآباء الى الأبناء عن طريق عضوية نامية.

وقد تحدثنا سابقاً عن سبب مثل هذا الاعتقاد. ونضيف أننا بعيدون جداً عن تكوين فكرة واضحة عن الكيفية التي يمكن أن نكوّن بها سيرورات دماغية (هي في حقيقتها ظواهر موضوعية يمكن مشاهدتها سبباً لأشياء بمثل هذه الغرابة التي هي حالات كيفية داخلية عقلية أو حالات شعور ترجع عائديتها خالصة للفرد الذي يشعر بها. فأنا وحدي أحس بالألم الذي أشعر به. فكيف يمكن لمثل هذه الظواهر الداخلية الذاتية الكيفية (الفردية) أن تكون ناجمة عن سيرورات فيزيائية عادية كإرسال إشارات كهركيماوية عصبية إلى مشابك العصبونات. وحتى لو كانت هذه السيرورات تتتالى وفق برنامج معين، فإن هذا لايستتبع الوعي (أو الشعور). فالتيارات الكهربائية أو الكهركيماوية هي أشبه بالرموز المرسومة بالحبر على الورق. فوجودها لايقتضي وعي الورق لها. كما أن سريان الكهرباء في الأسلاك لتنفيذ برنامج معين للحاسوب لايعني وعي الحاسوب لمدلول هذا البرنامج. فهذا الوعي يبدو من طبيعة مختلفة كل الاختلاف. ولكي يدلل سيرل على أن هذه السيرورات (التي شبهناها بالرموز) لاتؤدي إلى الوعي، على رغم أنها تسير وفق برنامج معين، لجأ إلى تجربة فكرية سميت تجربة الغرفة الصينية. وهذه تسمية كبيرة لتجربة بسيطة يسهل جداً فهمها. يقول سيرل: «تخيلوا أنكم تحاولون تحقيق المراحل المختلفة لبرنامج يساعد على الإجابة عن أسئلة مطروحة بلغة لاتفهمونها. فأنا مثلاً لاأفهم اللغة الصينية. فأتخيل أني

محجوز في غرفة تضم كمية من العلب تحوي إشارات الكتابة الصينية (أسس المعطيات). ولأفرض أني تلقيت كمية صغيرة من الإشارات الصينية (هي الأسئلة باللغة الصينية) عندئذ أبحث عن قواعد (أو برنامج) مايجب أن أفعله. وهكذا أجري بعض العمليات على الإشارات وفقاً للقواعد التي قرأتها (أي أنجز المراحل التي يشير إليها البرنامج)، ثم أبعث بكمية صغيرة من الإشارات اللازمة (التي استخرجها من علبها) إلى الأشخاص الموجودين خارج الغرفة (وهكذا أكون قد أعطيت الإجابة). فأنا في هذه الحالة في وضع حاسوب يطبق برنامجاً معيناً ليجيب عن أسئلة باللغة الصينية. ولكن إجابتي هذه (وإن كانت صحيحة) لاتغير من واقع الأمر شيئاً، وهو أنني لاأفهم كلمة واحدة من اللغة الصينية. فالنتيجة: إذا كنت لاأستطيع فهم اللغة الصينية من مجرد تطبيق برنامج حاسوب هدفه التحدث باللغة الصينية، فمن باب أولى أن يكون الأمر ذاته بالنسبة لأي حاسوب عددي يطبق البرنامج نفسه. لأن أي حاسوب مهما كان، لايستطيع أن يمتلك ضمن هذه الشروط قدرات غير تلك التي كنت أمتلكها أنا في الغرفة».

ويخلص سيرل من حجة الغرفة الصينية التي عرضها إلى استدلال بسيط من ثلاث مراحل:

١ - إن ماتفعله البرامج هو مجرد تنفيذ قواعد معينة.

٢ - أما العقل فيستعين بمضامين دلالية (وهذا جوهر الوعي).

٣- في حين أن تنفيذ القواعد يختلف عن المضامين الدلالية ولايكفي بحد ذاته للوصول الى المستوى الدلالي.

إذن برامج الإعلاميات ليست عقولاً.

ويلخص سيرل وجهة نظره حول مسألة الشعور قائلاً: «إن الدماغ عضو كغيره من الأعضاء، إنه آلة عضوية. والذي يُحدث الشعور هو سيرورات عصبية تجري على صعيد تحتي في الدماغ، وهو (أي الشعور)

سمة من سمات الدماغ. ولما كان كذلك ينجم عن بعض الفعاليات العصبية، لذلك يمكننا اعتباره سمة منبثقة عن الدماغ. ويمكن للحواسيب إذن أن تقوم بالنسبة لدراسة الدماغ بدور يماثل الدور الذي يمكنها القيام به في فروع معرفية أخرى. فالحواسيب مفيدة إلى حد بعيد وبخاصة في مجال محاكاة السيرورات الدماغية. ولكن محاكاة حالة من الحالات العقلية ليست حالة عقلية، مثلما أن محاكاة الانفجار ليست انفجاراً». ولكن يحسن بنا أن نشير مباشرة إلى أن الحاسوب لايحاكي الشعور، بل قد لايمكنه ذلك أبداً مهما تطور.

ويذهب روجر بنروز الى أبعد من ذلك فيقول إن الحواسيب بنظريتها الراهنة لايمكن أن تحاكي الدماغ، بل إن طريقة عملها تختلف كلياً عن طريقة عمل الدماغ. وبنروز هذا ليس بيولوجياً ولاعالم نفس، وإنما رياضي فيزيائي يعمل أستاذاً في جامعة كمبردج. نال مع ستيفن هوكنغ (الشهير) جائزة وولف للرياضيات. وقد ألف كتابه الأول في الرد على نظرية الـ (ذ ص ق) عام ١٩٨٩ تحت عنوان عقل جديد للسلطان الذي أعيد طبعه أربع مرات في عام واحد، ثم أعيد طبعه عام ١٩٩١. وقد ترجم إلى العربية وسيصدر قريباً في سلسلة الثقافة المتميزة. وقد أتبعه بنروز في عام ١٩٩٥ بكتاب آخر للرد على الاعتراضات التي أثارها الكتاب الأول ويحمل عنوان «**ظلال العقل**».

يعتمد بنروز في نقض فكرة الـ (ذ ص ق) (القائلة بأن الدماغ حاسوب والعقل برمجيات) على نظرية في المنطق الرياضي تسمى نظرية غودل Gödel وهو يستعمل هذه النظرية بالطريقة التي عرضها بها رياضي انجليزي يدعى تورنغ Turing. فقد اعتمد تورنغ على فكرة الخوارزمي، واعتبر أن لكل حساب تستطيع أن تنجزه آلة خيالية معينة (تسمى آلة تورنغ) خوارزمي لحسابه (أي مجموعة قواعد لحسابه)، بحيث إذا طبقت هذه القواعد (هذا الخوارزمي) على المعطيات تعطي النتائج. والحقيقة أن كل الحواسيب حالياً تطبق خوارزميات. وقد أثبت غودل أنه في أي نظام منطقي (له

خوارزميات) توجد نظريات لايمكن للآلة (للحاسوب) أن يتوقف عند جواب نهائي بشأنها، لانفياً، ولااثباتاً، فتظل تعمل دون توقف. وقد اعتمد بنروز على هذه النظرية بأن بيّن أنه لو كان الدماغ «حاسوباً» والعقل «برمجيات» لكانت هناك قضايا لايمكن أن يبت بشأنها، في حين أن العقل يمكنه أن يدرك بمحاكمة بسيطة أن مثل هذه القضايا التي يعجز عنها الحاسوب هي صحيحة. فالعقل إذن يتفوق على الحاسوب فهو ليس حاسوباً.

والحقيقة أننا نظلم بنروز إن نحن زعمنا أنه اعتمد على نظرية غودل وحدها لنقض نظرية الـ ذ ص ق. لأن بنروز اعتمد في ذلك على الفيزياء والرياضيات والمنطق وبيولوجية الأعصاب واعتمد بالأساس على أن ذكاء الإنسان مرتبط بالشعور الذي لايمكن للآلات أن تمتلكه كما زعم أصحاب الـ ذ ص ق. ولذلك خصص جزءاً كبيراً من كتابه لدراسة الشعور.

ولكن لماذا كان الذكاء مرتبطاً بالشعور. إن الحركة تستدعي التكيف في كل لحظة مع الوسط، بدءاً من تجنب العوائق الى البحث عن الطعام والمأوى والعلاج، حتى وضع المفاهيم. فعن طريق الشعور ندرك احتياجاتنا ونسعى لتلبيتها، وعن طريق الشعور نقوم بعمليات التجريد والتعميم التي تفيدنا في وضع أسس عامة لحل مشكلاتنا. فالعقل بالشعور يفوق كل آلة حاسبة، لأن الآلة التي لاتمتلك الشعور لاتستطيع التصور ولا تستطيع إذن التجريد والتعميم. ولو نظرنا إلى أبسط أنواع الذكاء الذي يتمتع به حيوان ما، لوجدنا أن الشعور وراءه وليس الخوارزميات، فتجنب العوائق واستخدام أساليب المراوغة للاستيلاء على الفريسة، كل هذا يعتمد على الشعور. وقد ثبت أن لدى الحيوانات إدراكاً أولياً للمكان. ولولا ذلك لما تمكنت من صعود سلم أو تجنب عثرة أو الامتناع عن الارتماء في هاوية.

وهكذا أحيت الإعلاميات مسألة قديمة هي مسألة الشعور. فإذا كان ذكاء الكائنات الحية مرتبطاً بالشعور، فلابد من دراسة الطريقة التي ينبثق فيها لكي نفهم بنية الذكاء الطبيعي.

لقد تصدى بنروز فعلاً لهذه المسألة. ولكننا لن ندخل في تفاصيل فكرته، لأنها تتطلب دراسات في الفيزياء والفيزيولوجية. على أن هناك عالمين هما كريك وإدلمان تعرضا في جملة من تعرض (وهم كثر الآن) للبحث في هذه المشكلة، وحاولا قدر طاقتيهما وضع تخمينات بشأنها. وإن كانت تخميناتها تظل قاصرة ماداما يبحثان في حقل فيزيولوجية الدماغ أكثر مما يبحثان في الشعور فعلاً. أو بالأحرى أكثر مما يبحثان في هذه النقلة النوعية العجيبة من السيرورات الجارية في الدماغ إلى ظاهرة الشعور نفسها.

يعمل كريك أصلاً في حقلي الفيزياء والبيوكيمياء. وهو انجليزي يقوم بعمله حالياً في معهد سولك* في لاجولا Salk Institute de la Jolla في كاليفورنيا. نال عام ١٩٦٢ جائزة نوبل للطب أو الفيزيولوجية مناصفة مع جمس واطسون James Watson لاكتشافهما بنية اللولب المزدوج (الصبغي) عام ١٩٥٣. وقد عرض كريك وجهة نظره عن الشعور في كتابه «*الفرضية المذهلة: نحو البحث عن النفس*»، حيث أورد كل مايعرف حالياً عن طريقة عمل الدماغ. وأوجز نظريته المذهلة بقوله: «أنتم، أفراحكم ومتاعبكم، ذكرياتكم وطموحاتكم، فكرة أنكم تكونون أنفسكم من ذاتيتكم الشخصية ومن حرية الاختيار عندكم، هذا كله ليس في حقيقة الأمر شيئاً أكثر من سلوك تجمع هائل من الخلايا العصبية ومن الجزئيات المرتبطة بها».

يتضح من هذا النص أن كريك لايؤمن بوجود حياة نفسية مستقلة عن الدماغ. ولكنه يُدهش في الوقت نفسه من أن هذا الذي نسميه العقل ليس سوى نتاج محض لهذا التجمع الهائل من الخلايا العصبية الذي يشغل حجماً لايتجاوز نصف حجم كرة القدم. ولو طلب منا تخيل آلية عضوية مخصصة لضخ الدم، فقد نتوصل الى شيء يشبه القلب، ولكن من ذا الذي يستطيع تخيل آلة تنتج الشعور. وهنا يعلّق سيرل بإيراد فكرته عن «انبثاق الخاصة» التي سبق الحديث عنها. فهو يقول: «إن الخاصة التي تبدو في منظومة ما،

* سولك هو مكتشف لقاح شلل الأطفال الذي يعرف باسمه.

يكن أن نفسرها بعناصر هذه المنظومة. ولكن هذه الخاصة لاتوجد خالصة في أي عنصر من هذه العناصر، كما لايمكن تفسيرها بمجرد أنها مجموع خواص عناصر المنظومة. ومثالنا على ذلك سيولة الماء لاتوجد في جزيئات الماء فرادى. إذ لايمكن أن نقول عن جزيء إنه سائل».

ويشاطر سيرل في هذا الرأي، الذي هو رأي كريك أيضاً كما يبدو، بيير هنري غويون Pierre - Henri Gouyon الذي يشرف على مختبر البيئة المنهجية والتطور التابع للمركز الوطني للبحث العلمي في فرنسا، وهو أيضاً أستاذ محاضر في البولتكنيك وأستاذ في جامعة باريس الجنوبية. يقول غويون «مهما تكن عملية البناء التي كونتنا، فإن لدينا شعوراً وأحاسيس الخ. ولاضير أبداً في أن أقبل بأن هذه الخواص تعتمد على أساس بيولوجي ومادي. ولكن واقعها هذا لاصلة له أبداً بطبيعتها. فعندما أشعر بشعور معين فهذا يعني أن ثمة شعوراً، ولابأس علي في أن أقول إن هناك هورمونات لها شأن ومداخلة في ذلك، وهناك سيالات عصبية. ولكن هذا لاصلة له بمفهوم الشعور نفسه. فهذا كما نرى خاصة منبثقة».

ويستند كريك في محاولته لحل مسألة الشعور الى الإدراك البصري ليتخذ منه مثالاً. وعندئذ يدخل في تفصيلات عن طريقة عمل العصبونات وأنواعها. ولكن، على الرغم من معرفته في هذا الشأن وإيجاد روابط بين هذه المعلومات والمعارف التي جنيت في مجالات أخرى كعلم النفس والأمراض النفسية والتكوينات الإعلامية لشبكات الأعصاب ومقارنتها بشبكات الحواسيب، إلا أن السؤال الذي يظل مطروحاً هو كيف يمكن لإشارات عصبية فيزيائية، وموضوعية وقابلة للتقدير الكمي، أن تسبب تجارب داخلية ذاتية وكيفية محضة؟ أو بصيغة أبسط: كيف يتم الانتقال من تيارات كهركيماوية تجري في الأعصاب وتنتقل بين العصبونات الى الإحساس (أو الشعور)؟ تلك هي فعلاً مسألة العقل- الجسم التي تظل قائمة مادمنا نسلم بأن الشعور ناجم عن سيرورات دماغية.

هنا في هذا المجال يقر كريك بأن معارفنا الراهنة لايمكن أن تعطي إجابة عن هذا السؤال تكون حتى باعثة على الأمل بحل قريب، ويقول عن نفسه إنه في طريق البحث عن «المتعلقات العصبية*» Correlats neuraux للشعور. ولكن كيف تسبب هذه «المتعلقات العصبية» حالات الشعور، فنحن مازلنا بعيدين جداً حتى عن تصور الشكل الذي يمكن أن يتخذه تصور ذلك.

ولكن سيرل يرى أن نظرية إدلمان Gerald Edelman عن الشعور هي أكثر النظريات أصالة وعمقاً في هذا الميدان. وقد شرحها في كتابه الثالث The Remembered Present الذي صدر بين سلسلة من الكتب التي خصصها إدلمان لنظرية الشعور. وقد نال إدلمان جائزة نوبل للفيزيولوجية أو للطب في عام ١٩٧٢ لأنه ساهم في الكشف عن البنية الكيمياوية لمضادات الأجسام. وهو يشرف حالياً على إدارة معهد العلوم العصبية في لاجولا (في كاليفورنيا).

وقبل إعطاء فكرة عن وجهة نظر إدلمان، يحسن بنا العودة الى الحل الذي اقترحه كريك لمسألة الشعور. فهو بعد أن يقر بمحدودية معارفنا الحالية، يجازف بالسير نحو عدد من التخمينات التي تستند الى المعارف المتوافرة حالياً. إنه يحاول تعميم مسألة يدعوها بيولوجيو الأعصاب مسألة الاندماج. فمن المعروف أن الجهاز البصري مثلاً يحوي خلايا - وحتى مناطق - حساسة بوجه خاص لبعض ميزات الأشياء كاللون والشكل والحركة والخطوط والزوايا. ولكن رؤية شيء ما هي دائماً تجربة إدراك موحدة (تندمج فيها هذه الميزات وتتكامل في كلٍ هو الصورة الذهنية المدركة للشيء). فكيف ينجح الدماغ في ربط مختلف المثيرات في هذا الإدراك الموحد؟ وهذا السؤال يظل سارياً بالنسبة لكل أشكال الإدراك الأخرى. يقول كريك في هذا الشأن: إن مسألة الاندماج هي مسألة «الطريقة التي

* أي الأشياء العصبية ذات العلاقة بالشعور ومرتبطة به.

تنشط بها هذه العصبونات وقتياً وكأنها وحدة واحدة». ولكن عدداً من الباحثين، ولاسيما وولف سنجر Wolf Singer وزملاؤه في فرنكفورت اقترحوا غير هذا. فالحل في نظرهم يمكن أن يكون في تواقت إصدار إشارات العصبونات المتمايزة في المكان والمتعلقة بمختلف خواص الشيء (من خطوط وألوان وغيرها). لأن العصبونات المتعلقة بهذه الخواص تنشط بطريقة متواقتة ٤٠ مرة تقريباً في الثانية. وقد عاد كريك إلى هذه الفرضية عندما اقترح مع زميل له بأن تنشيط العصبونات بهذا المستوى من التواتر (من ٣٥ - ٧٥ مرة/ الثانية) يمكن أن يكون هو «المتعلق الدماغي»* للشعور البصري. وهذا النمط (كما يعمم كريك) قد يكون هو نفسه شكل «المتعلقات العصبية» للشعور عامة. ويرى كريك أن المهاد thalamus يقوم بدور أساسي في الشعور. ذلك أن هناك مايشير إلى أن الشعور يتوقف بأكثر مايكون تحديداً على الدارات التي تربط المهاد بالقشرة الدماغية. بل يخمن كريك أن مفتاح قضية الشعور، ربما كان في حدوث تنشيط متواقت تواتره ٤٠ مرة/ الثانية للشبكات التي تربط المهاد بالقشرة الدماغية.

وهكذا إذن يخمن كريك أن الشعور (الذي هو في نظره «خاصة منبثقة» عن هذا التكوين الذي يسمى الدماغ) يحدث نتيجة عمل هذه «المتعلقات العصبية»، وذلك بأن عمم مسألة الاندماج والتكامل لتصبح تفسيراً عاماً. فهوّن بذلك المسألة على نفسه بأن طرح مشكلة هي كيف تتوحد مختلف المحرضات التي تتلقاها أقسام الدماغ المختلفة بصورة يحدث معها إدراك واحد موحد. (كرؤية قطة مثلاً: لونها، أعضاؤها، الخطوط العامة المحددة لها، حركتها..).

أما إدلمان فينظر الى هذه المسألة بطريقة أخرى، وذلك بأن حاول بسط تفسيره لنمو فئات الإدراك على تفسير عام للشعور. فإدراك اللون الأحمر

---

* نلاحظ أن كريك يضع هذا المصطلح الغامض الذي يعني ماله علاقة، وليس أكثر من ذلك لكي يتابع التأمل، حتى ولو لم يكن لديه تصور واضح لحلها.

مثلاً، يتم بحسب إدلمان على مراحل متكاملة، وهو يعتمد في ذلك على فكرة الخارطة، ويقصد بها شبكة من العصبونات الدماغية التي يرتبط عدد من نقاطها ارتباطاً نظامياً مع نقاط مقابلة لها من شبكة خلايا مستقلة واقعة مثلاً في شبكة العين (أو مثلاً على سطح الجلد إذا كان الأمر متعلقاً بإحساس لمسي). ويمكن أن تكون الخارطة مرتبطة أيضاً بخرائط أخرى. فالجهاز البصري عند الإنسان يحتوي على أكثر من ثلاثين خارطة في القشرة البصرية (الواقعة في مؤخر الفص القفوي من المخ).

والفكرة الأساسية الثانية التي قدمها إدلمان هي «نظريته في اصطفاء الزمر العصبية». وبحسب هذه النظرية يجب أن نتصور بأن الدماغ مجهز بغزارة فائقة (وخلقياً منذ الولادة) بفئات عصبية، وأنه يمر مع النمو بحالات يتم فيها اصطفاء طبيعي دارويني. ولذلك تسمى نظرية إدلمان «الداروينية العصبية» فبعض الفئات تحذف، في حين تبقى أخرى وتتدعم. وفي بعض أجزاء الدماغ يموت ٧٠٪ من العصبونات قبل أن يبلغ الدماغ نضجه الكامل. ولايتم الاصطفاء على نطاق العصبون الفردي، وإنما على نطاق فئات العصبونات التي تضم كل فئة منها مئات الملايين من الخلايا. ولايتكامل الدماغ عن طريق تعديلات في مجموعة معينة من العصبونات، وإنما عن طريق الاصطفاء الذي ذكرناه.

والفكرة الثالثة التي قدمها إدلمان هي «عودة الدخول». والمقصود بها ذهاب الإشارات المتوازية وإيابها بين الخرائط.

فالخريطة ب ترسل إشارات الى الخريطة ج التي تعيد إليها الإشارة ولكن هذه العودة ليس مجرد تغذية راجعة كما يقول إدلمان، لأن عدداً كبيراً من الأقنية المتوازية بين الشبكات يمكن تنشيطه في آن واحد.

فكيف يتم إذن نمو فئات الإدراك، مع العلم أن على الدماغ أن ينمي عدداً من فئات الإدراك مبتدئاً من الفئات التي تستند إلى الأشكال والألوان والحركات قبل أن ينتقل الى الفئات المتعلقة بالأشياء (شجرة مثلاً أو

حصان) . وعليه أن يتوصل منها إلى تجريد أفكار عامة، أو أن ينجز ذلك كله قبل حتى أن يكون العالم قد قسم بعد الى فئات وقبل أن يكون لدى الدماغ برنامج منجز يهديه. فكيف ينجز ذلك؟ يتلقى الدماغ عدداً كبيراً من المحرضات الموافقة لمختلف أنماط فئات الإدراك. ثم بعد تكرار هذه المحرضات عدداً كبيراً من المرات، يثبت اصطفاء بنيات شبكية خاصة من الفئات العصبية على صورة خرائط. ثم تقوم إشارات مشابهة للسابقة بتنشيط الفئات العصبونية المصطفاة في شكل خارطة سابقة اضافة إلى تنشيط فئات عصبونية لخارطة أخرى أو لزمرة خرائط. لأن عمليات الخرائط المختلفة مترابطة فيما بينها بقنوات «عودة الدخول». فكل خريطة إذن يمكنها استخدام «الميزات» التي تميزها خرائط أخرى لأغراضها الخاصة. فمثلاً توجد خارطة نوعية مختصة بتمييز المحيط الظاهري لشيء ما، وخارطة أخرى مختصة بحركاته... في حين أن آليات عودة الدخول تمكن خرائط أخرى من تحديد شكل هذا الشيء اعتماداً على الخطوط المحددة له وعلى حركاته.

إن هذه الآلية تتيح الحصول على تمثيل موحد للأشياء حتى على الرغم من أن معالجة الفئات المختلفة التي تكوّن هذا التمثيل تتم في عدد كبير من مناطق الدماغ المختلفة. فالاتصال يتم بين خرائط مختلفة موجودة في مواضع مختلفة بتبادل إشارات عن طريق أقنية عودة الدخول. وهذا مايتيح إمكانية إحداث «تكوّن خرائطي شامل» لايساعد هذا النظام على امتلاك فئات إدراك فحسب، بل على تنسيق الإدراك والتصرف.

وهكذا راح إدلمان يستطلع كل النتائج الممكنة لنموذجه. فتحدث عن الذاكرة، والمكان والزمان، وتلوين الأفكار المجردة، والدور الأساسي لعملية التقويم في التعلم، وتطور اللغة، والأمراض العقلية. ومن أهم الملاحظات التي أبداها إدلمان والتي تثير الاهتمام فعلاً، هي أن انفصام الشخصية يمكن أن يكون ناجماً عن انهيار آليات عودة الدخول.

إن الشروط اللازمة والكافية عند إدلمان لظهور *«الشعور الابتدائي»* هي: أن يكون للدماغ أنظمة تصنيف في فئات، وكذلك أنماط من الذاكرة، إضافة إلى نظام تعلم يستلزم بالضرورة عمليات تقويم، كما يجب أن يكون الدماغ قادراً على تمييز الذات من بقية العالم. ولابد أيضاً من وجود بُنى دماغية قادرة على تنظيم تسلسلي للحوادث في الزمن. وأخيراً- وهذا في نظر إدلمان أهم شيء - يحتاج الدماغ لأقنية عودة دخول شاملة تساعد على ربط هذه البنى التشريحية المختلفة. ويحاول إدلمان أن يبيّن كيف يمكن لنظامه الذي وصفه توفير هذه الشروط كلها.

أما *الشعور الأسمى* فهو الشعور حين لايكون الكائن قادراً على الشعور والإدراك فحسب، بل كذلك على أن يمثل لنفسه التمييز بين الذات وغير الذات بطريقة رمزية. أو بتكوين فكرة مجردة للذات. وهذا مالايمكن تحقيقه إلا عن طريق التفاعل الاجتماعي.

وهكذا يتبين مقدار الجهد الذي بذله إدلمان لوضع صورة للعمليات الدماغية التي تؤدي الى الشعور. ولكنه للأسف «لايشرح بأي شكل من الشرح لماذا يجب أن يكون الدماغ المالك لمثل هذه الخواص متمتعاً بالشعور أو بالحالات العقلية». إذ لاشيء مما ذكره عن كل هذه السيرورات الدماغية يستلزم بأن تكون واعية.

ويبدو من تعليقات سيرل على إدلمان بأن هذا الأخير كان يتقلب بين الاعتقاد بإمكانية إيجاد حل لمسألة الشعور وعدم إمكانية ذلك. وهذا وضع يلاحظه من يقرأ كتاب روجر بنروز *عقل جديد للسلطان* فهو على الرغم من أنه يتخيل سيرورات عصبية في الدماغ تؤدي الى الشعور، ويعبر عن أمله في أن تظهر اكتشافات فيزيائية جديدة في المستقبل تلقي ضوءاً على المسألة، إلا أن كتابه في معظمه يوحي بأن هذه المسألة في رأيه خارجة عن إطار الفيزياء لدرجة أنه يعطي انطباعاً بأنه يعتقد بوجود عالمين: عالم المادة وعالم النفس (أو الروح أو العقل). بل إنه يعتقد صراحة بوجود عالم ثالث هو عالم

الحقائق الرياضية، أو عالم المثل على طريقة أفلاطون. ولكن إدلمان صرح بعدئذ «بأن العلم لايمكن أن يفسر لماذا تأخذ المعاناة من الحرارة شكل إحساس بحرارة نوعية، وأنه لايحق لنا أن نطلب منه ذلك».

ولكن جوهر المسألة أصلاً هو كيف ننتقل من جميع هذه البنى التي وصفها هؤلاء العلماء ومن وظائفها إلى الحالات العقلية الكيفية، أو حالات الشعور التي نعرفها جميعاً والتي دعاها بعض الفلاسفة Qualia (التي يمكن ترجمتها بكلمة كيفيات)؟ إن حالات الشعور المرتبطة بإدراك اللون الأحمر أو الإحساس بالحرارة مختلفة كيفياً عن حالات الشعور المرتبطة بإدراك الأسود أو بالإحساس بالبرودة. وهكذا يبدو أن كريك وبنروز وإدلمان يحاولون حل مسألة هي غير ما قد يخطر لذهن القارىء أنهم سيحلونها. إذ أن السؤال الذي يمكن أن نجابه به هؤلاء: هل الخواص الفيزيولوجية للدماغ هي مكونات للشعور أو هي بشكل ما مركبات للشعور، أم أن هذه الخواص مسببات للشعور؟ ولما كان كل فرد منا يشك في أنها مكونات للشعور، لأن الدماغ يمكن أن يمتلك جميع هذه الميزات والسيرورات التي شرحها كل منهم من دون أن يكون واعياً فما فعلوه إذن في رأينا هو تخمين السيرورات التي تجري في الدماغ وتسبب الشعور.

إذن ما الذي باستطاعة العلم أن يفعله؟ هل يتخلى عن دراسة هذه المسألة أم يلتف عليها؟ إن الإجابة عن هذا السؤال سهلة، فتاريخ المعرفة الإنسانية يعطينا نموذجاً لمسائل شبيهة إلى حد ما. ففي الماضي كان الفلاسفة يبحثون عن ماهية الثقالة (الجاذبية). وكانوا يقولون: إن لدى الأجسام ميلاً للانجذاب الى مثيلاتها. ولكن غاليليه لم يتساءل عن ماهية الثقالة، وإنما اكتفى بوصف العلاقة الرياضية التي تبين كيف تتغير المسافة بين الجسم والأرض. ثم أتى نيوتن ليعطينا وصفاً رياضياً لقوة هذه الثقالة أمكن في ضوئه تفسير قانون غاليليه السابق. وأخيراً أتى انيشتين فبيّن لنا أن الثقالة ليست سوى تعبير عن عطالة الأجسام المادية، وأن الأجسام تتبع المسار

الهندسي الذي لاحيلة للأجسام بحكم عطالتها أن تخرج عنه . وهكذا اقترب انيشتين أخيراً- إلى حد ما- من الإجابة عن سؤال الفلاسفة : ماهي الجاذبية؟

فالدرس الذي نستقيه من العلم هو أن نبحث عن السيرورات الفيزيولوجية التي تؤدي إلى انبثاق الشعور . وهذا ماحاوله العلماء السابقون فعلاً . ولكنهم قفزوا مرة واحدة الى الشعور عند الإنسان، على الرغم مما في هذا النموذج من تعقيدات . أما القول بأن الشعور «خاصة منبثقة» عن هذا التكوين المعقد (الدماغ)، فلن يزيد في معرفتنا شيئاً، لأن الجميع يعرفون أن الشعور ينبثق عن الدماغ وليس عن اليد . ولكن مادور اليد؟ ثم إن جميع الحيوانات تمتلك أدمغة أو مايشبه الأدمغة، فهل لديها شعور، أم أن هذا الشعور لم يظهر إلا عند الإنسان؟ إننا جميعاً ندرك بفطرتنا أن لدى الحيوانات شعوراً وإن لم يكن مثل شعور الإنسان، وربما كان لدى النباتات أيضاً شعور . فلماذا إذن لانلجأ إلى أبسط كائن حي . فلعلنا نجد فيه ضالتنا ونعثر على الصورة البدائية جداً للشعور . فنبحث كيف تكون استجابات هذا الكائن، ومادرجة الشعور لديه إن كانت موجودة؟ ولست أزعم طبعاً أن درجة الشعور مقدار مقاس، ولكنه قطعاً يمكن أن يكون في حالة أبسط بكثير مما هي عند الإنسان . وإذا صح أن الكائنات الحية كلها وكل ماتتمتع به من مزايا وأشكال ليس لها مهمة إلا تحقيق غرض الصبغيات في البقاء والتكاثر فالشعور على الأرجح مرتبط أساساً بالجنس . وإذا صح أن الحياة الجنسية أو أو مايشبهها عند وحيدات الخلية وربما أيضاً عند الجراثيم ، فقد توفر دراسة هذه الكائنات دلائل يمكن الاستعانة بها للتمييز بين السلوك الآلي والاستجابات الشعورية الأولية البدائية .

فبحسب هذه المشاهدات لابد سيظهر لنا أن الشعور بدأ بسيطاً عند كائنات حية بدائية جداً ثم بدأت هذه الكائنات تتطور بتأثير العوامل البيولوجية والاصطفاء الطبيعي . فكان الكائن الأقدر على التكيف، ليس

تبعاً لما لديه من أعضاء فحسب، بل بما لديه أيضاً من شعور يساعده أكثر على التكيف. فكان الاصطفاء يُثّبِّت الكائنات الأقدر والتي شعورها أكثر نمواً. وفي الوقت نفسه يساهم هذا الشعور في الاصطفاء الذاتي. وهكذا ظلت هذه السيرورة الجدلية سائرة إلى أن ظهرت الكائنات العليا. وأخيراً ظهر الإنسان الذي أصبح الشعور عنده يقوم بدور بارز في سيرورة التطور، وأصبحت الشعوب الأكثر وعياً هي الأكثر تطوراً والأقدر على التكيف والبقاء. فالإنسان أصبح مسؤولاً إلى حد بعيد عن تطوره. فإن لم يع الإتجاه السليم والسير قدماً، عجز عن متابعة السير وربما عاجله الفناء. وهذا ماحدث (بل إنه يحدث حالياً عند كثير من الشعوب المتخلفة التي تصر على التمسك بسلوك وأخلاقيات تسد عليها باب الإرتقاء، فتقف هي نفسها في طريق تقدمها وبقائها).

ولكن دراسة الشعور في أبسط أشكاله ليست عملاً سهلاً، لأنها بحاجة إلى يقظة وانتباه شديدين للتعرف الى بدايات الشعور الأولي عند الكائنات البدائية، فقد يبدو سلوكها للوهلة الأولى آلياً محضاً تحدده خواص كيميائية فيزيائية.

على أن كل المحاولات التي عرضنا عنها فكرة عنها تبين أن لاسبيل إلى دراسة الشعور إلا على الطريقة التي اتبعتها العلوم الفيزيائية والكيميائية. وماكنا لنجرؤ على قول ذلك لولا رأي أبداه سيرل في أنه «قد يكون من الأجدى البحث عن الشعور عند كائن أقل تعقيداً من الإنسان». وثانياً وهو الأهم، رأي عالم فيزيائي كبير هو بور Niels Bohr المعروف بمساهماته في نظرية الكم. ففي محاضرة ألقاها في كوبنهاغن عام ١٩٣٢ يقول:

«لابد لنا من اعتبار وجود الحياة واقعاً أولياً لايمكن تفسيره إنما يجب اتخاذه نقطة بداية في البيولوجية شأنها شأن كم الفعل الذي يبدو من وجهة نظر الميكانيك الكلاسيكي غير معقول ويكوّن، إضافة الى وجود الجسيمات الأولية، أساس الفيزياء الذرية. فلابد أن تكون استحالة التفسير الفيزيائي أو

الكيميائي للوظيفة التي تختص بها الحياة. . . مماثلة لعدم كفاية التحليل الميكانيكي الآلي في فهم استقرار الذرات».

وهكذا نرى أن هذا الفيزيائي الذي يملك في العلم حدساً قد لايجاريه فيه عالم آخر من علماء القرن العشرين، يدلي بدلوه في مجال أثير الجدل فيه منذ بداية القرن الحالي عند اكتشاف نظرية الكم. فقد أصبح الأمل معقوداً حينذاك على أن تلقي هذه النظرية ضوءاً على سر الحياة. وقد أذكى الآن هذا الجدل وأجج أواره الضجة الكبيرة التي بدأت في الأوساط العلمية مع بداية تطوير الحواسيب الالكترونية. فهل أسفرت هذه الضجة ياترى عن استلام الطريق الصحيح لدراسة الحياة والشعور أكبر أسرارها؟

* * *

صفحات من التراث العربي الاسلامي:
العصبية القبلية . مفهومها وآفاقها

عبد الغفار نصر

التمهيد: مفهوم العصبية ،وتعريفها:

ورد في لسان العرب[1]: العصبية مشتقة من التعصب أي التجمع، وأعصب القوم رجلاً أي يلازمونه ويطيفون به، فسموا عصبة، وقيل: رجل عصبي أي أنه يغضب لعصبته ويناصرهم ويعينهم ولو على الظلم.

---

* عبد الغفار نصر: باحث من سورية، يهتم بالدراسات الفلسفية والتراثية.

١ - ابن منظور: لسان العرب. مادة عصب.

والمجتمع العربي منذ جاهليته مجتمع قبلي، الحكم فيه لشيخ القبيلة الذي يتصف بالحلم والشجاعة والفروسية والكرم، هذا المجتمع امتاز بالنزعة الديمقراطية، فالرجل فيه يخاطب سيّد القبيلة وشيخها خطاب الند للند، ويحاسبه على أعماله[٢].

والقبيلة في هذا المجتمع متماسكة بحكم قرابة الدم وجميع أفرادها متماسكون في اطار واحد، وتفرض عليهم تبعات وواجبات مشتركة، ويشعر كل رجل في القبيلة أنه مسؤول عن جماعته يقابله شعور القبيلة كلها عمن ينتمي اليها، وبسبب اعتقاد العرب وقناعتهم بالنسب والحسب وتفاخرهم بالانتماء والانحدار من رجل يسمى «جد القبيلة» والعشيرة، لهذه الأسباب تعصب الفرد نحو قبيلته، أي نحو أهله وأسرته كلها دون أي تمييز بين انسان وآخر. هذا التعصب قد يصل في معظم الأحيان الى «شوفينية» وهذه لها مخاطرها الاجتماعية والقومية اذ العصبية تتنافى والشعور القومي، وبالتالي فهي أحد أسباب تجزئة الأمة العربية، وهي أيضاً آلت بالأمة الى ماآلت اليه الآن.

والعصبية كما نرى وليدة ضرورة من ضرورات الحياة في المجتمع القبلي اذ لابقاء للقبيلة إلا بعصبيتها. هذه العصبية درعها وحصنها المتين، وبتعصب أفرادها يزودون عن حمى القبيلة ويرفعون من شأنها، ويخطون طريق البقاء لقبيلتهم، في مثل ذلك المجتمع الذي تسوده تلك النظم. هكذا يرى الانسان نفسه أمام واجبات مشتركة تكلفه تبعات لايجوز التنصل منها، فهو يعيش بمؤازرة ومناصرة جميع أفراد قبيلته، فالمنفعة والمصلحة متبادلة، والفرد في سبيل القبيلة، والقبيلة في سبيل الفرد[٣]، وما الثأر والانتقام إلا وليد هذه المقولة التي عاش في ظلها المفهوم القبلي، واذا ماقتل فردمنها هبّ جميع أفرادها يطالبون بدم القتيل وأي رجل من القبيلة المعادية مطالب بدم المغدور.

٢- احسان النص: العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي. رسالة دكتوراه / ص ٧١.
٣- احسان النص: العصبية القبلية في الشعر الأموي. رسالة دكتوراه ص/ ١٠٨.

لقد اعتز العرب بانتمائهم وانسابهم، وتفانوا في الحفاظ على معاني الحسب والنسب و«النعمان بن المنذر» يردُّ على «كسرى» وهو بين يديه مفتخراً ومعتزاً: «وأما أنسابها وأحسابها فليس أمة من الأمم إلا وقد جهلت آباءها وأصولها وكثيراً من أولها حتى إن أحدهم ليسأل عمَّن وراء أبيه أباً فلاينسبه ولا يعرفه وليس أحد من العرب إلا يسمِّي آباءه أباً فأباً»[٤].

وتظهر معان أخرى للعصبية أيضاً، فالرجل قد يتعصب لقبيلة أمه، وهي العاطفة نحو الخؤولة التي مصدرها الأم. ووقعها في نفس ولدها وتلك من العواطف التي تستقر في النفس البشرية. هذه العصبية قد لاتتعارض مع قبيلة الابن عندما تكون الأم من العشيرة نفسها، وهنا تجتمع العصبيتان معاً وتقفان موقفاً موحداً نحو أية قبيلة أخرى. وقد تنعكس هذه الصورة. فيتعصب الابن لقبيلة أبيه، وهذه حال «لبيد بن ربيعة» الشاعر المخضرم المعروف عندما قال له قومه: خالك قد غلبنا على الملك وصدَّ عنَّا وجهه- وهم يعنون النعمان- وأجابهم لبيد: فهل تقدرون على أن تجمعوا بيني وبينه فازجره عنكم بقول مُرٍّ مؤلم لايلتفت اليه «النعمان» بعده أبداً[٥]. وعندما اجتمعت بكر وتغلب ابنا وائل لـ«المنذر بن ماء السماء» وغزا بهم بني آكل المرار جعل على بني بكر وتغلب ابنه «عمرو بن هند» وقال: أغزُ أخوالك، فغزاهم، فاقتتلوا فانهزم بنو آكل المرار[٦].

وماقولنا عندما تتفاخر المرأة وتعتز بحسبها ونسبها على زوجها، وهذا مانراه لدى زوجة «حسان بن ثابت» الأوسية تتفاخر على زوجها بأوسيتها وتعيِّره بأخواله فما كان من «حسّان» إلا أن طلقها[٧]، وتنهدم الحياة الزوجية وتنعدم قيمتها في مثل هذه المواقف، والأمثلة في التاريخ أكثر من أن

٤- ابن عبد ربه: العقد الفريد ج/ ٢ الصفحات: ١٦-١٧-١٨.
راجع شكيب ارسلان وهو يسمي آباءه فرداً فرداً حتى المناذرة اللخميين جدوده.
٥- أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ج/ ١٥، ص٢٩٣.
٦- ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج/ ١، ص٣٢٥.
٧- أبو الفرج الأصفهاني: المصدر نفسه ج/ ٣/ ص/ ١٦. راجع احسان النص: المصدر السابق الصفحات ١٠٨-١١٥.

تحصى. وحتى تاريخنا المعاصر، فالمواقف لاتتغير نحو قبيلة الأم، أو الزوجة اذا مااعتدت أو استهانت بالأب وعشيرته عندما يغيب المعيار الحضاري.

وقد لاتقف كل تلك الأشكال التي مرَّ ذكرها حاجزاً بين تلاقي القبائل، أو أفراد من القبائل، هذا التلاقي إمَّا عن طريق المصاهرة أو الصداقات الشخصية، وكثيراً ماحصلت بين اثنين من قبيلتين متخاصمتين، مثال لقاء، أو صداقة «الكميت الأسدي» و«الطرماح الطائي» فالأول شيعي من عدنان، والثاني خارجي من قحطان، وإن كنت أشك بمدى صحة العداوة والخصومة بين قبيلتيهما، ومما يؤيد وجهة نظري العلاقة التي كانت قائمة بين همام والمهلهل وقصة قتل كليب أخي المهلهل بسيف جساس أبي همام وكل منهما احتكم الى السيف [٨].

فالقبلية والروح القبلية والتماسك القبلي تتجلى في تعاون الأبناء في سبيل مصلحتها، ودرء الأذى عنها وتفضيل مصلحتها على المصلحة الشخصية والخاصة مع ماعرف عن البدوي من فخر واعتزاز وانفه بشخصيته وعزة نفسه [٩]، وتبقى قبيلته أولاً والدفاع والزود عنها والانتقام والثأر لها وياسمها من المبادىء الأساسية في تفكيره وسلوكه بل ويضحي بنفسه في سبيلها ولو ظلمته وجارت عليه، فالمقنع الكندي يوفر لحم قبيلته- كما يعبر عن ذلك بشعره- وإن أكلوا لحمه ويبني أمجادها وإن هدموا مجده، فهو لايرى له مجداً إلا من خلال قبيلته [١٠].

إن تاريخنا مليء بالأحداث الجسام في الفتن والثورات في التاريخ الأموي، وحتى تاريخنا المعاصر، وماهي إلا نتيجة الروح القبلية المتصلبة، وماتأخر الشعب حضارياً وصعوبة وحدته في دولة واحدة إلا والعصبية أحد الأسباب الرئيسية، وهي لم تختفِ بل هي جزء من كيان الفرد، ومازالت

٨- ابن الأثير: المصدر نفسه ج١/ ص١١٦، وعند ابن رشيق: العمدة ص ٢٢٠/ ٢٣٠
٩- ابن رشيق: العمدة. ج/ ٢ ص٢٢١.
١٠- حماسة أبي تمام: ج/ ٣/ ص ١٧١.

تعشش في جوانب هذه الأمة، فالثأر الذي أدمى القلوب والدية والقانون العشائري الذي يحكم بين الناس ماهو إلا امتداد لذلك التاريخ الطويل في حياة أمتنا التي خضبت الدماء رمالها وترابها من أقصى الشرق الى أقصى الغرب.

وجاء الإسلام يرفع شعاراته التي تناقضت مع ماألفته الحياة الجاهلية «إنما المؤمنون أخوه» ثم قوله تعالى: « اذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية». وقوله عليه الصلاة والسلام: «يامعشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية» [11]. فقد حارب هذه العصبية ورفضها لأنها لاتملك الصفات الأخلاقية في حل القضايا الاجتماعية، واحقاق الحق وإنصاف المظلوم حسبما تمليه المبادىء الانسانية. لذلك نرى الرسول الكريم يبعث الى بني الحارث بن كعب: «من لم يدع الى الله ودعا الى القبائل والعشائر، فليقطعوا بالسيوف».

لايمكن الاطالة في هذه الدراسة الموجزة، ولايمكننا التوسع في مفهوم العصبية في صفحات قليلة. فقد أفرد لها الباحثون صفحات طوالا ومجلدات من الكتب، ودراسة العصبية في العهد المرواني موضوع هذا البحث مسألة على قدر كبير من الاتساع في الحجم وفي تعدد المصادر والمراجع إنما نتوخى وضع لمسات قد تفيد القارىء الباحث.

المروانية والعصبية القبلية

نظرة على السياسة السفيانية: استندت السياسة الأموية في قيامها على رضى القبائل العربية، وبما أوتي «معاوية بن أبي سفيان- الداهيه- من مقدرة في تفهم العقلية البدوية [12] متبعاً سياسة تكفل له مسايرة هذا الاتجاه. عرف عنه الشيء الكثير في مكة قبل أن يغادرها والياً على دمشق، من خلال

١١- ابن هشام: السيرة البنوية. ج٢ ص/ ٤١٢.

هذا الفهم اتهم خطأً - كما أرى - أنه أشعل نار العصبية القبلية، وضرب القبائل بعضها ببعض حتى علت كلمته وارتفع شأنه، أما أسلوب الكرم والسخاء كان بعقلية ذكية سيطر من خلالها على زعماء القبائل، استطاع أن يؤسس سلالة حاكمة بحلمه وسخائه، ولم يكن باستطاعة أحد من خصومه أو أوليائه أن يخرج منه بانطباع أنه كان يتحدث الى طاغية[١٣]. يروي لنا الطبري قصة قدوم وفد من «بني تميم» وقد أعطى لكل منهم مائة ألف درهم، في حين أعطى أحدهم «الحُتات بن يزيد أبو منازل» أقلهم، فلما علم هذا عاد اليه قائلاً: «فضحتني بين عشيرتي، وأنا ذو سن مطاع، وصاحب حسب ونسب في «بني تميم» فأجابه معاوية: بلى. قال: فما بالك خسست بي دون القوم، فقال معاوية: إني اشتريت من القوم دينهم ووكلت اليك دينك ورأيك في عثمان. فأجابه «ابن يزيد» وأنا فاشترِ مني ديني! فأمر له بتمام المبلغ»[١٤].

أما سياسته في الأقاليم العربية الأخرى فنراها في العراق تتمثل بخطبة «زياد بن أبيه»: «حرام علي الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدماً واحراقاً، فإياي وولج الليل، فإني لاأولي مدلج إلا سفكت دمه، وإياي ودعوى الجاهلية، فإني لاأجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه[١٥]».
ولانستطيع أن نذكر أن زياداً هذا خاض بدماء العراقيين، إنما السؤال الذي يطرحه الباحث: هل كان زياد بدافع العصبية اذا كان ادعاؤه: «إياي ودعوى الجاهلية» صحيحاً؟ أم كان توجيهاً من معاوية بسبب كثرة تمرد أهل العراق؟

أما مكة والمدينة فهو لايثق بأهلهما لانحياز زعمائهما الى أهل البيت،

١٢- ناجي حسن: القبائل العربية في الشرق خلال العصر الأموي. ص/ ٦٦.
١٣- هادي العلوي: فصول من تاريخ الاسلام السياسي. ص/ ٨٠.
١٤- الطبري: تاريخ الرسل والملوك. ج/ ٥/ ص/ ٢٤٢/ ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٣/ ص٢٣١.
١٥- ابن قتيبة: الإمامة والسياسة: ج١/ ص ٢٤٣.

بل راح يغدق عليهم- وهم أصحاب الرأي النافذ في الاسلام- الأموال الطائلة محاولاً أن يصرفهم عن السياسة، أو يخنق أصواتهم فيها، وهكذا استعمل لتعزيز سلطانه وتثبيت ملكه قوة سلاحه، وقوة دهائه، وقوة ماله[١٦]، حتى إنه لم يتورع عند استلحاق «زياد بن أبيه» فيثبت الشهادة على والده بالزنا يتحدى بكل بساطة السلوك القبلي والعرف العشائري اللذين كانا ولايزالان محتفظين بقوتهما، وهنا هان على معاوية أخذ البيعة لابنه «يزيد» واعلانه ولياً للعهد.

هذه سياسة العهد السفياني، التي تختلف عما كانت عليه سابقاً حيث نعم المسلمون فترة قصيرة في أثناء قيادة الرسول بحياة مثالية بسيطة في ميادين الحياة كافة في العقائد والسياسة وفي الحياة الاجتماعية[١٧] دون أن تعرف التعصب اذا ماقورنت بالعهود التي تلت أموية أو عباسية.

العصبية القبلية ومرج راهط:

أصبحت البلاد بعد وفاة «يزيد بن معاوية» في حال تشبه الذي كانت عليه بعد مقتل الخليفة «عثمان بن عفان» فقد انقسمت أقاليم الامبراطورية ولم يبق لبني أمية إلا الشام وهم فيها مختلفون، وبينهم أكثر من اتجاه ولم يكن بينهم رجل كمعاوية يستطيع أن يجمع شتات الأمة. مما ساعد زعماء القبائل والقادة الكبار لأن يدعو كل منهم الى نفسه، أو الى زعيم آخر، وهكذا اشتعلت الفتن وعادت العصبيات تعصف بالبيت الأموي.

ففي البصرة كان «عبيد الله بن زياد» وقد حاول أن يجمع كلمة الناس، وأن يوحد الصف حتى ينجلي الأمر في الشام: «فانظروا رجلاً ترضونه يقوم بأمركم ويجاهد عدوكم وينصف مظلومكم ويوزع بينكم أموالكم»[١٨]. وأظهر المجتمعون موافقتهم، لكنهم مالبثوا بعد أن خرجوا من

١٦- حنا فاخوري: تاريخ الأدب العربي. ص/ ٢١١.
١٧- موسى القبال: المغرب الاسلامي ص/ ١٤٧.
١٨- المسعودي: مروج الذهب: ج٣/ ص٣٣.

مكان الاجتماع أن أخذوا يمسحون أكفهم بباب الدار وبالحيطان قائلين: أيظن ابن مرجانه أن ننقاد له في الجماعة والفرقة»[١٩]. وعندما أحسَّ هذا الموقف منهم تركهم ولاذ بالأزد اليمنية مستجيراً. وفي الكوفة طرد الكوفيون عامل «ابن زياد» وقال بنو شيبان «الحمد لله الذي أراحنا من ابن سميه»[٢٠].

وفي خراسان كثرت الفتن والمنازعات بين القبائل وظهر الصراع القبلي على أشده، ولم تجد محاولات للاتفاق على شخص معين ريثما تسوى الأحوال في دمشق، وهكذا نرى خلع «سلم بن زياد» بعد أن بايعوه أميراً عليهم ثم يولون آخر «المهلب بن أبي صفره» وهو من الأزد[٢١] في حين رفضته القيسية ولم تقبله أميراً، عندها زادت الفوضى القبلية وازداد غياب دمشق السلطة وكثر الخلاف بين الأزد وربيعة والاقتتال مع بني تميم الى أن خرج «الأحنف بن قيس» وهو يقول: «الله الله يامعشر الأزد في دمائنا ودمائكم بيننا وبينكم القرآن ومن شئتم من أهل الاسلام»[٢٢].

واذا تابعنا تقصي أخبار العصبيات - والأمر يطول، ولاطاقة لمثل هذا الايجاز في تحمله - في هذه المرحلة التي سماها المؤرخون «الفتنة الثانية» تجد أن ثمة كتلاً قبلية أدت دوراً بارزاً، وهي اليمنية وربيعة ومضر، نلاحظ في الوقت نفسه أن اليمنية عملت منذ بداية عصر بني أمية على توحيد صفوفها وتكتلها لتستطيع مجابهة القبائل العدنانية وخوفاً أن تتسلط عليها القبائل المضرية[٢٣]، هذا يفسر لنا أسباب قبول الأزد «ابن زياد» مستجيراً في الوقت نفسه كانت الدعوة اليمنية تجمع شمل القبائل القحطانية دوماً على كثرة بطونها، وأسباب هذا التكتل نراه أيضاً من خلال تجربتنا في معركة «صفين»

١٩- ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٣/ ص ٣٢٠.
٢٠- ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج/ ٣/ ٣٢٠.
٢١- نبيه العاقل: محاضرات في التاريخ الاسلامي. ص/ ٣٩.
٢٢- ابن الأثير: مصدر سابق ج/ ٣ ص/ ٣٢٤.
٢٣- احسان النص: مصدر سابق ص/ ٢٧٣.

اذ انقسمت هذه القبائل على نفسها في سبيل رجلين من قريش، ورأت أن اقصاءها عن الخلافة بعد موت الرسول هو امتهان للانصار جميعاً من الأوس والخزرج، وللخزرج هؤلاء صلة المصاهرة مع «عبد المطلب» جد الرسول الكريم وهم أهل حرب انتصروا له على أعمامه قبل البعثة ولحفيده -النبي- في هجرته[٢٤] . جميع هذه الأسباب دفعت القبائل القحطانية الى التكتل ورأت في مساندة الأمويين تعزية لها عن خسارة تلك المواقع التي تطلعوا اليها والمجابهة في مرج راهط بقلب واحد.

وعلى الجانب الآخر نرى القيسية من مطلع العصر الأموي تعمل على توحيد صفوفها، لكنها لم تكن في القوة الوحدوية القحطانية. فقد أورد الطبري قول أحد أبناء ربيعة: إنَّ ربيعة لم تزل غضاباً على ربها منذ اختار الله رسوله من مضر[٢٥] . لكن مهما قيل في هذا الاتجاه سواء في وحدة اليمنية أم في ضعف التحالفات العدنانية، فمثل هذه لايمكن أن نطلق العنان لتفسيرنا، إذ أن الصدوع أصابت القحطانية كما فعلت في العدنانية، وقد مرّ بنا كيف انقسمت القحطانية في معركة صفين، وكيف أن يمنية العراق تقف أحياناً مواقف مغايرة ليمنية أهل الشام، وهذا يعود بأسبابه الى التقرب من السلطة، أو البعد عنها، أو لأسباب مادية التي تؤدي دوراً كبيراً، لكننا نرجح دوماً أثر السلطة في القبائل البدوية والعمل على إثارة الصراعات في صفوفها لاضعافها وبالتالي يسهل السيطرة عليها وقيادتها.

مرج راهط وهزيمة القيسية:

وقفت اليمنية الى جانب بني أمية في هذه الظروف الحرجة، وذلك بعد أن فاتها الحكم في بلاد الحجاز ولأن «بني كلب» أصهار معاوية وخؤولة يزيد بن معاوية وثالثة أن حسان بن بحدل الكلبي تخلى عن الدعوة لنفسه، وقد عبَّر أحد شعراء اليمانية عن موقف قومه بقوله:

٢٤- راجع سيد محمود القمني: الحزب الهاشمي وتأسيس الدولة الهاشمية. ص/ ٤٣/ ٤٤.

٢٥- الطبري: مصدر سابق ج/ ٤ ص/ ٤٢٤.

فإلا يكن منّا الخليفة نفسه فما نالها إلا ونحن شهود[٢٦]

هذه المعاني هي التي دفعت قادة وزعماء اليمانية الى تبني «مروان بن الحكم» فـ «الحصين بن نمير» الذي فشل في دعوة «عبد الله بن الزبير» الى دمشق- قد لايكون لمثل موقفه إجماع يماني في تأييد زعيم الحجاز أو عودة الحكم الى أهل الحجاز- وعند عودته من الحجاز يقول لبني أمية: نراكم في اختلاط فأقيموا أميركم قبل أن يدخل عليكم شأنكم فتكون فتنة عمياء صماء[٢٧]. وعبَّر عن الموقف نفسه «روح بن زنباع الجذامي» بقوله: إن الملك كان فينا أهل الشام أفينقل الى أهل الحجاز[٢٨]، وراح يحرض مروان بن الحكم. أما عبيد الله بن زياد وبعد وصوله الى دمشق فقد حسم الموقف بقوله لمروان: قد اسميت لك من ذلك أنت كبير قريش وسيّدها تمضي الى أبي خبيب فتبايعه، وأجابه مروان: مافات شيء بعد[٢٩].

هذ الأوضاع المضطربة دعت الأمويين الى توحيد صفوفهم، وتدارس الأمور، ووضع حد لهذه الفوضى التي عمت جميع أقاليم الدولة العربية، فأسرعوا الى التنسيق فيما بينهم وقرروا جميعاً الاتجاه الى عقد مؤتمر في موقع الجابيه[٣٠]، وهناك تناظروا في ابن الزبير وخالد بن يزيد بن معاوية وعمرو بن سعيد بن العاص، وفي الاجتماع وقف ابن زياد خطيباً: «ياأهل الشام هذا مروان بن الحكم شيخ قريش والمطالب بدم عثمان والمقاتل لـ «علي بن أبي طالب» يوم الجمل، ويوم صفين، فبايعوا الكبير، واستنبيوا للصغير ثم لـ «عمرو بن سعيد». ثم تحدث روح بن زنباع الجذامي: «... وأما مروان بن الحكم فو الله ما كان في الاسلام صدع إلا كان ممن يشعبه

٢٦- احسان النص. م بس، ص٢٧٦

٢٧- ابن الأثير: مصدر سابق ج/٣ ص٣٢٦.

٢٨- ابن قتيبة: الامامة والسياسة. ج٢/ ص١٢. وكذلك أخبار سنة ٦٤هـ عند الطبري.

٢٩- ابن الأثير: مصدر سابق ج/٣، ص٣٢٦- كان ابن الزبير يلقب بأبي خبيب.

٣٠- الجابيه قرية من أعمال دمشق ناحية الجولان قرب مرج الصفر شمال حوران اذا وقف الناظر في قرية الصنمين واستقبل الشمال ظهرت له. ياقوت الحموي: معجم البلدان. ج٢/ ص٩١.

وهو الذي قاتل علي بن أبي طالب يوم الجمل، وأنَّا نرى للناس أن يبايعوا الكبير ويستشيروا الصغير[٣١]، اشارة لخالد بن يزيد وعمرو بن سعيد، وهكذا أجمع الخطباء من زعماء القبائل على مروان وكان يعني هذا الاجماع وحدة الصف اليمني، وبالتالي وحدة بني أمية التي تبلورت في الإعلان عن المبايعة لابن الحكم لثلاث خلون من ذي القعدة سنة أربع وستين للهجرة، وقد سار بجموع الناس نحو مرج راهط.

وفي خضم هذه الأحداث، أخذت القيسية تلمُّ شملها وتوحد صفوفها، وقد أخافها موقف اليمنية الموحد، فشرعت تدعو لابن الزبير وتناصره، وقد حققت انتصارات ودانت له معظم الامصار والأقاليم العربية.

- ففي الكوفة والبصرة طردُ ابن زياد وبايع الناس لـ «عبد الله بن الزبير» ولم تتمكن قبائل الأزد أن تنال من مؤيديه في هذين المصرين، حتى أوكلوا قيادتهم الى «المهلب بن أبي صفرة» الأزدي. ويرى نبيه العاقل أنه لم يكن دليل تمكن اليمنية، وأغلب الظن أن كل قوم غلب على ناحية من أقاليم المشرق[٣٢].

-وفي شمال الجزيرة، وعلى جانبي الفرات، كانت تقيم القيسية، في قنسرين وقرقسيا وحران، وقد شعرت بالمرارة من جراء تقديم معاوية بن أبي سفيان بني كلب عليهم وتسليم رئاسة القبائل الى سعيد بن مالك بن بحدل، وتعيينه عاملاً على قنسرين، وكان ردة الفعل على هذا الموقف أن نهض بالقيسية «زفر بن الحارث الكلابي» وقد تمكن من طرد ابن مالك وبايعوا لابن الزبير.

- وفي دمشق تولى الأمر الضحاك بن قيس الفهري الذي كان يدعو لابن الزبير سراً، ويروي لنا ابن الأثير مادار بينه وبين أنصار بني أمية والشتم

٣١- ابن الأثير: مصدر سابق ج٣. ص٣٢٤-٣٢٧.

٣٢- نبيه العاقل: محاضرات في التاريخ الاسلامي. ص/٣٩.

المتبادل بين زعماء القيسية والكلبية في ذلك اليوم الذي سمّاه أهل الشام «يوم جيرون الأول»[٣٣] الى أن يقول: فقام الناس بعضهم الى بعض فاقتتلوا: قيس تدعو لابن الزبير ونصرة الضحاك. وكلب تدعو لبني أمية ثم لخالد بن يزيد لأنه ابن أختهم[٣٤]. أما الضحاك نفسه فلم يكن قد بلور موقفه وحزم رأيه بصورة علنية.

- وفي الجابيه حيث اجتمع الناس- كما أسلفنا- وقف «ثور بن معن السلمي» يندد بالضحاك ويقول له: دعوتنا الى ابن الزبير فبايعناك على ذلك وأنت تسير اليوم الى هذا الاعرابي من بني كلب، ويشير الى خالد بن يزيد. وتذكر المصادر أن القيسية رفضت موقف زعيمهم الضحاك، وطلبت منه اظهار الدعوة لابن الزبير، عندها غادر الجابية واتجه بجموع القيسية الى مرج راهط ودمشق بيده، واعتقد أنَّ من أهم أسباب تراجعه استياءه لخروج الأمر من يد ابن الزبير ووقوف اليمنية الى جانب مروان بن الحكم.

في جميع الأحوال توجه الضحاك الى مرج راهط في جموع هائلة من القيسية وجماعة من قضاعه برئاسة وائل بن عمر والعدوي، وقد استمد زفر بن الحارث الكلابي بقنسرين فأمده بأهل قنسرين، وأمده نائل بأهل فلسطين[٣٥]، وأما مروان بن الحكم فقد اجتمعت اليه حشود اليمنية من كلب وغسان والسكاسك والسكون، وهي جميعها تشعر بخطورة لقاء القيسية في مرج راهط حيث سيتقرر مصير كل من العصبيتين.

كانت المعارك خطيرة وجسيمة لكنها انتهت بهزيمة نكراء للقيسية، وقتل الضحاك بن قيس الفهري وعدد كبير من أشراف أهل الشام، وذكر المؤرخون أن القيسية لم تشهد هزيمة مثلها وأنها قُتلت مقتلة لم يُقتل مثلها

٣٣- الطبري: مصدر سابق ج/ ٤ ص٤٠٩ ذكرها أيضاً احسان النص ص ٢٩٨.

٣٤- ابن الأثير: مصدر سابق ج٣. انظر أحداث بيعة مروان بن الحكم.

٣٥- احسان النص: مصدر سابق / ص ٢٩٩.

في موطن قط، وممن قتل هاني بن قبيصة النميري سيد قومه[٣٦]. وتلاحقت فلولهم أجنادهم، فالنعمان بن بشير الأنصاري يخرج من حمص هارباً ويقع في يد اليمنية فيقتلونه. وزفر بن الحارث الكلابي يفرّ من قنسرين الى قرقسيا ويتغلب عليها، ويمتنع فيها كذلك تراجع نائل بن قيس الجذامي عن فلسطين ويلوذ بابن الزبير في مكة[٣٧].

لم يكن يوم مرج راهط قتلاً بين جيشين أحدهما غلب الآخر وانضمت فلول المغلوب الى الغالب ودانت له بالطاعة، إلا أنه كان مظهراً من مظاهر الصراع القبلي، وانبعاث خطير لذلك العداء التقليدي بين القيسيين واليمنية، وهي تدل بوضوح أكثر على استمرارية العقلية البدوية العشائرية وهذه لها قوانينها وأعرافها وتقاليدها، تؤكد دوماً التماسك بين البطون والأفخاذ، ونرى ثانية أن لا عودة بعد هذه الواقعة الى عهد الرسول أو حكم الخلفاء الراشدين حيث كان من الممكن أن يستمر نهج هؤلاء في محاربة العصبية الجاهلية، لكن انتصار اليمنية بهذه الصورة التقليدية لعصبية القبائل لن يكون له بعد عسكري أو سياسي يسكت القيسية ويغمد سيوفها، إنما الصراع سوف يستمر طوال العصر الأموي وهو بالتالي من العوامل التي سببت سقوطه عندما استغله الدعاة العباسيون استغلالاً ناجحاً ونهضت به الشعوبية تحت شعار العصبية العروبية.

آفاق العصبية القبلية في الامبراطورية الاسلامية

العصبية القبلية بعد مرج راهط:

يذكر لنا صاحب الأغاني استمرار غارات قبلية متبادلة بين القيسية واليمنية في عهد عبد الملك بن مروان وكان يجلس بنفسه يستمع الى أطراف النزاع، لكن ما إن انتهت فتنة ابن الزبير حتى بدأ الخليفة يلتفت الى تهدئة

٣٦- ابن الأثير: مصدر سابق. ج٣ ص٣٢٦ أحداث مرج راهط.
٣٧- عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية الكبرى. ص/ ٦٦٣.

الأحوال في المشرق العربي على يد قائده الحجاج بن يوسف الثقفي، حيث هناك الآثار المؤلمة التي خلفتها أحداث مرج راهط ومرارة القيسية وحقدهم على اليمنية في تحين الفرص للوثوب والثأر والانتقام من كلب وأحلافها، وقد تمثل هذا في العديد من المنازعات والحروب التي قامت بين العصبيتين وقد وقف رجال الدولة منها مواقف مختلفة تتناسب وميولهم وعصبياتهم اذ أنه كان من العسير على عمال الأمصار عدم الانحياز الى معسكر من المعسكرين، فحين يكون العامل من قيس يتقدم منه أبناء جلدته، ويقولون له: أنت منا فإن لم تقدمنا نبذناك، واذا لم يفعل وقع بين نار القيسية واليمنية، ويصح هذا على العامل اليماني أيضاً، وعلى أبناء الخلفاء فمن كانت أمه قيسية قربَّ أخواله من قيس، ومن كانت أمه يمانية اعتمد على رجال القبائل اليمنية.

وقد أدرك الخليفة عبد الملك بن مروان الآثار العصبية التي خلفتها واقعة مرج راهط وسياسة والده التي اعتمد فيها على العصبية القبلية[٣٨]، مما دفع القيسية الى تأييد ودعم عبد الله بن الزبير. والغريب في الأمر أن الفرع المرواني يتصل نسبه بالعدنانية القيسية، في حين الكلبية من الفرع القحطاني لهذا عزم عبد الملك أن يسلك طريقاً وسطاً في ميدان العصبيات فترك التعصب لليمنية وقرب القيسية بقدر ماكان يقرب اليمنية، وقد أدت هذه السياسة الى التخفيف من غلو السيطرة اليمنية، في الوقت نفسه أدى هذا الموقف الى ترك القيسية سياسة مقاومة عبد الملك فقرب رجالهم ووسد اليهم من الأمور بقدر ماوسد الى خصومهم من العصبية الأخرى، فأصبح «زفر بن الحارث الكلابي» وأبناؤه من أبرز شخصيات بلاط دمشق دون أن ينتقص من أهمية الكلبية، فابن بحدل، وروح بن زنباع، من شخصيات البلاط

٣٨- أورد احسان النص: وقفت قبيلة كلب- أقوى القبائل اليمنية بالشام- الموقف الذي تمليه عليه مصلحتها وهو مساندة بني أمية والأسرة السفيانية خاصة لما بينها من روابط المصاهرة. العصبية القبلية: مصدر سابق ص/ ٢٩٧-٢٩٨.

البارزة أيضاً، وبهذه السياسة استطاع عبد الملك أن يوطد حكم بني أمية بعد معاوية، اذ عرف كيف يختار الشخصيات البارزة من مختلف العصبيات، فاعتمد أهل دمشق بالدرجة الأولى قيسهم ويمنهم، فوسدهم الوظائف العليا في الجيش والادارة، فولّد الشعور بأنهم جماعة واحدة بخلاف ماكانت عليه الحال في الأمصار الأخرى.

لكن سياسة عبد الملك هذه لم تكن استراتيجية ثابتة أو ايديولوجيا تتمظهر بالعداء لأي لون من ألوان العصبية، بالتحديد بعد أن وطّد حكمه في بلاد الشام والحجاز ودانت له العراق بالطاعة على يد واليه الحجاج بن يوسف الذي اشتهر بطغيانه إنما كانت سياسته التشبث بالسلطة وقد لخصها بقوله: «أما بعد فلست بالخليفة المستضعف- يُعني عثمان- ولا الخليفة المداهن- يُعني معاوية- ولا الخليفة المأفون- يعني يزيد- ألا إني لأداوي أدواء هذه الأمة إلا بالسيف حتى تستقيم لي قناتكم»[٣٩]. وولاة الخلفاء كانوا يلجأون الى قوة القبائل وعصبيتها لتوطيد حكمهم وتثبيته، وهكذا تستمر الروح القبلية حتى يومنا هذا، ولم تختف بعد.

آفاق العصبية القبلية في شرق الامبراطورية:

يعد زياد بن أبيه أشد ولاة بني أمية مناهضة للعصبية القبلية، كان يحرص في خطبه على تحذير الناس من العصبية ودعوة الجاهلية- ويتهدد الداعين بقطع ألسنتهم فحارب روح الجاهلية روح المفاخرة والمنافرة والتبجح بالكرم، ومما زاد في سخطه على الفرزدق - الشاعر المعروف- أن هذا قدم البصرة يوماً فباع إبلاً وجعل يصرُّ أثمانها فقال له رجل: إنك لتصرّ أثمانها، فلو كان غالب بن صعصعة ماصرَّها. «ففتح الفرزدق تلك الصرر ونثرها، فعندما علم ابن أبيه بذلك أخذ في طلبه»[٤٠].

٣٩- السيوطي: تاريخ الخلفاء. ص/ ٢١٨/ ٢١٩. وكذلك عند صاحب العقد الفريد ج٤/ ص١٧٨.

٤٠- المبرد: الكامل في الأدب. ج١/ ص٢٩١.

وعلى ماعُرف عنه في مثل هذه المواقف فقد كان يلجأ أحياناً الى العصبيات لتحقيق مآربه السياسية، ولكي يثير الأزد على بني تميم أخذ يضرب على روح العصبية ويثير في نفوس مجيريه حمية الجاهلية وروح الاعتزاز القبلي[٤١]، تلك كانت سياسة سيّده في دمشق في ضرب القبائل بعضها ببعض ليحول دون اجتماع كلمتها وتوحيد قواها.

هذه السياسة القبلية في مشرق الامبراطورية اعتمدها عمّال بني أمية في نهاية العهد الأموي تحديداً، لكن من الإنصاف القول إنّه بعدما وطّد عبد الملك حكم الدولة الأموية شرع في ازالة آثار مرج راهط كما مرّ بنا، فالحجاج بن يوسف الثقفي يعتبر أشد ولاة بني أمية في مناهضة أعدائهم، وما من والٍ استطاع أن يخمد فتن العراق مثل الحجاج، ففي عهده رفرفت على العراق والمشرق عامة رايات السلام والهدوء، وهذا لم يكن- حسب رأينا- بفعل عصبيته ولا بكثرة القيسية أو المضرية، وإن كان قد اتهم بذلك عندما جعل معظم عمّاله من القيسية بل كان المهلب بن أبي صفرة سيّد الأزد اليمنية من عمّاله أيضاً.

وفي العهود التي تلت تعيين الجراح بن عبد الله الحكمي على خراسان، أو عدي بن أرطأه على البصرة لم يكن هذا التعيين بدوافع عصبية قبلية إنما كونهما شخصين مشهوداً لهما بالقدرة والتقوى[٤٢]، وعندما يجنح الجراح نحو يمنيته يعزله عمر بن عبد العزيز دون النظر الى إمكاناته وقدراته التي يمتلكها، وقد تدخل العلاقات الشخصية في تقريب والٍ أو ابعاد آخر[٤٣]، وهذا ماحصل لبعض ولاة وقادة الدولة الأموية وهي في أوج عظمتها العسكرية، كما في عهد سليمان بن عبد الملك عندما انتقم من

٤١- احسان النص: مصدر سابق. ص/ ٢٤١.

٤٢- نبيه العاقل: محاضرات في التاريخ الاسلامي ص/ ٣١.

٤٣- ابن قتيبة: الامامه والسياسة، ج٢/ ص٣٥. راجع الصفحات ٢٤٠-٢٤٥ عند احسان النص.

موسى بن نصير، ومن قتيبة بن مسلم الباهلي، وغيرهما، فكان ذلك على أساس حقد شخصي، بدعوى أن بعض قادة الوليد بن عبد الملك عملوا على تنحيته من ولاية العهد، كذلك فعلها عمر بن عبد العزيز في عزل يزيد بن المهلب، وقد طلب من واليه على البصرة عدي بن أرطاه أن يأتي به موثوقاً[٤٤].

وكلما مالت الدولة نحو شيخوختها قويت العصبية القبلية والعلاقات الشخصية على حدٍ سواء وهذا مانلاحظه في خطبة يزيد بن الوليد من تودد واستعطاف[٤٥].

لكن العصبية القبلية في عهد يزيد بن عبد الملك لم تعد مقبوله فقد نهكت الدولة وقصم ظهرها، وأرى أن الحرب التي دارت بين هذا ويزيد بن المهلب بن أبي صفرة عجلت في سقوط دولة بني أمية، ولم تنس اليمنية ماأصاب آل المهلب من ذبح وقتل وتشريد في الشيوخ والنساء والأطفال على يد قائده مسلمه بن عبد الملك دون مراعاة ولا وفاء لهذه الأسرة النبيلة التي ساهمت في توطيد ودعم حكم الأمويين وتوسيع الفتوحات في شرق الامبراطورية[٤٦].

ويرى بعضهم أن عهد هشام بن عبد الملك قد وطّد حكم بني أمية ويعتبرونه ثالثاً بعد معاوية وعبد الملك، لكن لم تنفعه إعادة الاعتبار للعصبية اليمنية ولم يلتئم جرح هؤلاء حتى أمر هشام بعزلهم عن ولاية العراق «خالد بن عبد الله القسري» وعن خراسان «أسد بن عبد الله

٤٤- ابن الأثير: مصدر سابق ج٤ / ص١٥٧.

٤٥- راجع خطبة يزيد بن الوليد عند ابن قتية في عيون الأخبار ج٢/ ص٢٤٣.

٤٦- راجع الطبري: ١- مصدر سابق ج٦/ ص ٥٩٠-٦٠٥.

٢- وقصيدة ثابت قطنه شاعر الأزد يتوعد بالثأر:

ألا ياهند طال عليَّ ليلي ... وعاد قصيره ليلاً تماماً

فلا والله لاأنسى يزيداً ... ولا القتلى التي قتلت حراما

وعليَّ أن أقود الخيل شعثا ... شوازب ضمراً تقص الأكاما

القسري» وقيل وصل التطرف عند هؤلاء الى حد لم يعد يطيقه هشام، فأمر بعزل أسد وتولية «نصر بن سيار» شيخ مضر[٤٧]، وهذا لم يترك بدوره مضرياً إلا واستعمله طوال ولايته وفي عهده حصلت الوقعة بين المضرية واليمنية في خراسان.

فالمغالاة في العصبية القبلية لولاة بني أمية في المشرق أججت نار الحقد والكراهية أولاً بين القبائل العربية التي دأبت على الانتقام عندما يأتي الدور لإحدى العصبيتين، وثانيهما راح العديد من الموالي الفرس والشعوب الأخرى ضحايا الاقتتال القبلي، وقد ساعد ذلك دعاة بني العباس في استغلال هذه الأجواء أحسن استغلال، وخاصة ماكان في عهد ولاية نصر بن سيار الثانية والأخيرة على خراسان.

العصبية القبلية في المغرب الاسلامي وآثارها:

استطاعت القبائل اليمنية بعد فتح بلاد المغرب والاستقرار فيه- وان لم تكن وحدها- ضم بلاد الأندلس، ومع ذلك فقد تعرضت هذه القبائل للمحن والخطوب بسبب المنازعات القديمة التي حملها العرب الفاتحون معهم، فهم أي اليمانية يميلون الى الهدوء حين يكون ولاتهم من عصبيتهم أما اذا كان الولاة من قيس فتتغير الأحوال وتتفشى الاضطرابات[٤٨]. هذه المنازعات انتقلت من الشرق الى الغرب حيث أدت دوراً كبيراً وعلى أساسها يتمُّ تعيين أو عزل قادة الفتح وولاة الأمصار وعمال الولايات. وسار على هذه السياسة جل الخلفاء من بني أمية من الفرع المرواني[٤٩].

من هنا نلاحظ أن بلاد المغرب كغيرها عانت من الفتن السياسية الناجمة عن الخصومات القبلية بين القيسية واليمنية، حتى ليذهب بعض الدارسين- وهذا مأراه- الى اعتبارها دافعاً سياسياً لثورات الأمازيغ-

---

٤٧- أشار يوسف بن عمر الثقفي على هشام بن عبد الملك بتولية نصر على خراسان.

٤٨- مصطفى أبو ضيف وآخرون: القبائل العربية في المغرب ص٤٣.

٤٩- موسى القبال: مصدر سابق ص١١٩.

البرْبِر – على الحكم الأموي وقد بدأت فعلاً منذ الأيام الأولى لدخول العرب شمال افريقية ثم بلاد الأندلس[٥٠].

وكانت البدايات الأولى للعصبية القبلية في البلاد الجديدة أعقبت عزل موسى بن نصير في عهد سليمان بن عبد الملك والانتقام منه، ثم تعاقب الولاة قيسيين ويمنيين وكانت تصفية الحسابات بين العصبيتين تدمي القلوب، فراح ضحيتها عبد العزيز بن موسى بن نصير أحد قادة الفتح الثلاثة وأخوه عبد الله وحمل رأسهما وألقيا أمام أبيهما وهو في عذابه وبحضور سليمان «الخليفة» نفسه[٥١].

وممن لهم يد طولى في التعصب والعصبية عبيدة بن عبد الرحمن السلمي الذي قدم المغرب سنة ١١٠هـ ربيع الأول، وكان قيسياً، فراح يتعقب عمّال سلفه بشر بن صفوان، ومن بينهم أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي، وكان شريفاً في قومه مع فصاحة وبراعة، فعزله وعذبه ونكّل به وهو القائل من قصيدة أرسلها الى هشام بن عبد الملك[٥٢]:

أفأتم بني مروان قيساً دماءنا وفي الله إن لم تنصفوا حكم عدل

وكان عبيدة على حسن رأيه وحزمه شديداً في معاملته للأمازيغ، فأسرف في غزو قبائلهم وسبي نسائهم[٥٣]، وسار على نهجه في هذا التعصب عبد الله بن الحجاب الذي ولي مصر فيما بعد وعماله: عقبة بن الحجاج السلولي القيسي والي الأندلس، وابنه اسماعيل والي طنجة، وعمر بن عبد الله المراوي، وكان عبد الله قيسياً متعصباً على الأمازيغ واليمانية[٥٤] . وكان لهذه السياسة انعكاساتها على العرب قيسهم ويمنهم، فثار الأمازيغ

٥٠- محمود اسماعيل: الخوارج في المغرب الاسلامي ص٤٣.
٥١- ابن عذاري: البيان المغرب. ج١ ص/ ٤٧. ابن قتيبة: مصدر سابق/ ج٢ ص/ ٨١.
٥٢- ابن عذاري: البيان المغرب. ج١ ص/ ٥٠ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب ج٢/ ص٢٩٦.
٥٣- السيد عبد العزيز سالم: المصدر نفسه ج٢/ ص٢٩٧.
٥٤- ابن عذاري: المصدر نفسه ج١/ ص٥١.

وشقوا عصا الطاعة فهزموا العرب في أقسى المعارك وأشدها هولاً، اذ قُتل خالد بن أبي حبيب الفهري وعدد كبير من الاشراف حتى سُميت المعركة بموقعة «الاشراف»[٥٥] تكبد فيها العرب خسائر كبرى.

وهكذا عصفت العصبية القبلية بالعرب فحطت من شأنهم وأنهت حكم بني أمية ثم سببت في طردهم من اسبانيا وملاحقة المسلمين وحرقهم أحياء وإكراههم على التحول عن دينهم، فهل نتخلى عن عصبيتنا ونعود للتاريخ ثانية؟

الخاتمـــة

لعبت سياسة الخلفاء الأمويين وولاتهم دوراً في إذكاء الفتن والمنازعات القبلية كما مرَّ بنا، وقد لاحظنا أن عمّال بني أمية في أمصار الامبراطورية المترامية الأطراف كانوا صدى لبلاط دمشق في أغلب الأحيان وإن كنت لاأميل الى الافراط في هذا الحكم على خلفاء بني أمية جميعهم، وقد لاحظنا كيف عمل عبد الملك على إنهاء آثار مرج راهط، وبعض الخلفاء أمثال عمر بن عبد العزيز كيف عزل من تعصب من اليمنية.

إلا أن حدة العصبية في نفس الانسان العربي سرعان ماتظهر، ولأتفه الأسباب عندما تجد من يستغلها ويذكيها، وهذامايحصل عبر التاريخ العربي قديمه وحديثه. والأمة العربية سوف تبقى في حالة التجزئة السياسية والاقتصادية الى أن تختفي القبلية وتجرف باختفائها الطائفية، عندها تسود الديمقراطية ويتحقق حلم الانسان العربي في وحدة أمته.

* * *

٥٥- ابن عذاري: المصدر نفسه. ج١/ ص٥٤. ابن الأثير: مصدر سابق ج٤ ص ٢٥٠.

الدّماغ وعلم النّفس من وجهة نظر هولوغرافية

د. قيصر زحكا

منذ فجر التّاريخ ومروراً بالمدارس الطبيّة الإغريقية والعربيّة وغيرها، والإنسان يتنازع بين وجهتي نظر: وجهة نظر تجزيئيّة انفصاليّة تنظر لدور كلّ شيء وكلّ جزء داخل هذا الشّيء بمفرده، ووجهة نظر شموليّة تكامليّة تنظر للكون والأشياء ككلّ متكامل

* الدكتور قيصر زحكا: طبيب اختصاصي في الأمراض العصبية وباحث ومترجم في علم السلوك الطبي.

لا يقبل التّجزئة. وقد ظهرت وجهتا النّظر في شتّى المجالات العلميّة والطبيّة والفلسفيّة والاجتماعية والسياسيّة والدينيّة. وكانت تغلب في زمن ما وفي مجتمع ما وجهة النّظر الأولى، بينما تسود الثّانية في مجتمع آخر أو في زمن آخر. مع قيام النّهضة العلميّة في أوروبّة وتأثيرها على مستوى المجالات غلبت وجهة النّظر التّجزيئيّة بشكل عامّ، ولكن مع حلول القرن العشرين والفواجع التي حدثت في الحربين العالميّتين والحروب الأخرى والمآسي الاجتماعيّة التي حدثت نتيجة التطوّر التّقني والجشع والإمعان في النّظرة الفرديّة والتّجزيئيّة؛ بدأت تظهر نوازع شمولية تكامليّة من جديد على مختلف الأصعدة من الفيزياء الكوانتيّة لنظريّات كارل يونغ وغيره في علم النّفس والدّراسات العديدة الاجتماعيّة والسياسيّة والإنسانيّة والبيئيّة التي تنادي بتأثير الأشياء على بعضها البعض باستمرار، وأنّ أيّ ضرر نلحقه بإنسان آخر مهما كان عرقه، دينه، جنسه وموطنه أو بالأشياء الأخرى أو بالبيئة والأرض سينقلب علينا ويترك تأثيرات قويّة. وعلى الرّغم من أنّ الطبّ بشكله الحديث ما زال يغلب عليه وجهة النّظر التّجزيئية، إلاّ أنّه يلاحظ انتشار متزايد ومتسارع وخاصّة في الدّول الغربيّة لأفكار ومدارس تكامليّة، والتي يعود بعضها طبعاً إلى أزمان غابرة مثل الطبّ الصينّي، والطبّ الهندي المعروف باسم Ayurvedic Medicine، والطبّ الطّبيعي Naturopathy والذي له علاقة وثيقة بالطبّ الشاماني من خلال العقاقير التي كانت تحضّر من مواد نباتيّة وتستعمل من قبل الشّامان أو الحكيم في تلك القبائل، والطبّ المثليّ Homeopathy الذي بدأ مع الطّبيب الألماني Hahnemann ويسير على مبدأ «وداوها بالتي كانت هي الدّاء».

بدأ بعض الأطبّاء يهتمّون أكثر وأكثر كيف أنّ أعضاء الجسم المختلفة وأمراضها تعبّر عن نفسها في أعضاء بعيدة عنها كالعين والأذن والقدم، وبذلك ازدادت أواصر الشّموليّة والتكامليّة في الجسم، فنشأ علم الـ Iridology والذي يمكن بواسطته تشخيص العديد من الأمراض عن طريق

النّظر إلى قزحيّة العين، وقد أصبح يدرّس في عدد من كليّات الطبّ في ألمانيا ودول أوروبا الشرقيّة والاسكندينافيّة، وعلم الـ Reflexology الذي يمكن بواسطته التّأثير على أعضاء وأمراض مختلفة عن طريق الضّغط على مناطق معيّنة في القدم، وهو ينتشر بشكل خاص في الولايات المتّحدة وكندا، وكذلك علم الـ Osteopathy والذي يتمّ بواسطته إجراء مناورات عديدة على العظام المختلفة والأنسجة الرّخوة ليؤثّر بواسطتها على أعضاء أخرى وهو ينتشر أيضاً في الولايات المتّحدة وكندا وكانت لاكتشافات الطّبيب الفرنسي Paul Nogier في أنّ صيوان الأذن يحوي شكلاً مصغّراً لإنسان مقلوب، وأنّ استعمال الإبر الصينيّة والتّنبيهات الكهربائيّة على مناطق محدّدة من صيوان الأذن سيؤثّر على أعضاء معيّنة في الجسم أن أحدثت ضجّة كبيرة وخاصّة أنّ Paul Nogier لم يعرف عندئذ أنّ الصينيين القدماء استعملوا هذه الطّريقة، وعندما قورنت مخطّطاته بالمخطّطات الصينيّة القديمة وجد تطابقاً لا يقلّ عن ٩٠٪.

سنمرّ في هذا البحث على العديد من الأفكار والنظريّات التي قد تبدو غريبة للبعض؛ ولكن كما يقول T.H. Huxley: «انظر إلى الحقيقة كطفل صغير وكن مؤهّلاً أن تتخلّى عن كلّ المعلومات السّابقة، واتبع الطّبيعة فقط إلى حيث تقودك وإلاّ فلن تتعلّم شيئاً».

قبل البدء بالموضوع الأساسي، لا بدّ أن أمرّ مروراً بسيطاً على بعض المبادىء الرياضيّة والفيزيائيّة الأساسيّة؛ أولّها ما هو **الهولوغرام Holo-gram**. يحدث الهولوغرام من تجزئة شعاع ليزري وحيد إلى جزئين الأولّ يمرّ على جسم ما كتفّاحة، والثّاني يمرّ على عدّة مرايا عاكسة ليلتحم بعد ذلك مع الجزء الأولّ ويحدث نمط تداخل، ثم يوجّهان نحو فيلم حسّاس، فالعين المجرّدة سترى عندئذ دوائر ذات مركز واحد كأن ترمي حصاة في الماء، ولكن إن قمنا بتوجيه ضوء ليزر آخر نحو الفيلم أو حتّى ضوء مصباح شديد، سيتكوّن عندنا صورة ثلاثيّة الأبعاد للجسم، وسيظنّ أيّ شخص أنّ

هناك بالفعل تفاّحة، وسيراها من أيّة زاوية كانت، ولكن إن حاول مدّ يده لالتقاطها، سيصاب بخيبة أمل شديدة؛ فالصفّات الممتعة والمميّزة للهولوغرام هي:

١ - ثلاثيّة الأبعاد.

٢ - **الجزء يعبّر عن الكلّ**: فإذا قمنا بتقسيم قطع الفيلم، فإنّ أيّة قطعة إذا وجّه لها أشعّة الليزر، ستعطي صورة كاملة للتفاّحة، ولكن بشكل مصغّر. وبمعنى آخر، ستحوي كلّ قطعة معلومات عن الكلّ. (أحبّ أن أوضّح هنا أنّ هذه الظّاهرة لا تنطبق على الصّور الثلاثيّة الأبعاد الموجودة في السّوق والتي ترى بالعين المجرّدة، بل يجب أن تكون من النّمط الذي لا يرى إلاّ بتوجيه أشعّة معيّنة تجاهها).

٣ - **إمكانيّة اختزان كمّ هائل من الصّور**: إذا قمنا بتغيير الزّاوية التي يأتي منها إشعاعا الليزر، يمكن لنا أن نختزن عدّة صور على نفس الفيلم الحسّاس، ويمكن الحصول على الصّورة ببساطة إذا وجّهنا ضوء الليزر بنفس زاوية الإشعاعين الأصليّين، ووجد العلماء أنّه يمكن لإنش مربّع من الفيلم أن يختزن المعلومات الواردة في أكثر من حجم الكتاب المقدّس بـ٥٠ مرة.

٤ - **إمكانيّة الارتباط بين الأشياء**: هنا مرّ جزءان لأشعّة ليزر معيّنة على جسمين مختلفين كرسيّ وغليون، ومن ثمّ سمح للأشعّة المنعكسة عن الجسمين أن تتّحد وتحدث نظام تداخل وتسجّل على فيلم حسّاس، وبعد ذلك قام العلماء بإضاءة الكرسي بأشعّة ليزر جديدة والسّماح لها بالسّقوط على الفيلم الحسّاس؛ وإذا بصورة ثلاثيّة الأبعاد للغليون تظهر، والعكس بالعكس.

٥ - **التّصوير الهولوغرافي التّداخلي Interference Holography**: وهنا ينظر الشّخص عبر قطعة من فيلم هولوغرافي والتي تحوي صورة شيء معيّن أجريت قبل فترة، نحو الشّيء نفسه وقد أجريت عليه تعديلات معيّنة، فالشّخص النّاظر يستطيع رؤية كيف تغيّر الشّيء وما الصفّات التي بقيت

على حالها، وذلك لأنّ الأجزاء التي تغيّرت ستعكس الضوء بصورة مختلفة، وهي طريقة حسّاسة جداً لدرجة يمكن رؤية طبعة إصبع على لوح غرانيت وهي تستعمل حالياً في فحص المواد.

٦ - **التّصوير الهولوغرافي التّعرّفي Recognition Holography**: هنا تمرّ أشعّة الليزر على نوع خاص من المرايا تسمّى بالمرآة المجمعة قبل أن تصل للفيلم الحسّاس، وبعد ذلك تمرّر أشعّة ليزر على جسم شبيه بالأول ولكن ليس مطابقاً. وتمرّر من جديد على مرآة مجمّعة ومن ثمّ الفيلم نفسه بعد إظهاره. تظهر نقطة مضيئة على الفيلم. وكلّما كانت النّقطة مضيئة وحادّة كلّما كان التّشابه بين الجسمين. وإذا كان الجسمان مختلفين تماماً، لا يظهر أيّة نقطة مضيئة. وإذا وضعت خليّة ضوئيّة حسّاسة خلف الفيلم الحسّاس يمكن عندئذ استعمال الجهاز كجهاز تعرّف حسّاس.

ثانياً - المعادلات الرياضيّة لفوريه:

بالمختصر الشّديد ما قام به الرياضي الفرنسي jean Fourier هو أنّه ابتكر طريقة لتحويل أيّ نمط كان مهما كان معقداً إلى نظام موجي، والقدرة على إعادة النّظام الموجي إلى النّمط الأصلي. وذلك كما تقوم عدسة كاميرا التّلفزيون بتحويل أيّة صورة إلى ذبذبات كهرطيسيّة، ويقوم جهاز التّلفزيون بتحويل هذه الذّبذبات إلى صورة من جديد. سمّيت المعادلات الرّياضيّة التي استخدمها لهذا التّحويل بتحويلات فوريه. كانت هذه التّحويلات أساس عمل Dennis Gabor لتحويل صورة جسم ما إلى نظام تداخل على قطعة فيلم هولوغرافي وعلى ابتداع طريقة لتحويل نظام التّداخل هذا إلى صورة الجسم الأصلي، وهذا الكلّ الذي يحتوي في كلّ جزء من الهولوغرام ينتج عن تحويل النّمط إلى لغة فوريه الموجيّة.

ثالثاً: النّظام المنطوي والنّظام المنكشف

:Implicate & Explicate Orders

يعتقد العالم الكبير David Bohm أنّ الواقع المحسوس لحياتنا اليوميّة

وهم تماما كالصّورة الهولوغرافيّة، فما يوجد خلف هذا الواقع هو تواجد على مستوى أعمق وأوسع وأكثر بدئيّة من الحقيقة؛ وهذا الواقع هو الذي يولّد الأشياء والمظاهر المختلفة في واقعنا الأرضي تماما كما تقوم قطعة فيلم هولوغرافي بتوليد الهولوغرام. يسمّي Bohm هذا المستوى العميق للوجود بالنظام المنطوي Implicate or Enfolded order، بينما يطلق على مستوى تواجدنا الظاهري بالنّظام المنكشف أو المنفتح Explicate or unfolded order. ويستعمل هذه التعابير لأنّه يرى الكون كنتيجة لانطواءات وانكشافات لا حدود لها متداخلة مع بعضها باستمرار، فهو لا يرى الإلكترون كشيء واحد، وإنّما ككليّة أو ensemble منطوية عبر الكون بأكمله، فعندما يكشف جهاز معيّن وجود إلكترون، يحدث هذا ببساطة لأنّ صفة معيّنة من صفات هذا الإلكترون قد انكشفت للظّاهر، تماما كما تنكشف نقطة حبر على مساحة محدّدة من الغليسرين، وعندما نرى الإلكترون يتحرك، فهو نتيجة مجموعة مستمرّة من الانطواءات والانكشافات. فالأشياء حسب مفهومه ليست ثابتة، بل هي كالماء الخارجة من النافورة تستمر بفضل الدّفع المستمر من النّظام المنطوي، وعندما يتراءى لنا أنّ شيئاً ما قد تلف، فهو لم يختلف بل عاد للانطواء إلى المستوى الأعمق الذي انطلق منه.

يفسّر هذا التّبادل المستمرّ بين النّظامين كيف يتغيّر جسيم ما إلى شكل آخر كالإلكترون في الذرّة البوزيترونيّة، فهذه التغيّرات تفسّر مثلاً بأن الإلكترون عاد إلى النّظام المنطوي، بينما قام فوتون آخر بالانكشاف وأخذ مكانه؛ كذلك تفسّر كيف يمكن للشّيء أن يظهر كجسيم أو كموجة تبعاً للمراقب الخارجي. فبحسب ما يتفاعل المراقب الخارجي مع هذا التكوّن أو الـ Ensemble ينكشف مظهر ما وينطوي آخر؛ تماماً كما يتعامل الصّائغ مع جوهرة ما بحيث تصبح إحدى وجوهها مرئيّة والأخرى لا. ويفضّل Bohm في الحقيقة استعمال تعبير الحركة الكليّة Holomovement بدلا من هولوغرام بسبب الصورة الدّائمة التغيّر والديناميكية للعالم.

وجهة النّظر التّجزينيّة التّوضعيّة للدّماغ

استندت هذه النّتائج على المراقبة السّريريّة، ومن بعدها على الوسائل التّقنيّة المتطوّرة بأنّ مناطق معيّنة في الدّماغ قد تكون مسؤولة عن وظائف معيّنة، وإصابة هذه المناطق تؤدّي إلى فقدان وظائف معيّنة أو ظهور علامات مرضيّة لم تكن موجودة سابقاً. كان أشهر من قام بهذا المجال الطبيب الفرنسي Paul Broca والطبيبان الألمانيّان Carl Wernicke و Kurt Goldstein. وقد قام Broadmann بعد ذلك بتقسيم قشر الدّماغ بكامله إلى مناطق وظيفيّة ورقّمها بحسب التتابع الزّمني لاكتشافها. وبقيت بعض الوظائف وخاصّة الذّاكرة خارج مجال هذا التوضّع، واعتبرت عند الكثيرين بأنها وظيفة معمّمة تشمل كامل الدّماغ إلى أن جاءت تجارب الجرّاح العصبي الكندي المشهور Wilder Penfield في العشرينات من هذا القرن لتبدأ القول بأنّ ذكريات معيّنة تتوضّع في مناطق معيّنة من الدّماغ. وبينما كان بينفيلد يقوم بجراحات متعدّدة على أدمغة المرضى المصابين بالصرّع والذين كانوا بكامل وعيهم (من المعروف أنّ الدماغ بذاته لا يشعر بالألم بشكل مباشر، طالما أنّ فروة الرّأس والجمجمة قد خدّرتا، فيمكن إجراء العمل الجراحي على مريض بكامل وعيه)، وجد أنّه عندما قام لتنبيه الكهربائي للفصّين الصّدغيين؛ عاش المرضى من جديد ذكريات سابقة من حياتهم بشكل حيّ. لقد عاش رجل من جديد تجربة نقاش سابق مع أصدقائه في أفريقيا الجنوبيّة، وتخيّل لطفل أنّه يسمع صوت أمّه على الهاتف، وبعد تنبيهات كهربائيّة كان قادراً على إعادة كلّ ما قالته والدته؛ وحتّى عندما قام بينفيلد بخداع مرضاه بأنّه قال لهم بأنّه ينبّه مناطق أخرى من الدّماغ وقام بتنبيه نفس المنطقة أدّى ذلك إلى تذكّر نفس الحادثة وقام بتسمية هذه المناطق الذّاكريّة بالـ Engram. قام بينفيلد بالاستنتاج في كتابه «أحجية الفكر» The mystery of the Mind الذي طبع عام ١٩٧٥ قبل وفاته بأنّ كلّ شيء نعيشه منذ كنّا أطفالاً يسجّل في أدمغتنا في مناطق محدّدة منه.

قام بعد ذلك Geschwind و David Mesulam باجتهادات أخرى وبتوفّر الوسائل التّقنية الحديثة إلى القول بأنّ الدّماغ يعمل بين مجالين هما الـواقـع الخــارجي Extrapersonal Reality والخلط الدّاخلي Internal Milieu (وكما سنرى لاحقاً تعتبر النّظريّة الهولوغرافيّة هذين المجالين شيئاً واحداً)، وقاما بتقسيم قشر الدّماغ تبعاً للطبيعة النّسيجيّة والوظيفيّة بحسب قربها من الواقع الخارجي أو الخلط الدّاخلي إلى خمسة مناطق:

١ - المناطق الأوليّة Primary Cortex: وهي مسؤولة عن وظيفة معيّنة بشكلها الخام مثل البصر والسّمع والحسّ والحركة، وبالتّالي هي الأقرب إلى الواقع الخارجي.

٢ - المنـاطـق المشاركة وحيدة النّمط Unimodal Association Areas: وهي المسؤولة عن أمور دقيقة تفصيليّة ضمن تلك الوظيفة المعيّنة؛ ففي مجال البصر هناك مناطق مسؤولة عن إدراك اتّجاه الشّيء أو موقعه في الفراغ أو لونه أو عمقه أو إدراك الأشياء المقروءة؛ وتسبّب أذيّة ما في تلك المناطق عدم القدرة على القراءة مع أنّ البصر ما يزال سليماً. وفي مجال السّمع، هناك مناطق مسؤولة عن مصدر الصّوت في الفراغ أو حدّة الصّوت أو طبيعته الخ.

٣ - المناطق المشاركة متعـدّدة الأنماط Heteromodal Association Areas: وهي المسؤولة عن ربط وجمع المعلومات الآتية من وظائف متعدّدة معاً كجمع المعلومات الآتية من البصر والسّمع والحسّ ضمن مفهوم كامل وربطها مع الحركة. وقد تسبّب أذيّاتها خللاً في الحساب والكتابة مثلاً، أو في التعرّف على الأصابع المختلفة من اليد أو عدم القدرة على التّمييز الفراغي أو اليمين من اليسار أو تقليد الشّيء أو تسميته أو القدرة على متابعة حركة الشّيء بالبصر، كما قد تسبّب في قسمها الأمامي اضطرابات إدراك تتابع الأحداث وتعديلها، واضطرابات في الشخصيّة كفقدان الفضول أو التّفكير المجرّد والمحاكمة، أو القفز مباشرة إلى نتائج متعسّفة وعدم القدرة على إبعاد التّشوّش والتّداخل الخارجي.

٤ – **المناطق المجاورة للجهاز اللمبي Paralimbic Region**: هنا نقترب أكثر من الخلط الدّاخلي ونبتعد أكثر عن الواقع الخارجي وتؤدّي أذيّات تلك المناطق إلى خلل في الذّاكرة والشمّ والذّوق وعدم القدرة على التّعامل مع شيء معيّن تبعاً لأهميّته بالنّسبة للشّخص، كما قد تؤدّي إلى عزلة اجتماعيّة؛ وتؤدّي أذيّتها في الحيوانات إلى الرّعب من الأشياء الجديدة، بينما قد لا يبدي أيّ اهتمام نحو الإنسان أو الثّعبان.

٥ – **الجهاز اللمبي Limbic System**: وهو أكثر المناطق علاقة بالخلط الدّاخلي وتؤدّي أذيّته إلى تغيّرات خطيرة في الذّاكرة، الاهتمام والانفعال أو عدم التّمييز بين ما يؤكل وبين ما لا يؤكل من الأشياء وعدم التّمييز الجنسي بين الأشياء والمعروف بتناذر Kluver Bucy.

وجهة النّظر التّكامليّة الهولوغرافيّة للدّماغ

إنّ واحداً من أهمّ الشّخصيّات التي تبرز لنا في هذا المجال هو Karl Pribram والذي كان عالم فيزيولوجيا العصبيّة وجرّاحاً عصبيّاً في جامعة ستانفرد ومؤلّف كتاب «لغات الدّماغ» «Languages of the Brain». كان Karl pribram منذ البداية صاحب موقف إنسانيّ ومعارض للتّخريب العشوائي لمناطق من الدّماغ دون دراية كافية عن عمل الدّماغ؛ ففي عام ١٩٣٥ قام الجرّاح العصبي البرتغالي Egas Moniz باستعمال طريقة جراحيّة لفصل عمل المنطقة قبل الجبهيّة عن باقي الدّماغ Prefrontal Lobectomy لعلاج الأمراض العقليّة وقد فاز بجائزة نوبل لهذا الإجراء عام ١٩٤٠ وقام من بعده الجرّاح الأميركي Walter Freeman بالقيام بهذا العمل الجراحي وكتابة مقالات متعدّدة، وادّعى بأنّ هذا الإجراء قد قام بتحويل شواذات المجتمع كما أسماهم من فصاميّين، لوطيين ومتطرّفين إلى أميركيين جيّدين. عارض Karl Pribram هذا الإجراء كثيراً وكان نتيجتها أنّه خسر وظيفته. وهذا ما يذكّرنا بما حدث للفيزيائي الشّهير David Bohm وهو من

أهمّ أعلام النظريّة الهولوغرافيّة في الفيزياء الحديثة عندما طلب منه الوقوف في المحكمة ضدّ أستاذه بما سمّي بـالفعاليّات اللاّ أميركيّة ورفض وكان نتيجتها أنّه خسر عمله في جامعة Princeton ولم يعلّم أبداً في الولايات الأميركيّة بعد ذلك، بل انتقل إلى البرازيل ومن ثمّ إلى لندن.

يقول Karl Pribram: لا أقول أنّ عالم الظّواهر خاطىء ولا أقول أنه لا يوجد شيء في الخارج على مستوى معيّن من الواقع، وإنّما أقول أنّه إذا نظرنا عبر الأشياء ونظرنا للكون نظرة شموليّة، سنصل إلى وجهة نظر جديدة وواقع مختلف، وأنّ هذا الواقع المختلف قد يفسّر كثيراً من الأمور التي لا تزال مبهمة علميّاً كالظّواهر الخارجة عن الطّبيعة Paranormal Phenomena والتّزامنات Synchronicities والصّدف ذات المعنى الواضح.

الذّاكرة والنّظريّة الهولوغرافيّة

كان أوّل ما دفع Pribram للتوجّه نحو النظريّة الهولوغرافيّة السؤال التّالي: كيف وأين تختزن الذّاكرة في الدّماغ؟ وحيث أنّ الفكرة التي كانت سائدة في الأربعينات من هذا القرن هي اختزان الذّاكرة في منطقة معيّنة في الدّماغ بحسب Penfield فلم يشكّ في البدء، ولكنّه عندما ذهب ليعمل مع Karl Lashly وهو عالم نفس عصبي مشهور، استطاع أن يرى بأمّ عينه كيف أنّ لا شلي أعاد تجارب Penfield ولم يصل إلى نفس النّتائج، بل دحضها كليّاً. قام لا شلي بتعليم الجرذان على أعمال مختلفة كإيجاد الطّريق الصّحيح ضمن وكر معقّد، وقام بعد ذلك باستئصال أقسام مختلفة من أدمغتهم وإعادة التّجربة لكي يجد المنطقة المسؤولة عن الذّاكرة، ولكن لدهشته وجد أنّه مهما كانت المنطقة التي استأصلها كبيرة، والتي أدت أحياناً بالطّبع إلى التأثير على مشي الفئران فإن ذاكرتها بقيت موجودة. قام Pribram بكتابة الكثير من دراسات لاشلي وصار أكثر اقتناعاً بأنّ الذاكرة تختزن بشكل معمّم وغير متوضّع في مكان معيّن من الدّماغ. انتقل بعد

ذلك إلى جامعة Yale وبدا يلاحظ أنّ المرضى الذين عانوا من استئصال أقسام كبيرة من أدمغتهم، قد يعانون من اضطراب عامّ في الذّاكرة ولكنّهم لا يعانون من نقص في ذكريات معيّنة وبقاء أخرى، والذين يتعرّضون لحوادث سيّارات ورضوض دماغيّة لا ينسون نصف أفراد عائلتهم أو نصف المقال الذين قرأوه، وحتّى بعد استئصال أقسام من الفصيّن الصّدغيّين الذين اعتبرا أساسيّين في الذّاكرة حسب Penfield، لم يسبّب هذا فجوات في ذاكرة الشّخص. قام Pribram بعدها بتكرار تجارب Penfield بتنبيه أقسام معيّنة من الدّماغ عند أناس سليمين ولم يستطع الحصول على نفس النّتائج التي حصل عليها بينفيلد، ولدى مراجعته أبحاث بينفيلد وجد أنّ بينفيلد نفسه لم يستطع الحصول على نفس النّتائج عند أناس سليمين غير مصابين بالصرع.

بدأت صورة تكامليّة للذّاكرة تتضح شيئاً فشيئاً عند Pribram، ولكنّه لم يعرف الطّريقة تماماً إلى أن قرأ عن بناء أول هولوغرام، ومن ثمّ التقى بالعالم الفيزيائي الكبير David Bohm والذي كان يعتبر الكون بأكمله عبارة عن هولوغرام، وتساءل الاثنان فيما إذا كان ما تحدث عنه الحكماء الأقدمون في الشّرق بأنّ ما نراه في الواقع يعتبر وهماً أو Maya وأنّ ما يوجد في الحقيقة هو سيمفونيّة متناغمة من الأمواج والتي تحولت إلى العالم كما نعرفه من خلال حواسنا فقط.

قام الرّياضي والفيزيائي الهنغاري المشهور John von Neumann بحساب معدل كميّة المعلومات التي يختزنها الدّماغ على مسار حياة شخص بكاملها، فوجد أنّها في حدود ٨بم٢×١٠ قوّة ٢٠ خانة أو bit من المعلومات، وقد عجز العلماء عن إيجاد طريقة تفسّر هذه القدرة الهائلة للدّماغ، والطّريقة الوحيدة المقبولة اليوم هو الصّفة الثّالثة للهولوغرام بتغيير زوايا الإسقاط. كذلك يمكن للصّفة الرّابعة وهي إمكانيّة الارتباط بتفسير لماذا تقوم أشياء معيّنة أو روائح معيّنة بتحريض ذكريات معينة من أشياء أخرى. كذلك تفسّر لنا الصّفة الخامسة والسّادسة كيف نستطيع معرفة شخص ما بعد تقدّمه

في السن وعدم رؤيتنا له لمدّة عشرين عاماً، وكيف نميّز شخصاً معينا من بين مئات الأشخاص في جمهور معيّن. كما أوضح بعض الباحثين من جامعة هارفارد عام ١٩٧٢ أنّ الفرضيّة الهولوغرافيّة للدّماغ قد تستطيع تفسير لماذا يمتلك بعض الأشخاص ذاكرة تصويريّة Photographic Memory فهؤلاء الأشخاص يقضون ثوان قليلة ينظرون إلى مشهد معيّن وعندما يريدون رؤية المشهد من جديد؛ يصدرون صورة عقليّة عنه إمّا وأعينهم مغلقة أو بالنّظر إلى حائط أو شاشة فارغة. وقد وجد العلماء Pollen و Tractenberg عندما قاموا بدراسة امرأة اسمها اليزابيث أنّ الصورّ العقليّة التي أصدرتها كانت حقيقيّة لدرجة أنّ أعينها كانت تتحرك كما لو كانت تقرأ صفحة حقيقيّة من كتاب Faust لغوته، وافترض العالمان أنّ لهؤلاء الأشخاص ذاكرة عظيمة ربّما لأنّهم يستطيعون الوصول إلى مناطق أكبر من الهولوغرام الذّاكري بينما يصل معظمنا لمناطق صغيرة منه فقط.

يظهر بريبرام أيضاً كيف أنّ النظريّة الهولوغرافيّة تستطيع تفسير نقل المهارات المكتسبة واستخدامها في غير مكانها المستعمل عادة؛ فمثلاً قوموا الآن بكتابة أسمائكم بالمرفق الأيسر فغالباً ستجدون أنّ هذه عمليّة سهلة رغم أنّه من المحتمل أنكم لم تقوموا بها أبداً في السّابق. لو كان الدّماغ مثل الكمبيوتر يتعلّم المهارات فقط بعد القيام بأفعال متسلسلة مرتّبة وبعد أن قام هذا التعلّم المتكرّر بإيجاد تواصلات عصبيّة بين الخلايا الدّماغية لصعب علينا هذا، بينما عندما يقوم الدّماغ بتحويل القدرات المتعلّمة إلى لغة من الأمواج المتداخلة سيكون أكثر مرونة وقدرة على تحويل ونقل معلومات معيّنة من مكان لآخر، كما يقوم عازف البيانو بنقل مقطوعة كاملة بدءاً من مفتاح موسيقي معيّن إلى مفتاح آخر، كذلك يفسّر هذا كيف نستطيع معرفة شخص أو شيء معيّن مهما كانت الزّاوية التي نظرنا منها.

قد نستطيع أيضاً تفسير لماذا نتذكّر بعض الأشياء وننساها في أوقات مختلفة، فتذكّر شيء هو بمثابة إسقاط أشعّة ليزر على قطعة فيلم حسّاس

يحوي على عدد من الخيالات بالزّاوية المطلوبة تماماً لرؤية هذا الشّيء، بينما يكون عدم قدرتنا على تذكّر الشّيء معادلاً لإسقاط عدّة إشعاعات بغير الزّوايا المطلوبة لإظهار خيال الشّيء المطلوب.

البصر والنظريّة الهولوغرافيّة

تابع Karl Pribram أيضاً أعمال لاشلي وتجاربه في مجال البصر، وكان لاشلي قد قام باستئصال ما يقارب ٩٠٪ من قشر الدّماغ المسؤول عن البصر في الجرذان، ووجد أنه رغم نقص المجال البصري، إلاّ انّ الجرذان كانت لا تزال قادرة على القيام بمهارات بصريّة معقّدة، وقام بريبرام من بعده بإلحاق الأذى بما يقارب من ٩٨٪ من العصاب البصريّة للهرّ بدون التّأثير بشكل كبير على قيام الهرّ بأعمال بصريّة معقّدة.

كان الرّأي السّائد في تلك الأيّام والذي لا يزال موجوداً إلى حدّ كبير في أيّامنا هذه هو وجود علاقة واحد إلى واحد (أي إذا كنّا ننظر فرضاً إلى مربّع ستحدث شحنات كهربائيّة في مناطق محدّدة من الدّماغ والتي ستأخذ شكل مربّع). وقد استطاع بريبرام إثبات خطأ هذا من خلال مراقبته لعدد كبير من المرضى، وأيضاً من خلال التّجارب الحيوانيّة التي أثبتت باستمرار قدرة الأشخاص والحيوانات إدراك أشكال معقّدة رغم الأذيّات الواسعة لقشر الدّماغ البصري. استطاع بريبرام حلّ اللغز من خلال ملاحظته أنّ الخلايا العصبيّة في الدّماغ تحوي اشتباكات واسعة مع غيرها من الخلايا ممّا يجعلها شديدة التزاحم، وعندما تترافق هذه الفعالية الكهربائيّة مع النّظريّة الموجيّة نرى أنّ الدّماغ يخلق بذلك أنظمة تداخل لا نهائيّة وهذا ما يعطي الدّماغ طبيعته الهولوغرافيّة؛ فمهما كانت الأذيّة واسعة في الدّماغ فإنّ كلّ جزء صغير باقٍ يقدر على إنشاء الكلّ الذي كانت العينان تراه وهذا يدحض علاقة واحد إلى واحد.

كانت الأبحاث في الستّينات من هذا القرن قد أظهرت أنّ كلّ خليّة في

قشر الدّماغ البصري مهيّئة لتستجيب بنمط مختلف؛ فبعض الخلايا ترتكس عند رؤية خطّ أفقي وبعضها عند رؤية خطّ شاقولي وسميّت هذه الخلايا بكاشفات الصّفات الشكليّة Feature Detectors. واستنتج العلماء من هذه الأبحاث أنّ الدّماغ يقوم بأخذ الاستجابات المختلفة من كاشفات الصّفات الشكليّة هذه ويضعها معاً بطريقة ما ليحصل على إدراكات هذا العالم. وقد انتشرت هذه الأفكار وأصبح لها شعبيّتها، ومع هذا شعر عالما الفيزيولوجيا العصبيّة Russel و Karen De Valois من جامعة Berkley أنّ هذه النّتائج صحيحة جزئياً فقط فقاموا بتحويل أنماط بسيطة أو معقّدة مثل لوح الشّطرنج إلى معادلات موجيّة؛ ووجدا أنّ الدّماغ لم يستجب للأنماط الأصليّة بل لتحويلاتها الموجيّة وكان الاستنتاج أنّ الدّماغ يقوم باستعمال رياضيّات Fourier كما يقوم الهولوغرام بذلك وقامت مخابر أخرى بعد ذلك بتأكيد هذا.

الإحساس والنظريّة الهولوغرافيّة

قد يعتبر معظمنا أنّ إحساسات الحبّ، الجوع، الغضب وغيرها واقعاً داخلياً، بينما تكون أصوات فرقة أوركسترا أو حرارة الشّمس أو رائحة الخبز المحمّص واقعاً خارجياً ولكن يبدو أنّه حتّى الآن لا يزال من غير المفهوم كيف تفرّق أدمغتنا بين الاثنين. يوضّح Karl pribram أنّه عندما ننظر لشخص ما ففي الحقيقة تكون صورته على شبكيّة أعيننا ومع هذا لا نظنّ أنّه موجود على شبكيّة أعيننا بل في الخارج، وعندما نهرس إصبعنا نشعر بالألم في إصبعنا، رغم أنّ التفاعلات الكيماويّة للألم ليست فقط في الإصبع بل في النّخاع الشّوكي والدّماغ. ويعدّ هذا مطابقاً للوهم الذي يكوّنه لنا الهولوغرام بأنّ هناك جسماً ثلاثيّ الأبعاد في مكان ما، ولكن إذا أردنا مسك هذا الشيء أو استعمال جهاز حسّاس لمعرفة وجود طاقة معيّنة في ذلك المكان، لا يمكننا الحصول على أيّ شيء وهذا لأنّ الهولوغرام عبارة عن صورة تبدو في مكان حيث لا يوجد أيّ شيء في الحقيقة.

قام العالم Georg von Bekesy والحائز على جائزة نوبل بوضع أجهزة مولدة للاهتزاز على ركبة أشخاص قد وضع أقنعة على وجوههم، وقام بتغيير تردّد الاهتزاز ووجد بعد فترة أنّه يستطيع بترددات معيّنة أن يجعلهم يشعرون كما لو أنّ الاهتزازات قد قفزت من ركبة لأخرى، وحتّى أن يشعروا كما لو أنّ الاهتزازات تقع في المسافة بين ركبتيهم، وبتعبير آخر في مواقع فراغيّة حيث لا يوجد فعلاً مستقبلات حسيّة.

يعتقد Pribram أنّ تجارب Bekesy قد تدلّ على النّظريّة الهولوغرافيّة؛ فبعض الأنظمة التداخليّة للاهتزازات قد تسمح للدماغ بأن يضع بعض الإحساسات والتّجارب خارج الحدود الجسميّة وهذا ما يفسرّ شعور الأشخاص الذين بترت لهم ساق أو ذراع وما يزالون يشعرون بوجود طرف هناك وحتّى يشعرون بآلام وتشنّجات وغل في تلك المناطق، فقد يكون السّبب الذاكرة الهولوغرافية للطرف والتي ما تزال محفوظة في الأنماط التّداخليّة لدماغهم.

وجد Bekesy أيضاً أنّ جلدنا حسّاس لأنواع مختلفة من الاهتزازات وكانت من نوع المعادلات الرياضيّة لـ Fourier، كما وجد عالم الفيزيولوجيا الألماني Herman von Helmholtz أنّ الأذن تقوم أيضاً بتحليل الأصوات إلى مركّبات اهتزازيّة، واكتشف من قبل آخرين أنّ حاسّتي الشّم والذّوق تخضعان لنفس القاعدة.

السّلوك الغريزي والنّظريّة الهولوغرافيّة

قام عالم البيولوجيا الأميركي Paul Pietsch بسلسلة من التّجارب على حيوان السّمندل وقد وجد أنّه يستطيع أخذ الدّماغ خارجاً بدون قتل السّمندل. ورغم أنّ السّمندل سيدخل في حالة سبات طالما أنّ الدّماغ ناقص، ولكن حالما يوضع الدّماغ من جديد تعود التصرّفات طبيعيّة. كان Pietsch في الحقيقة يحاول إثبات أنّ نظريّة بريبرام خاطئة، وأنّ اختلاف

وضعيّة الدّماغ في الرّأس سيغيّر من تصرّفات معيّنة أو يلغيها، فقام بإبدال نصف الكرة الدّماغي الأيسر بالأيمن والعكس بالعكس، ولكنّه وجد أنّه حالما صحا السّمندل من التّخدير عادت تصرّفاته الغذائيّة سليمة كما كانت. قام بعد ذلك بقلب الدّماغ بين الأعلى والأسفل ولكنّ السمندل عاد ليتغذّى بشكل طبيعي. شعر Pietsch بالإحباط وأراد اللجوء لعمليّات أخرى، فقام بأكثر من ٧٠٠ عملية تقطيع وقلب وحذف مناطق من الدّماغ، ولكنّه حالما قام بإرجاع ما بقي من أدمغتها عادت تصرّفاتها سليمة وهذا ما جعل Pietsch مؤمناً بالنظريّة بدلاً من ناقد لها وعلى أساسها كتب كتابه Shufflebrain.

الحركة والنظريّة الهولوغرافيّة

مع هذه الدّلائل المختلفة على الطّبيعة الموجيّة الهولوغرافية للبصر والإحساسات المختلفة؛ أصبح Karl Pribram أكثر اقتناعاً بكليّة نظريّته، وما زاد من اقتناعه ما وجده العالم الرّوسي Nikolai Bernstein من أنّ الحركات التي نقوم بها تخزّن في دماغنا بشكل لغة من معادلات Fourier فما قام به Bernstein هو إلباس الأشخاص ملابس سوداء قد وضع عليها نقاط بيضاء في منطقة المفاصل كالمرفق والركبة والرّقبة الخ مع وجود خلفيّة سوداء. ثمّ قام بتصوير هؤلاء الأشخاص وهم يقومون بنشاطات مختلفة كالرّقص والمشي والقفز والكتابة على آلة كاتبة، وعندما قام بإظهار الفيلم ظهرت النّقاط البيضاء فقط تتحرك للأعلى والأسفل بشكل منساب ومعقّد. وعندما قام بتحويل هذه الخطوط والنّقاط إلى معادلات موجيّة من نمط فوريه، تبيّن له وجود أنماط خفيّة للحركات تجعله قادراً على توقّع الحركة التّالية بأجزاء من السنتمتر. تحمّس Pribram كثيراً لما وجده بيرنستين، نظراً للتّطبيقات العمليّة الكبيرة لهذه النّتائج، وكان بنظره أنّ سبب ظهور الأنماط الخفيّة يعود إلى أنّها تلك هي الطّريقة التي يختزن بها الدّماغ المعلومات الحركيّة. وعندما يقوم الدّماغ بتحليل تلك الحركات إلى مركّباتها الموجيّة،

فإن هذا يعطي سرعة كبيرة لتعلّم الحركات المعقّدة. فعندما نركب درّاجة لا نقوم بتذكّر كل جزء صغير من الحركة، بل نأخذها كحركة انسيابيّة كاملة. وهذا الاعتقاد السّائد السّابق بأنّ الدّماغ يسجّل كلّ حركة جزءاً بعد جزء لا يستطيع تفسير كيف نتعلّم هذه الحركات المعقّدة بينما عندما يقوم الدّماغ بتحليل الحركة إلى شبه معادلات فورييه واختزانها ككلّ، فإن هذا يعطي تفسيراً أكثر قبولاً.

علم النّفس والنظريّة الهولوغرافية

يقول الدكتور Ken Dychtwold بأنّنا لو نظرنا من قريب إلى الكائن الإنساني لوجدنا أنّه بحد ذاته هولوغرام متميّز متضمّن ضمن ذاته، ومولّد لذاته ومعروف من قبل ذاته. وإذا قمنا بإخراج هذا الكائن الحي من الواقع الأرضي سنلاحظ بسرعة أنّه كال Mandala (وهي أشكال هندسيّة رائعة تعبّر عن وحدة الكون وعن الفكرة القائمة بأن ما يوجد في المحيط يوجد في المركز)، حيث أنّه داخل الإنسان تجري كميّات هائلة من المعلومات الجسديّة والاجتماعيّة والنفسيّة والتطوّرية والتي تمّ عن طريقها تشكّله.

منذ بدايات عمله، كان الطبيب النفسي السويسري المشهور Carl Jung مقتنعاً بأنّ الأحلام والأعمال الفنيّة وتخيّلات وإهلاسات مرضاه لا يمكن أن تكون ناجمة فقط عن ما تعرّضوا له في حياتهم، بل على العكس تشبه إلى حدّ بعيد ما جاء في أعظم أساطير وديانات عالمنا، وقد استنتج بأنّ الأساطير والأحلام والإهلاسات والرّؤى الدينيّة تنبع كلّها من مصدر واحد ومن لا وعي جمعي مشترك بين البشر.

[كانت إحدى هذه التّجارب التي قادته إلى هذا الاقتناع شخص يعاني من الفصام الزّوري Paranoid Schizophrenia، والذي رآه يونغ مرة يحدّق في الشمس ويهز رأسه من جهة لأخرى، وعندما سأله عن سبب فعل هذا، أجابه بأنّه ينظر إلى العضو الذّكري للشّمس، وبأنّه عندما قام بتحريك

رأسه من جهة لأخرى تحرك العضو وسبّب حركة الرّيح . اعتقد يونغ عندئذ أنّ هذا مجرّد هلوسة ، وبعد عدة سنين وقع بين يديه ترجمة لكتاب فارسي ديني قديم يعود إلى قبل ألفي سنة ، وكان الكتاب يحتوي على مجموعة من الشّعائر والطقوس التي تجلب الرّؤى الدّينيّة للشخص الممارس ، وكانت إحداها تقول بأنّ الممارس لهذه الطقوس يمكنه رؤية أنبوب معلّق من الشمس ، وعندما يتحرك هذا الأنبوب تحدث حركة الرّيح . ولّما كان هذا الكتاب نادراً جداً في ذاك الوقت وغير مألوف أبداً ، فمن غير المعقول أن يكون قد وقع بين يدي ذاك المريض ، واستنتج يونغ أنّ الرّؤيا قد أتت من مستوى عميق من اللاوعي الجمعي للجنس البشري ودعاها بالأنماط البدئيّة Archetypes وكان مقتنعاً أنّ كلاً منّا يحوي ذاكرة شخص بعمر مليوني عام داخل عقولنا] .

وبحسب النظرية الهولوغرافية ترتبط الأشياء كلها ببعضها بشكل لا نهائي في الكون ، وكذلك يرتبط الوعي ، فرغم التّظاهرات المختلفة فنحن كلّنا كائنات بلا حدود ، أو كما يقول David Bohm: «ما يوجد داخل وعي النّاس بأجمعهم واحد» .

الأحلام والنظريّة الهولوغرافية

قام الطبيب النّفسي المشهور Montague Ullman من جامعة Albert Einstein بتجارب على المتطوّعين ، وقام بجعل أحد المتطوّعين ينام ضمن إحدى غرف المخبر في الوقت الذي قام به متطوع آخر بالنظر إلى لوحات فنيّة مختلفة بشكل عشوائي ، وفي بعض المرّات كانت النتائج سلبية طبعاً ، ولكن في بعض المرّات حدثت مفاجآت ، فبينما كان المتطوّع ينظر في إحدى المرّات إلى لوحة فنيّة لـ Tamayo تصوّر كلبين يبزان أنيابهما حول كتلة من العظم ، حلمت المتطوّعة بأنّها مدعوة للعشاء ولم يكن يوجد كميّة كافية من اللحم فكان الأشخاص يتهاجمون على الطّعام . وفي مرّة أخرى كان المتطوّع

ينظر للوحة «باريس من النّافذة» لـ Chagall والتي احتوت على كثير من الألوان الفاتحة وشخصاً ينظر إلى منظر لباريس وقطّة بوجه إنساني وأشخاص يطيرون في السماء وكرسي مغطّى بالأزهار، وحلمت المتطوّعة لعدّة ليال بأشياء فرنسيّة، ببناء على الطّراز الفرنسي، بقبّعة رجل فرنسي، وبمجموعة من النّحل تطير حول الأزهار الخ.

ومن خلال تعامله الطّويل مع الأحلام، وجد Ullman أن الإنسان كان يميل ليكون أكثر حكمة في أحلامه ممّا هو في الواقع؛ فبعض الأشخاص الذين اتّصفوا بكثير من الحقارة والغرور والتّحايل والأنانية كانوا يرون علاقات أفضل بكثير في أحلامهم، وكثيراً ما كانت تتكرّر الأحلام نفسها بصور ظاهريّة مختلفة أو متشابهة كأنّها محاولة لإعطاء الشّخص فرص متكرّرة لمعرفة الحقيقة. وكان Ullman يعتقد على عكس كثير من المدارس الأخرى أنّ الأحلام لا تنبع من مركّب بدائي للشّخصيّة، وبأنها على العكس تعتبر تحوّلاً طبيعياً للنّظام المنطوي إلى المتكشف.

الأحلام الرّائقة والأكوان المتوازية

Lucid Dreams and parallel Universes

لقد ازداد اهتمام علماء النّفس في السّنين الأخيرة بموضوع الأحلام الرائقة والتي تتميّز بأنّ الحالم يحافظ على كامل وعيه خلال الحلم ويعرف في الوقت نفسه بأنّه يحلم، ويقوم بدور فاعل في الحلم ويستطيع التحكّم بأحداث الحلم كأن يقوم بتحويل كوابيس إلى تجارب سعيدة أو أن يقوم بتغيير خلفيّة الحلم أو يضع أشخاصاً متعدّدين في موقع واحد، كذلك تتميّز الأحلام الرائقة عن الأحلام العاديّة بأنها أكثر حيوية ونشاطاً، فتبدو الورود فعلاً ذات ألوان خلاّبة وروائح عطرة ويبدو كلّ شيء مليئا بالإشعاع والطّاقة. يعتقد العلماء اليوم أنّ للأحلام الرّائقة دوراً كبيراً في تحريض النموّ الفرذي والثقة بالنّفس وتحسين الصحّة العقلية والجسدية وتسهيل الفكر الإبداعي لحلّ المشكلات.

يعتقد عالم الفيزياء Fred Alan Wolf بأنّ النظام الهولوغرافي قادر على تفسير ظاهرة الأحلام الرائقة، ففي الحقيقة تقوم قطعة فيلم هولوغرافي بتوليد نوعين من الصّور: صورة افتراضيّة تبدو خلف الفيلم وصورة حقيقيّة تبدو أمام الفيلم. والأمر الفارق بين الصّورتين هو أنّ الأمواج الضّوئيّة التي تشكل الصّورة الافتراضيّة أو الوهميّة تبدو آتية من محرق أو مصدر معيّن ثمّ تنفرج، وهي وهميّة لأنّه ليس لها أبعاد فراغيّة تماماً كصورة المرآة، أما الصّورة الحقيقية في الهولوغرام فتتشكّل فعلاً من الأمواج الضّوئيّة القادمة لتتلاقى في المحرق وهي ليست وهميّة بل لها أبعادها في الفراغ. ولكن للأسف لم يهتمّ العلماء بالتّطبيقات العمليّة لهذه الصورة لأنّها غير مرئيّة بشكل واضح في الهواء ولا ترى إلاّ عندما تمرّ جزيئات الغبار عبرها، أو عندما ينفخ الشّخص نفخة دخان عبرها.

ذكر Wolf في المؤتمر السّنوي لدراسة الأحلام في واشنطن عام ١٩٨٧ أن الأحلام بشكل عام هولوغرامات داخليّة، وأن الأحلام العاديّة عبارة عن صور افتراضيّة أو وهميّة ولهذا السّبب تكون أقل حيويّة من الأحلام الرائقة والتي تشكّل صوراً حقيقيّة، ويكون السّبب في إشعاعية الأحلام الرائقة هو أنّ الأشعّة تتلاقى ولا تنفرج كما هي الحال في الحلم العادي، فلو وقف شخص ما حيث تتلاقى الأشعّة لأصبح هذا الشّخص ضمن المشهد تماماً.

طالما ذكرنا سابقاً أنّ Pribram و Von Bekesy يقولان بأنّ عقولنا هي التي تشكّل الوهم القائل بأن هناك شيء في الخارج، كذلك Wolf يعتقد بهذا، وأن هذه الآليّات هي التي تسمح بخلق وقائع داخليّة قد تبدو ملموسة وواقعيّة ويمكن تسميتها بالمقابلات الموضوعية Objective Counterparts ويعتقد Wolf أنّ قدرتنا على تكوين حلم رائق قد يكون بسبب عدم وجود فارق أصلاً بين العالم الخارجي والعالم الدّاخلي، ولّما كان الشّخص في الحلم الرّائق قادراً على الفصل بينه وبين المشهد، إذاً لا يمكننا اعتبار الحلم الرّائق ذاتياً فقط، بل لا بدّ أن يكون هناك ناحية موضوعيّة. ويتابع Wolf أنّ

الأحلام الرّائقة (وربّما الأحلام جميعها) زيارات لأكوان موازية للكون الذي نحياه ساعة اليقظة، وهي عبارة عن هولوغرامات ضمن الهولوغرام الكوني الأوسع، ويقترح Wolf تسمية الأحلام الرائقة بوعـي الأكـوان المتوازية Parallel Universe Awareness.

الأمراض النّفسيّة والنّظام المنطوي

لـقـد ذكـر كـلٌّ مـن David Bohm و Karl Pribram أنّ الـرّؤى والتّجارب المختبرة عبر العصور من قبل حكماء أتوا من كافّة الحضارات الإنسانيّة ومن كافّة الدّيانات السّماويّة وغير السّماويّة، مثل الشّعور بالوحدة مع كلّ الكون وارتباط ووحدة مع الحياة تشبه كثيراً وصفاً للنّظام المنطوي. وقد اقترحا أنّه لا بدّ أن يكون هؤلاء الحكماء قد قدروا على تجاوز الواقع المنكشف، واستـطاعوا أن ينظروا إلى عمق الصّفات الهولوغرافيّة للكون. ويعتقد Ullman أنّ المرضى النفسانيين قادرون أيضاً على اختبار بعض مظاهر المستوى الهولوغرافي للحقيقة، ولكنّ هذا لا يحدث بالتّرتيب والتّنظيم المنطقي الكافي، فتتحوّل إلى شكل تراجيديّ.

يذكر الفصاميّون مثلاً أنّهم يشعرون كما لو كانوا في محيط أو بحر ويتّصلون مع كامل الكون بشكل سحري هذياني، كما يذكرون فقدان الحدود بينهم وبين الآخرين، وهذا ما يجعلهم يظنّون أن أفكارهم لم تعد ملكهم وبأنّهم يستطيعون قراءة أفكار الآخرين، وبدلا من أن يجدوا هؤلاء الأفراد كأشخاص مختلفين عنهم، يجدونهم كأعضاء في مستويات أكبر وأوسع وهذا ما يشير إلى الطبيعة الهولوغرافيّة لتفكيرهم. كذلك يعكس الفصاميون في تفكيرهم صفة أخرى من صفات الهولوغرام ألا وهي غياب أهميّة التتابع الزّمني والعلاقات الفراغيّة بين الأشياء. فبالنّسبة للفصامي القول بأنّ الحدث ألف يسبق باء، مشابه لباء يسبق ألف، والقول بأن راس الشّخص أعلى من كتفيه مشابه للقول بأنّ كتفيه أعلى من رأسه.

ويعتقد Ullman إنّه إذا تمكّن الفصامي الحصول على بعض الرؤى من النّظام الهولوغرافي، فإن المصاب بالاكتئاب الهوسي يندمج بشكل مفرط بهذا النّظام، ويظن نفسه مالكاً لكل قدراته التي لا حدود لها. فهو لا يستطيع أن يمنع كلّ الأفكار التي تنصبّ عليه، فيعمد إلى الكذب والاحتيال على من حوله لكي يستطيع التّعامل مع هذا الشعور المتوسّع، والنتيجة في الغالب ضياع واختلاط مصحوبة ببعض اللحظات من الإبداع والنجاح الباهر. وبعد أن يعود الهوسي من عطلته الفوق واقعية ويجابه تحديات وإحباطات الحياة اليوميّة، يصاب بالاكتئاب.

كما يعتقد Ullman أيضاً أن جميعنا يواجه النظام المنطوي في أحلامنا، ولكنّنا نتركها وراءنا عندما نستيقظ، بينما على المرضى النّفسيين التّعامل معها بنفس الوقت الذي يحاولون فيه مجابهة الواقع اليومي. كما أنّ معظمنا يملك عادة وسيلة حماية طبيعية تمنعنا من الاتّصال بالنظام المنطوي بشكل أكبر ممّا نتحمّل.

تعدّد الشّخصيّات والنّظام الهولوغرافي

يعتقد Shainberg مثلما يعتقد David Bohm أنّ الوعي ينكشف باستمرار من النّظام المنطوي، وعندما نسمح لهذه الطّاقات بالتّعبير عن نفسها دائماً من مصدر محدّد، فإنّنا نخلق حاجزاً بين أنفسنا وبين التداخلات الجديدة والرّائعة التي يمكن أن تأتي من مصدر غير منتهي. ولكي نعي تماماً هذا الشيء، علينا أن ننظر إلى الأطفال الذين لم يشكلون بعد عوائق تذكر، فهم يتعاملون مع الأشياء بشكل منفتح ومرن. ويرى Shainberg أنّ سبب الحيوية المفرطة التي يتمتّع بها الأطفال تعود إلى الطبيعة المنطوية المنكشفة للوعي، إذا أردت أن تصبح مدركاً للآراء الجامدة التي نكوّنها بعد مرحلة الطّفولة، انظر إلى نفسك/ أو انظري إلى نفسك من خلال محادثة، وكيف نحاول باستمرار الدفاع عن آرائنا وتصرّفاتنا والتي نادراً ما تتغيّر حتّى بعد

دخول معلومات جديدة، فنحن بالحقيقة نادراً ما نظهر اهتماماً بما تعنيه محادثة حقيقيّة.

أمّا بالنّسبة لتناذر الشّخصيّات المتعدّدة Multiple personality syndrome والذي يتظاهر كما أنّ شخصيّتين مختلفتين أو أكثر تسكنان جسداً واحداً وغالباً ما يكون أصحاب هذا التناذر غير عالمين عن حالتهم، بل يشعرون فقط بفترة نسيان أو إغماء. ومعدل عدد الشّخصيّات المتعدّدة في هؤلاء النّاس هو ٨-١٣ شخصيّة. ولقد تبيّن أنّ ٩٧٪ من أصحاب الشخصيّات المتعدّدة قد تعرّضوا لرضّ شديد في الطّفولة قد يكون جسديّاً أو نفسيّاً أو جنسيّاً؛ وافترض العلماء أنّ هذا الرضّ الشّديد والذي صعب تحمّله من قبل شخصيّة واحدة قد أدّى إلى الانقسام إلى عدة شخصيّات.

ويبدو أنّ ظاهرة الشّخصيّات المتعدّدة دليل على ما يسمّيه Bohm بالتجزّؤ Fragmentation وهو أنّه عندما تقوم النّفس بتجزيء نفسها فهي لا تصبح مجموعة أقسام مكسورة، بل تكاملات أصغر ضمن التّكامل الأكبر، وكل تكامل له صفاته وأهدافه ورغباته المحدّدة. وقد لوحظ أنّ معظم أصحاب هذا التّناذر يشخّصون في عمر ٢٨-٣٥، وهذا ما يدلّ على وجود نظام تنبيه داخلي في هذا العمر محذّراً إيّاهم بضرورة التّشخيص والحصول على علاج.

ولقد وجد أنّ النمط العام للموجات الدماغية قد تختلف من شخصيّة لأخرى، وهذه ظاهرة غريبة جداً لا يمكن تفسيرها إلاّ بالنظام الهولوغرافي؛ لأنّ الشخص نفسه لا يستطيع تغيير طابع موجات دماغه بهذا الشكل حتّى في الحالات الانفعاليّة الشّديدة. كذلك لوحظ أنه من الممكن أن تصاب شخصيّة ما بداء السكري مع العلم أنّ الشّخصيّة الأخرى غير مصابة، كذلك تختلف الضّغوط الدّمويّة وجريان الدم والمقوية العضليّة وعدد دقّات القلب وطريقة الكتابة والقدرات الفنيّة واللغات الأجنبيّة المتقنة وحتّى مقدار الذكاء. ولقد ذكرت حالة مريضة كانت كلّ شخصيّاتها تتحسّس من عصير

البرتقال باستثناء واحدة منها، فكان يظهر طفح واضح على الجلد كلّما شربت العصير، ويختفي الطّفح عندما تظهر الشّخصية غير المتحسّسة ليعود للظهور مع شخصيّة أخرى. كذلك قد تكون شخصيّة ما ثملة بتأثير الكحول، بينما يعود الشخص إلى صحوه عندما تظهر شخصيّة أخرى. كذلك أظهرت الأدوية تأثيراً مختلفاً على الشّخصيّات خاصّة أنّ بعض الشّخصيّات تكون طفوليّة فتؤثّر عليها مقادير صغيرة من الأدوية، كذلك وجدت حالات نساء يملكن دورتين أو ثلاثة دورات طمثيّة في شهر واحد، لأنّ كلّ شخصيّة لها دورتها الطّمثيّة المستقلّة. كذلك يختلف النّمط الصوتي من شخصيّة لأخرى (بالرّغم من أنّ أكثر الممثّلين أداء لا يستطيع تغيير صوته بشكل كاف يستبعد معه النّمط الأصلي الخاص به).

بعد أن استعرضنا الاضطرابات المختلفة لتعدّد الشخصيّات، لا بدّ أن نذكر ميزّات كبرى قد يحصلون عليها؛ فهم لا يتقدّمون بالسنّ بنفس السّرعة التي يتقدّم بها الأشخاص الآخرون، وقد ذكرت حالة امرأة تدعى Cassandra وتملك قدرات شفائيّة كبيرة نظراً لتنميتها لقدرات التخيّل وقضائها أوقات طويلة في التأمل وممارسة طريقة تدعوها التنسيق المتوازي Parallel Processing فهي تتحكّم بالشخصيّات المختلفة في نفس الوقت وتعطي كلاً منها دوراً معيّناً، فتستطيع العمل على عدّة مؤلّفات في نفس الوقت، كما تستطيع أن تجعل إحدى الشخصيّات ترتاح وتنام بينما تقوم الأخرى بتحضير العشاء أو تنظيف البيت، كما أنّ إحدى شخصيّاتها المدعوّة Celese تقضي ٢٤ ساعة في اليوم في التأمّل وتخيّل أنّ الجسم في صحّة تامّة وعندها معلومات هائلة عن تشريح وفيزيولوجيا الجسم. كثيراً ما نكون مقتنعين باستحالة تغيير الأشياء، فإذا كان بصرنا ضعيفاً، فمعناه سيكون كذلك طوال الوقت، وإذا أصبنا بالسكّري لا نتخيّل أنّ حالتنا ستزول مع اختلاف في المشاعر أو الأفكار، بينما تقوم دلائل الشّخصيّات المتعددة بكسر حدود هذه الحواجز التي وضعناها وتقدّم فرضيّات جديدة.

العقاقير المهلسة والمفهوم الهولوغرافي

يعتبر Stanislav Grof رائد دراسات حالات الوعي غير العاديّة أثناء استعمال المهلسات أمثال LSD وقد بدأ اهتمامه منذ الخمسينات من هذا القرن عندما كان يعمل في مركز الأبحاث النّفسيّة في وطنه الأمّ تشيكوسلوفاكيا، وقد تابع Grof دراساته في منصبه الحالي كرئيس قسم الأبحاث النّفسية في Maryland، وكأستاذ مساعد في جامعة Johns Hopkins.

كانت الآراء السّائدة في الخمسينات أنّ التّجارب التي يمرّ بها متعاطو الـ LSD هي عبارة عن ارتكاس دماغي متكرّر شديد لمادّة كيماويّة مؤذية، ولكنّ Grof لم يجد دلائل واضحة على هذا الارتكاس المتكرّر، بل وجد استمراراً لما يحدث عبر الجلسات المتتابعة، وقد ذكر أن التجارب بدت كانكشافات متتابعة لمستويات من الوعي تزداد عمقاً.

ولقد وجد Grof وزملاؤه أنّ جلسات الـ LSD قد ساعدت في تسريع عمليّة الشفاء النّفسي لعدد كبير من المرضى، كما أنّ كثيراً من الذكريات المؤلمة والتي عانى أفرادها منها لسنين طويلة، وحتّى أمراض نفسيّة كالفصام Schizophrenia قد شفيت نتيجة هذه الجلسات. والتّجربة الشّائعة جداً عند المستعملين للـ LSD كانت أن يعيشوا من جديد تجربة وجودهم داخل رحم أمّهم. اعتقد Grof في البدء أنّ هذه مجرّد تخيّلات، ولكنّه وجد بعد ذلك أنّ وصف هؤلاء النّاس لتجاربهم كان أعلى بكثير من مستوى معرفتهم وثقافتهم المعتادة، كأن يقوموا بشرح صفات دقّات قلب أمهم وجريان الدم في المشيمة وآليّات خلويّة وكيميائيّة داخل الجسم؛ كما وصفوا مشاعر أمّهم في أوقات مختلفة من الحمل والرضوض الجسديّة والعاطفيّة التي تعرّضت لها.

لم يكتف Grof باستكشاف الحياة الجنينيّة عند هؤلاء الأشخاص، بل

وجد أن قسماً منهم قد تجاوز حدود الأنا، ووجد نفسه يشعر بما تعنيه كونه شخصاً آخر أو كائناً حيّاً آخر. فقد قامت واحدة من النّساء باختبار شخصيّة زاحف منقرض، ولم تكتف المرأة بوصف ما تعنيه بكونها زاحف وما تشعر به؛ ولكنها وصفت الميل الجنسي نحو واحد من ذكور الزّواحف لوجود حراشف ملوّنة على جانبي رأسه (رغم عدم معرفتها السّابقة عن ذلك). وعندما تكلّم Grof مع أحد علماء الحيوان، تبيّن أنّ وجود هذه الحراشف الملوّنة تلعب فعلاً دوراً جنسياً عند بعض الزّواحف. كما استطاع أناس آخرون الدخول فعلاً في وعي أقربائهم وأسلافهم وإعطاء تفاصيل دقيقة عمّا مر معهم قبل عقود وقرون. كما استطاع البعض إعطاء تفاصيل دقيقة عن الاشتراك في حملات جنكيز خان، أو رقص الغيبوبة مع قبائل الـ Kalahari أو الدّفاع عن حقوق الأستراليين الأصليين الخ. وكانت تلك المعلومات واسعة جداً وتقنيّة وغير معروفة سابقاً عند هؤلاء الناس. وقد قامت امرأة غير متعلّمة بإعطاء تفاصيل دقيقة عن التّحنيط المصري والتقاليد والشّعائر المستخدمة في الجنائز وكيفية صنع الملابس المستخدمة والمواد التركيبيّة لها، وقام آخرون بسرد دروس كاملة في الديانات البوذية والطاوية.

وفي الحقيقة بدا كما لو أنّه لا يوجد حدود لما قد يصل إليه الأشخاص تحت تأثير الـ LSD فاستطاعوا أن يشعروا بتجربة كلّ إنسان، حيوان وحتّى كلّ نبات على شجرة التطور، وحتى ما يعنيه وجودهم ككريّة دم حمراء أو بيضاء أو ذرّة أو تفاعل نووي داخل الشمس أو الوعي الكائن للكرة الأرضيّة وحتّى للكون. لقد استطاعوا تجاوز حدود الزمان والمكان، وذكر بعضهم إحساسه بوجود ذكاء غير إنساني، عن كائنات منخفضة وعن وجود مرشدين على المستوى الرّوحي من مجالات أعلى للوعي وتكوينات فوق إنسانيّة.

وفي بعض المحاولات بدا كما لو أنّ الأشخاص قد سافروا إلى أكوان أخرى ومستويات أخرى من الحقيقة؛ فبينما كان Stanislav Grof يعالج

شخصاً مصاباً بالاكتئاب، انتقل ذاك الشخص تحت تأثير الـ LSD إلى بعد جديد أكثر إنارة وإشعاعاً وأحسّ كما لو أنه يوجد كائنات أخرى رغم عدم استطاعته رؤيتها، ثمّ فجأة أحسّ بشيء يخبره بطريقة التّخاطر أن يخبر شخصين يعيشان في مدينة Kromeriz في مورافيا بأن ابنهم Ladislav بأمان، وأعطاه اسم الأشخاص والشّارع ورقم الهاتف. وبعد تردّد كبير ودون إخبار أحد خوفاً من الاستهزاء، قام Grof بالاتّصال وسأل عن الابن، وإذا بالمرأة على الجانب الثّاني تبكي وتنتحب وأخبرته أنّه توفّي منذ ثلاثة أسابيع.

بعد انتقال Grof إلى الولايات المتّحدة عام ١٩٦٠ قام بما يزيد عن ٣٠٠٠ جلسة LSD ودرس ما يفوق عن حالة ٢٠٠٠ شخصاً، وتوصّل للنتيجة بأن فهمنا الحالي للكون والطبيعة والحقيقة وبشكل خاصّ الإنسان ما تزال سطحيّة وغير صحيحة وغير كاملة، وبالاشتراك مع Abraham Moslow وغيره دعي علم النّفس الجديد هذا بعلم النّفس المتجاوز للشّخصية Transpersonal Psychology.

وبحسب اعتقاد Grof، فإنّ النّظام الهولوغرافي هو الوحيد الذي يستطيع تفسير جميع هذه الظّواهر المتجاوزة للشخصيّة من خلال الطّبيعة المنطوية للفراغ والزّمان، ومن خلال صفة التّرابط بين جميع الأشياء في الكون، ويعتقد Grof أنّ هناك إمكانيّة لا نهائيّة لحفظ وجلب المعلومات من خلال هذا النّظام، وهذا يفسّر لماذا تكون تجربة حلم، أو LSD أو رؤية معيّنة قادرة على إعطاء معلومات هائلة عن شخصيّة بأكملها، عن منهجه الشّامل في الحياة، تقييمه لنفسه، ماذا يشعر نحو أهله أو زواجه الخ، كما تفسّر الأنماط البدئيّة Archetypes كالرّجل والمرأة الكونيّة، الأب والأمّ والمحبّ والمخادع والغبي والمدافع الخ.

في النهاية عليّ أن أذكر أنه ليس من الهامّ أن نقول أيّهما أفضل النظريّة التجزيئيّة أم النّظرية التكامليّة ففي النّهاية نحن بحاجة لكلتيهما طالما أنّنا

نعيش على مستوى أرضي؛ فكما أنّ قدم الإنسان تتخصّص بالذّات بوظيفة المشي ولكنّها تؤثّر على أعضاء الجسم المختلفة، وكذلك الأمر بالنّسبة للأذن وقزحية العين أو أيّة خلية في الجسم. فكيف بالأحرى ألاّ يكون الدّماغ كذلك وهو صلة الوصل بين الجسد من جهة والفكر والنّفس والرّوح من جهة أخرى، وحتّى الإنسان نفسه عليه أن يقوم بدور متخصّص طالما أنّه وجد على الأرض واعتنق كساء جسدياً ولكن عليه بنفس الوقت إدراك وحدته مع الكون ومع كلّ شيء وكلّ إنسان في كلّ لحظة لكي يقوم بتحقيق الغاية التي من أجلها وجد.

* * *

السريالية والشعر العربي الحديث

محمد اسماعيل دندي

تمهيد:

من المألوف في المرحلة التي نعيشها، أنْ نطالع شعراً في صحيفة، فننفر منه، أو نسمع قصيدة في أمسية شعرية فننصرف عنها، لأننا في الحالتين، نقف حائرين إزاء ما نقرؤه أو ما نسمعه من فن عريق في تراثنا ومتجذّر في أعماقنا، هو فن الشعر الذي نعدّه أهم الفنون التي مارستها أمتنا على مدى قرون طويلة. وحين نشكّ في أنفسنا، ونرتاب في قدرتنا على الفهم والتذوق،

(*) محمد اسماعيل دندي: باحث وأديب من سورية، يهتم بالدراسات الأدبية والنقد المقارن.

نسأل المختصين والمهتمين، فإما أن يغمغموا في الجواب، وإما أن يشاركونا في الحيرة، فإلامَ نردّ هذا الوضع في مواجهة شعرنا الحديث؟. لاريب أن هناك أسباباً متعددة يمكن لمرء أن يتقصّاها، إلاّ أنّ أحد هذه الأسباب - في رأيي على الأقل - وجودُ حلقة مهملة في سلسلة المذاهب الأدبية التي ندرسها، في المدارس الثانوية أو في الجامعات، فنحن ندرس الكلاسيكية والرومانسية والرمزية والواقعية بشكليْها القديم والجديد، لكننا لا نتعرض للسريالية ولانتوقف عندها، مع أنّ الكثير من خصائص الشعر المسمّى «حديثاً» والذي نقرؤه في الصحف أو نسمعه في الأمسيات، يرجع إلى مابشّرت به السريالية أو تبنّته ودعت إليه. فهل نُخطىء إذا لفتّنا النظر إليها وحاولنا التعريف بها وتقديم فكرة -ولو موجزة- عنها، بعد كل هذه الأهمية التي ننسبها لها

تعريف السريالية: السريالية Surrealisme لفظة فرنسية، تعني لغوياً، ما فوق الواقع، وهي مصطلح جديد، استعمله أبولينير، في رسالة له إلى أحد أصدقائه مفضلاً إياه على مصطلح آخر كان شائعاً عندهم هو ما فوق الطبيعة Surnaturalisme، ثم جاء أندريه بريتون، وأطلقه على المذهب الأدبي الذي أسّسه بعد خلافه مع تريستان تزارا، مؤسس الدادائية -وهي حركة أدبية وفنية كان ينتمي إليها أول الأمر- وكان اختياره لاسم السريالية تعبيراً عن إعجابه وتقديره ووفائه للشاعر أبولينير، وقد قال في تعريفها: «السريالية آلية نفسية صرف، نَدُلُّ عَبْرها، إما لفظاً وإما كتابةً أو بأية طريقة أخرى، على النشاط الحقيقي لتفكيرنا؛ إنها إملاء الفكرة في غياب أية رقابة يمارسها العقل، وخارج أيّ اهتمامٍ جمالي أو أخلاقي» فهذا التعريف يحدد معالمها فهي حالة نفسية تؤدي إلى نتاج أدبي أو سلوك عملي، لكنهما يتمّان في غياب الرقابة العقلية، ويكونان بمنأى عن الاهتمامات الجمالية أو الأخلاقية، وبتعبير آخر: السريالية حركة توشك أن تكون مذهباً أدبياً وفنياً كالمذاهب السابقة لولا أن أصحابها ينفون عنها صفة المذهب، ويرون أنها

تطليق لكل مذهب، إيماناً منهم بمبدأ الحرية الشاملة التي تعادل عندهم الوجود الإنساني، وبرغم ما يذهبون إليه فبالإمكان الوقوف عند الجوانب التالية التي توضحها:

أهداف السريالية:

لم يحدد السرياليون أهدافهم تحديداً صريحاً، ولم يصوغوها في عبارات حاسمة، ولكنّ البيانات الثلاثة التي قدمها بريتون عن السريالية، في الأعوام: ١٩٢٤، ١٩٢٩، ١٩٤٢، كشفت عن طموحاتهم الكبيرة في تغيير الحياة بكل جوانبها، تغييراً يهدف إلى إعادة التوازن النفسي للإنسان الأوربي، بعد أن طغى الواقع الخارجي على نفوس الناس، واعتدى على حرياتهم الداخلية، وأدى إلى الكثير من الاختلال النفسي والأزمات العصبيّة والأمراض العقلية. والسريالية بتركيزها على الواقع الداخلي والمنطقة اللاواعية من النفس البشرية تقيم حياة جديدة متوازنة، وتخلص الإنسان من عقده وأزماته. لعل إعادة التوازن أبرز أهداف السريالية أو هي جوهرها كما يقول بريتون: «كل شيء يدفع للاعتقاد أنه توجد نقطة معيّنة من الذهن حيث الحياة والموت، الحقيقة والخيال، الماضي والمستقبل، الممكن إيصاله واللاممكن، الأعلى والأسفل، تتوقف عن الظهور بحال التناقض. والحال أن المرء يبحث عبثاً للنشاط السريالي عن دافع آخر غير رجاء تعيين تلك النقطة». أما السبيل إلى العلاج وإعادة التوازن وحل التناقضات فهو جملة أفعال: تحرير الإنسان من الرقابة العقلية والقيود الاجتماعية، إطلاق قوى اللاشعور والغرائز البدائية، الاستهتار بالقيم العامة والثورة عليها، الرفض والتمرد وإلغاء التراث. وقد لخص بريتون خطوط ثورته فقال: «كل الوسائل ينبغي أن تكون جيدة للاستخدام من أجل تخريب: العائلة، والوطن، والدين»

عوامل النشأة: يقول أراغون في كلمة له شهيرة: «لايمكن لأحد أن يدرس السريالية، دون أن يضعها في إطار عصرها» وهذا مطلبٌ حق، فمن

الضروري أن تُفهم في ذلك الإطار الذي تكوّنه العوامل التالية: أولاً: تجربة الحرب. فالشبان الذين شاركوا في الحرب العالمية الأولى وهم في زهرة شبابهم، أحسّوا إحساساً عميقاً بالضياع والهزيمة بعدما انتهت الحرب ووقّعت الهدنة، ورأوا أن أوربا لم تجن من تلك الحرب الطاحنة، سوى ملايين الضحايا البشرية والخراب العمراني وتبادل مناطق النفوذ والمستعمرات، إضافة إلى الفقر الذي شمل المنتصرين والمهزومين، والإحساس بالإخفاق الشامل لدى المصفقين للحرب والمعارضين لها، والنقمة على العلم الذي كان يباهي باختراع آلات الدمار والفتك. إن المجتمع الذي أرسل أولئك الشبان إلى ساحات الموت، كان ينتظرهم عند العودة -إذا كُتبت لهم النجاة- ليفرض عليهم تشريعاته وأخلاقه ودياناته. قال بريتون بعد ستة عشر عاماً من الهدنة: «لم يكن هناك مجالٌ في نظرنا إلاّ لثورة نجعلها تجتاح فعلاً الميادين جميعها، ثورة جذرية وقمعية إلى أقصى حد. . إذا تجاهلنا هذا الموقف لن نتوصل بأي شكل إلى تكوين فكرة واضحة عن المنهج السريالي» إن روح الهزيمة التي سببتها الحرب هي العامل الأول في نشأة السريالية، أما العامل الثاني فهو تناقض الحضارة الغربية تناقضاً كبيراً بين نزعتين: نزعة مادية عقلية، ونزعة روحانية تبلغ حد الخرافة والتصوف. فالتقدم العلمي والصناعي، وتعقيدات الرأسمالية القائمة على البرمجة والحساب العقلاني المادي الدقيق لكل شيء، ضيّقت الآفاق أمام المواطن العادي، وجعلته شبيهاً بالآلهة ومقتصراً على الحاجات الغريزية والأمور اليومية، فدخل اليأس إلى نفسه، وصار يرى كل شيء باطلاً وقبض الريح، وكان الانتحار أحد النتائج المباشرة لهذا الواقع، وأعداد المنتحرين المذهلة في أوربا تشهد على ذلك. أما النزعة الروحانية، فكانت رداً على النزعة الأولى، وتمثلت في شيوع الخرافة والشعوذة والتنجيم واستطلاع الغيب واستحضار الأرواح وإحياء الأساطير والبحث عن أسرار الأرقام والإيمان بالمصادفات والأشباح.

ومن يرجع إلى بعض الكتب الروحانية مثل (الرؤيا) الذي ألفه الشاعر الإيرلندي وليم بتلر ييتس، أو كتاب (نوستراداموس: المؤرخ وعالم الغيب) الذي ألفه الفرنسي جان شارل دوفونبرون، أو حتى بعض كتب كولن ولسون -يعرف اهتمامهم بالغيب والعلوم الخفية والأسرار، ومن الطريف أن ديغول كان يستمع باهتمام إلى منجم يدعى (حكيم لوزان) وأن تشرشل كان يستشير أحد العرافين قبل تحريك قواته أثناء الحرب، وأن ستالين كان يهتم بقراءة الغيب وكان أحد العرافين مستشاراً له.

العامل الثالث: هو التأثر بشخصيات أدبية وغير أدبية تميزت بالتمرد أو الشذوذ أو غرابة الأطوار، ومن أهمها شخصية (بودلير) الذي تعاطى الأفيون والحشيش وكتب عنهما ونزل إلى أعماق باريس المظلمة وكهوفها المعتمة حيث الجنس الرخيص والشذوذ السافر. و(رامبو) الشاب المتشرد والفتى اللوطي الذي طلق الشعر قبل العشرين لأنه سار في طريق مسدود إذ أخفق أن يكون رائياً عن طريق الحب والألم والجنون. و(لوتريامون) المراهق الذي هاجر من الأوروغواي إلى فرنسا وتشرد في أزقة باريس وعاش في فنادقها وغيّر اسمه من إيزيدور دوكاس إلى الكونت لوتريامون، ومات في الرابعة والعشرين من عمره في ظروف غامضة. والشاعر (جيرار دي نرفال) الذي ولد في باريس وعاش فيها حتى السابعة والأربعين، ثم انتحر في أحد شوارعها، وكان يؤمن بالسحر والشعوذة والاتصال بعالم الأموات مازجاً الحلم بالواقع، ومن أهم تلك الشخصيات وأكثرها أثراً في نشأة السريالية (جاك فاشيه) الرسّام الفاشل الذي جُرح في الحرب العالمية الأولى، وعالجه أندريه بريتون، فلما شفي من جراحه سحر بريتون بتصرفاته الغريبة مثل إثارة فضيحة أثناء عرض مسرحية من مسرحيات أبو لينير، أو مثل ارتدائه ملابس ضابط انكليزي أو طيار فرنسي والظهور في غاية الأناقة ليعمل حمّالاً يفرّغ الفحم الحجري في محطات القطار، وآخر حماقاته ابتلاع أربعين غراماً من الأفيون بعد أن أعطى صديقاً له مثلها -أراد هذا الصديق أن

يتدرب على المخدرات على يد رجلٍ خبير مثل فاشيه- فكانت النتيجة موت الرجلين، وقد ظل بريتون معجباً بتصرفات فاشيه إعجاباً لانهاية له حتى آخر حياته. هذه العوامل -مجتمعةً- كانت الإطار العام الذي أحاط بالسريالية وأسهم في نشأتها.

ولادة السريالية: السريالية كغيرها من المذاهب الأدبية والفنية التي لاتولد من العدم، وإنما تتأثر بما قبلها: إما بما تقبله منها وتوافق عليه من توجهاتها، وإما بما ترفضه وتتحداه وتدعو إلى نقيضه. ومن هنا كانت السريالية الوريثةَ الشرعية لما سبقها من تكعيبية ومستقبلية ودادائية، وعلى الأخص الدادائية، التي أسسها عام ١٩١٦ في زيورخ -إحدى المدن السويسرية- الشاعر الروماني الشاب تريستان تزارا، وكانت حركة عدمية ترفض كل شيء وتسعى إلى الهدم، ثارت على المجتمع والفن والأدب والتراث، وامتد صيتها إلى فرنسا، فتعاطف معها عدد من الشبان الفرنسيين من أمثال أندريه بريتون، وإيلوار، وأراغون، ودسنوس، وفيليب سوبو. وعندما وصل تزارا إلى باريس، وكانت شهرته قد سبقته، التفَّ حوله هؤلاء الشبان، وأصدروا مجلة (أدب) لتنطق باسمهم وتعرض نتاجهم، لكن الخلافات دبّتْ بينهم بعد حين، ثم تفاقمت، وأدت إلى القطيعة بين تزارا وبريتون، فما كان من بريتون إلاّ أنْ انشقّ عن الدادائية، وأسّسَ -بالتعاون مع صديقه فيليب سوبو- الحركة الجديدة التي أطلقا عليها اسم السريالية المقتبس من أبو لينير كما أشرنا من قبل. وهكذا غابت الدادائية، وقامت السريالية على أنقاضها، وارثة عنها بعض المبادئ والتوجهات، وفي هذه المرحلة من التأثر بالدادائية والصراع معها كتب بريتون: «قيل إنّي أبدّل الناس كما يغيّر المرء حذاءه، اسمحوا لي بالترف رأفةً بي، فأنا لاأستطيع أن أتحمل الحذاء ذاته إلى مالانهاية؛ عندما لايعود يلائمني أتركه لخدمي، سامحوني إذا فكّرت أنني بعكس اللبلاب؛ أموتُ إذا ارتبطت، ولايمكنني إلاّ أنْ أُردّد أمامكم: دعوا كل شيء، دعوا دادا، دعوا امرأتكم، تخلوا عن عشيقتكم،

تخلوا عن آمالكم ومخاوفكم، ازرعوا أولادكم في زاوية غابة، وامضوا في كل سبيل». وأصدر السرياليون مجلة جديدة سموها (الثورة السريالية) نشروا فيها قصائدهم وتجاربهم واستفتاءاتهم حول الجنس والانتحار والتنويم المغناطيسي، كما ألفوا مجموعات شعرية تقوم على التعاون والتأليف الجماعي مثل مجموعة الحقول المغناطيسية التي اشترك في تأليفها بريتون وسوبو، ومثل مجموعة الحبل بلا دنس، التي ألفها بريتون وإيلوار، وقد ظل الوفاق بينهم فترة من الزمن، لكن الظروف السياسية العالمية والمحلية كانت شديدة الوقع على نفوسهم؛ أخذ النظام الشيوعي في الاتحاد السوفياتي يجذبهم، وراحت الفلسفة الماركسية تستهويهم، وفي هذه الفترة تأسس حزب شيوعي في فرنسا، وكثر الحوار بين الشيوعيين والسرياليين، فالفريقان يرفعان شعار الثورة الشاملة، ويطمحان إلى تغيير المجتمع أو الحياة، ثم أسفر الحوار عن دخول بعض السرياليين في صفوف الحزب الشيوعي، فارتاح بعضهم للحزب واستمروا فيه، واستاء منه آخرون فطردوا منه أو تخلوا عنه، وكسبت السريالية بعد ذلك أعضاء جدداً كان لهم دورهم الهام والبارز مثل سلفادور دالي.. بينما خرج منها شخصيات هامة مثل أراغون.. أما بريتون فقد بقي على حماسته للسريالية حتى وفاته عام ١٩٦٦.

أسس السريالية ومنطلقاتها: قامت السريالية على جملة أسس ومبادئ يمكن عرضها باختصار على النحو الآتي: أولاً: الحب وما يتصل به أو يتفرع عنه من رغبة. إن كان صحيحاً أنّ السرياليين طرحوا الانتحار حلاً لإشكالات الحياة وأزماتها، وعالجوه في مجالسهم وعلى صفحات مجلاتهم ونفذه بعضهم تنفيذاً واقعياً كما فعل جاك فاشيه، أوكرفيل، فإن الصحيح أيضاً أنهم جعلوا الحب أو الرغبة طريقاً آخر للخلاص، فقد مجّد بريتون الحب وأشاد به حين قال: «إنّ فكرة الحب وحدها، قادرة على مصالحة كل امرئ مع فكرة الحياة» وهكذا احتل الحب المكان الأول بين

اهتمامات السرياليين، لأنهم وجدوا فيه كل فتنة الكون، وكل قدرات الوجدان وكل اضطراب الحس. وفي شعر بريتون وأراغون وإيلوار، نالت المرأة مكانة قلما بلغتها في شعر الآخرين، وكأن السرياليين أخذوا جميعاً برأي أريستوفان الأسطوري القائل بأن البشر كانوا في الماضي البعيد يتكوّنون من اثنين من المخلوقات البشرية التي نصادفها اليوم: كان لهم أربع أيدٍ وأربع أرجل، ووجهان، وكان لهذه المخلوقات قوة كبيرة وتجبُّرٌ لاحدّ له، حتى أنهم هددوا الآلهة وأرادوا مهاجمتها، ولكي يتجنب زوس Zeus تمردهم، ولكي يضعفهم قطعهم نصفين، فالرجل الحالي ليس سوى نصف مخلوق، وذلك هو المنبع الأول للحب، فكل واحد يفتش عما فصل منه، عن النصف الذي ضاع منه، ويحاول أن يجد الوحدانية التي كانت له، في معانقات الحب التي لاتنفصل فيه الروح عن الجسد بكل عنفوانه وشهواته وطينه؛ من هنا انطلق التعبير عن الرغبة الإباحية والاسترسال في التفصيلات الشهوية، واقتطاف اللذات المحرمة من أشجار الجسد النسوي. ثانياً: الأحلام والغوص في اللاشعور. يقول والاس فاولي، أحد المختصين بدراسة السريالية: «إنّ اللاوعي هو أسطورة السرياليين» قاصداً بذلك أن الاهتمام باللاوعي والتركيز عليه من أهم الظواهر السريالية. لقد تأثر بريتون، خاصة، بفرويد وآرائه في التحليل النفسي، وحاول الاستفادة منها مرتين، مرة في معالجته لمرضاه يوم كان طبيباً عسكرياً في نانت، ومرة في معالجته للفن السريالي الذي وهبه أجمل سني حياته، كما نبّه زملاءه السرياليين إلى أهمية فرويد ونظرياته في الكبت والتداعي الحر والأحلام وغيرها، وعن طريقه تعرفوا على العالم المجهول الذي يتجلى للإنسان أثناء النوم، ففي النوم يقضي الإنسان حوالي نصف حياته، وخلاله يحدّق إلى قوى مجهولة، ويطلع على مخلوقات غريبة، ويتحرك ضمن مشاهد لم يسبق له أنْ رآها. اكتشفوا في الأحلام كنوزاً جديدة، وانهار الجدار الفاصل بين عالمين: عالم الوعي وعالم اللاوعي، دنيا الحلم ودنيا الفكر المنطقي، وتمادوا

فلم يكتفوا بأحلام النوم وأحلام اليقظة، وإنما عمدوا إلى التنويم المغناطيسي، وخصصوا له جلسات مشهودة -كانوا ينتظرون مواعيدها بلهفة واشتياق، ثم يعرضون ما جرى فيها على صفحات مجلاتهم أو كتبهم، وكان أشدهم ولعاً بالتنويم وإدماناً له (دسنوس)، ولذلك اعتبروا الأحلام واللاشعور أخطر الينابيع التي ينبثق منها شعرهم السريالي. ثالثاً: الإيمان بالمصادفات ومعاداة العقل والمنطق. كان أنطون أرتو، يتحدث بلسان السرياليين جميعاً عندما قال: «الويل لعلومكم المنطقية يا سادتي، الويل لها» فهم يرون أن المنطق تجريد عقلاني لايرتبط بالواقع الحقيقي ولايعبر عنه، أما العقل فقد قاد العالم إلى الحرب والدمار، فما أجدرهم أن يعلنوا حربهم ضده وأن يتصدوا لشروره وآثامه. وفي الشعر، مادام الكلاسيكيون قبلهم قد رفعوا رايته وكتبوا قصائدهم في ضوئه، فإن السرياليين اعتبروا كل ذلك النتاج بلاغة زائفة لاصدق فيها لأنها تعبير عن الجانب السطحي من حياة الإنسان، والشعر الممتاز في رأيهم هو شعر الحدس واللامنطق وشعر العتمة والغموض، وكان تزارا أحدهم في حديثه عن الشعر: «يكمن الشعر حيث يخيّم الغموض» وفي الحياة الإنسانية، رأوا أن المصادفات العارضة هي التي تحكم مصير الإنسان، وكان بريتون قد أسهب في عرض المصادفات التي تحكمت فيه ومن أهمها معرفته بفتاة روسية كتب عنها كتاب (نادجا) الذي سماه باسمها وروى فيه المصادفات التي جمعتهما والتي قدّرت لها الجنون والموت في أحد المصحات العقليّة.

رابعاً: الجنون. ليس غريباً أن تؤدي معاداة العقل والمنطق والإيمان المطلق بالمصادفات إلى السير في طريق الجنون الذي سلكته (نادجا) من قبل.

ألح السرياليون دائماً على أنه ليس ثمة حدود واضحة، تفصل بين حالة الخلق الشعري وحالة الجنون، لأنهما متداخلتان في نظرهم، والإنسان فيهما يترك نفسه ويبرأ من أفعاله التقليدية الموروثة، ويرى كل شيء في الوجود بطريقة جديدة وغير متوقعة. بل لانبالغ إذا قلنا إن في تصرفات

السرياليين ضرباً من الجنون -وبالطبع، نحن لانقصد أنهم مجانين بالمعنى الشائع الذي يقتضي إدخالهم إلى المصحات العقلية أو العيادات النفسية، لكنهم في مخالفة المألوف وإطلاق العنان للدوافع والغرائز والأمزجة يدخلون الجنون من بابه الواسع، فمن تصرفاتهم الجنونية مثلاً ارتداء جاك فاشيه ملابس الضباط الأنيقة للعمل في تفريغ الفحم على أرصفة الموانئ ومحطات القطار، أو انتحال الألقاب المختلفة ونسبة المغامرات الخيالية العجيبة لنفسه، ومثلها تصرفات الفنان سلفادور دالي الذي كتب عن نفسه قائلاً: «أنا شديد الإعجاب بحياتي، إنها فعلاً، الحياة التي تناسب النابغة دالي، شيء واحد يزعجني، هو حزن أبي إزاء تصرفاتي، لقد كان قاضياً، وكان يحزن عند رؤيتي أدخل المقهى وعلى رأسي رغيف خبز» ولاتقل عن هذه التصرفات جنوناً، بعض كتابات بريتون، كما في قوله: «يكمن أبسط الأفعال السريالية، في النزول إلى الشارع، وشهر المسدس، وإطلاق النار كيفما اتفق بين الجمهور...». خامساً: مفهوم جديد للجمال. منذ ظهر الرومنسيون أخذ مفهوم الجمال التقليدي يتغير ويتبدل من فترة إلى فترة ومن تيار إلى آخر، وانحسرت المقاييس الموروثة التي تدعو الى الانسجام والتوازن والكمال، وعندما جاء بودلير اكتشف جمالية القبح، وأدخل إلى الشعر ألفاظاً منفرّة كالجيف والحلازين والديدان، وعرّف الجميل بأنه الغريب الذي يستعصي على الفهم، ولما أتى أبولينير أعطى المفاجأة أهمية كبيرة وجعلها معياراً لجودة الشعر، أمّا بريتون -وهو المنظّر الرئيس للسريالية- فقد قال: «إن المدهش جميل على الدوام، وأيُّ مدهش جميل» ثم أضاف: «لاجميل سوى المدهش». كان لوتريامون يحلم بأن يكون الشعر ملك الجميع، وأن يكتبه كل الناس.

أما تزارا فكان يقول: «من المعترف به تماماً في أيامنا، أنه قد يكون شاعراً من لم يكتب بيتاً واحداً من الشعر، وأن هناك نوعاً من الشاعرية في الشارع أو المتجر» وقد تأثر السرياليون بهذه الآراء جميعاً، فكان لتأثرهم

نتيجتان: إنكار المواهب والإزراء بها، وإهمال المهارة الفنية وتقليل شأنها، حتى رأوا أن الجمال والتفنن غايتان تافهتان لاتستحقان اهتمامهم وأن المواهب غير ذات قيمة، وأن على الجميع أن يصوغوا الشعر، لأنه ليس وقفاً على ناس مختصين، قال بريتون: «لاموهبة لنا، نحن الذي جعلنا من أنفسنا -عبر أعمالنا- أواني صماء لاستيعاب الكثير من الأصداء، وآلات مسجلة وضيعة لا تنبهر فوق الرسم الذي تحققه». ثم كتب أراغون «تبدو المهارة الفنية رياء يلوّث الكرامة الإنسانية بأكملها». سادساً: الكتابة الآلية. إن مغزى هذا النوع من الكتابة، الذي فتح أبوابه بريتون وزملاؤه السرياليون أمران أولهما الكتابة دون موضوع مصمم مسبقاً أو أفكار مُعَدّة من قبل، ودون رقابة منطقية أو جمالية أو أخلاقية، كتابة تضع في العالم الخارجي كل ما ينزع فينا لكي يصبح لغة، وهو مكبوت برقابتنا الواعية، لأنّ كل شيء فينا قول ونزوع إلى القول. وثانيهما النزوع الجزافي الذي يبدو أصلاً ثابتاً من أصول الاختراع والإبداع في السريالية، ونستطيع أن نرى في هذا النزوع الدليل على قوة فكرنا، والقدرة على إعطاء قيمة لأي شيء، وإضفاء معنى على ما ليس له معنى. كانت الكتابة الآلية تتم عندهم بعدة طرائق. الأولى: الانسياق مع التداعي الحر، وقد جرى بريتون في هذه الطريقة على مذهب فرويد في معالجة مرضاه، حين كان يضعهم في حالة استرخاء ويترك لخواطرهم أن تنساب طليقة، منبعثة من أعماق اللاشعور والذكريات الدفينة والتجارب المكبوتة، وقد صرح بريتون بأنه تعلم طريقته من فرويد وقال في وصفه لها: «استحضر ماتحتاج إليه للكتابة، وبعد أن تستقر في مكان ملائم قدْر الإمكان، لتركيز فكرك على ذاته، ضع نفسك -ماأمكنك- في الحالة الأكثر انفعالاً وقابلية للتأثر، متغاضياً عن عبقريتك ومواهبك وعبقريات الآخرين ومواهبهم قائلاً في نفسك: إن الأدب أتعس الوسائل التي تقود إلى كل شيء، اكتب ماشئت بسرعة دون أي موضوع سبق لك أن تصورته.

لتكن سرعتك في الكتابة كافية لئلا تحفظ شيئاً مما كتبت، ولاتسولَنّ

لك نفسك إعادة القراءة لما كتبت، ستأتيك العبارة الأولى دون جهد، وسيصعب عليك إبداء الرأي في الجملة التالية، لاتهتم بالأمر، تابع ما طاب لك ذلك، معتمداً على طابع الهمسات الذي لاينضب. . . » وتقوم الطريقة الثانية من طرق الكتابة الآلية على تجميع عبارات جاهزة من عناوين الصحف أو مقاطع مجتزأة منها لتركيبها جنباً إلى جنب حتى تتكوّن أبيات شعرية وقصائد صغيرة من تلك القصاصات، وقد أعطانا بريتون نفسه أمثلة قام بتجميعها وتنسيقها مثل «قصيدة. قهقهة. لازورد في جزيرة سيلان» أو مثل «الحب أولاً. كل شيء يمكن أن يسوّى جيداً. باريس قرية كبيرة» أما الطريقة الثالثة فهي مبنية على وضع أسئلة وتقديم إجابات واقعية ومنطقية على تلك الأسئلة، ثم نغيّر ترتيبها فيكون الجواب – بعد التغيير – طريفاً ومدهشاً، وهذه الطريقة تسهم في ابتكار معانٍ جديدة لم تخطر لأحد من قبل ومثال ذلك أن نسأل: ما القبّعة؟ ونجيب: إنها مايغطي الرأس. ماالصحن؟ وعاء صغير نأكل فيه. ما الفجر؟ مطلع النهار. ما المرآة؟ ما يعكس لنا صورتنا. من الشرطي؟. مدعّم النظام. وما هو الحلم؟ وَهْمٌ في النوم. فإذا بدّلنا مواقع الأسئلة والإجابات نحصل على عبارات مثل ماالقبعة؟ وعاء صغير نأكل فيه. ما الصحن؟ مانغطي به الرأس. ماالفجر؟ ما يعكس لنا صورتنا. ما المرآة؟ مطلع النهار. ما الشرطي؟ وَهْمٌ في النوم. وبعد. فهذه بعض طرق الكتابة الآلية وهناك طرق أخرى لانرغب في تفصيلها اكتفاءً بما ذكرناه منها، وقد كتب بريتون وسوبو صفحات عديدة من كتابهما (الحقول المغناطيسية) على هذه الطرق التي تعد من أهم التقنيات السريالية. وقد آن الأوان للانتقال من السريالية الغربية إلى استعراض آثارها في شعرنا العربي الحديث. وقبل ذلك نلقي نظرة على المنابر التي أطلقتها في بلادنا، ونقف عند المداخل التي تسرّبت منها إلينا. –في مصر، في أواخر الثلاثينات من هذا القرن، صدرت مجلتان إحداهما بالفرنسية اسمها (حصة الرمل) والثانية بالعربية اسمها (التطور) أشرف على تحريرهما أشخاص مهتمون بالحداثة في الأدب والفن، ومطلعون على السريالية الفرنسية التي آمنوا بها

ودعوا إليها جهاراً. كان منهم جورج حنين، وأنور كامل، ورمسيس يونان.

- وفي سورية، في أواخر الأربعينات انطلقت من حلب أصوات تنادي بالسريالية وتدعو إليها، محاولة تطبيقها حيناً والتنظير لها حيناً آخر. كان أعلى تلك الأصوات صوت أورخان ميسر وصوت الدكتور علي الناصر. وبخاصة في مجموعتهما الشعرية (سريال) التي قامت على التعاون بينهما مؤكدة انتماءهما السريالي. ولم يكن بعيداً عنهما الشاعر خير الدين الأسدي في ديوانه (أغاني القبة) الذي امتزجت فيه السريالية بالصوفية.

-وفي لبنان، في أواخر الخمسينات صدرت مجلة (شعر) بإدارة يوسف الخال، صاحب المشروع التحديثي الجريء، فآزره عدد كبير من الشعراء والنقاد والأدباء من شتى الأقطار العربية أمثال أدونيس وشوقي وأبي شقرا وأنسي الحاج وعصام محفوظ وفؤاد رفقه وسركون بولص وتيريز عواد وناديا تويني... وقد استظل معظمهم بظل السريالية وتبنوا أفكارها ووجهات نظرها وعرضوها في مقالاتهم أو سلوكهم أو شعرهم. هكذا امتدت السريالية إلى لغتنا وأدبنا إما عن طريق الاطلاع المباشر على السريالية الفرنسية، وإما عن طريق الترجمة والنقل والتلخيص والعرض والحوار.

تجليات السريالية في شعرنا الحديث: يرى المختصون بالأدب المقارن، ان الأدب حين ينتقل من بيئة إلى أخرى، أو من عصر إلى آخر، لايكون تأثيره حرفياً ولاينعكس في البيئة الجديدة صورةً «طبق الأصل» وإنما تحدث له انكسارات وتصيبه تغييرات وتبديلات ليتلاءم مع الوضع المختلف نسبياً، مع المحافظة على الطابع العام والخطوط العريضة. فما هي التجليات التي تكشف الظواهر السريالية في لغتنا؟.

أولاً: التصريح بالانتماء إلى السريالية وترديد مقولاتها وأفكارها. إن بعض المتأثرين بالسريالية أعلنوا ذلك صراحة، كما فعل أنسي الحاج في أكثر من مناسبة. كتب مرة في ملحق النهار/ ٢٨/ ١١/ ٩٦٥/ يقول: «عام ١٩٥٩ تعرفت إلى السريالية، وكتبت بعض الدراسات عنها، وقد وجدت

فيها ما أنا أعيش بعضه، وقد تأثرت بالنظريات السريالية، وبعد تعرفي إلى بريتون ازددت إيماناً بالسحر واللاشعور والشعوذة، كما ازددت إيماناً بالحلم والحرية» وفي ملحق آخر قبله كتب بتاريخ ٢٤/ ١/ ١٩٦٥ حول الموضوع ذاته فقال: «أنا من الذين يعتقدون بالدخيلاء واللاوعي والمغناطيس والعقل الباطن والحلم والخيال والمدهش والعجيب والسحر والهذيان والصدفة والمفاجأة وما فوق الواقعي» فهذه الأقوال وأمثالها اعترافات صريحة وإعلان صارخ عن الانتماء إلى السريالية واستعراض مفهوماتها. يضاف إليها بعض المفهومات الأخرى التي رددها هو أو غيره كقوله عن الحلم «خلافاً للأكثرية أنا أؤمن بالحلم، من لايحلم لايفعل، الحلم يسبق الفعل كما يسبق الغيم المطر» أو قوله عن الكتابة الآلية: «فالكتابة الأوتوماتيكية ضرورية لأنها القناة الصافية التي تجري فيها الرسالة» أو كما في دفاعه عن الجنون في مقدمة ديوانه (لن) وتعريفه بأنه اللاعادي واللامألوف وضد المتعارف عليه، ثم قوله بعد ذلك: «لي ميل نحو الجوانب المثيرة من الانحرافات العصبية والعقلية والنفسية والشيزوفرينيا والبارنويا والسادية والمازوشية والهيستريا الجنسية وغيرها من العقد والمركبات ذات الحفيف الجمالي، ولاأعتقد أن الاعتراف بذلك معيب» ولم يكن أدونيس أقل منه حماسة في عرض الأفكار والشعارات السريالية وهو القائل عن الجنون: «السيد الحقيقي للعالم هو الجنون لا العقل. . أنا لاأستطيع أن أنتج شيئاً إلا وأنا مجنون» أو قوله: «صليت أن يقودنا الجنون» كما أنه القائل عن الحلم: «أنا مع الحلم، أريد أن تكون القصيدة حلماً، الحلم شكل من الأشكال التي تتيح لنا إعادة التماسّ مع أسرار الكون أيْ مع قواه الخلاقة» هذه المفردات، وهذه التصريحات تؤكد الانتماء السريالي.

ثانياً: محاكاة السرياليين في إطار التأليف الجماعي. لقد رأينا أنّ بريتون اشترك مع عدد من زملائه في تأليف مجموعات شعرية كالحقول المغناطيسية والحبل بلا دنس وغيرهما، وباستطاعتنا أن نتلمس العدوى بهذه

الطريقة ، لدى بعض شعرائنا السرياليين مثل أورخان ميسر الذي اشترك مع علي الناصر في ديوان (سريال) ومثل الشاعر أنسي الحاج الذي قام بعدة محاولات من هذا النوع ، مرةً قرأنا له كتابة بعنوان (أين كنت يا سيدي في الحرب) اشترك في تأليفها مع الشاعر شوقي أبي شقرا ، وقد اتخذا لهما قالباً حوارياً يقول أحدهما : «-أين كنت يا سيدي في الحرب؟» فيجيب الآخر : «-حذفتني الرقابة»- رأيتك على البياض المتروك . -لأن أصلي أبيض . -تك . تاك . توك . ألم تسمع؟ . -سمعت كل اللغة العربية ولم أعد أصدق . . الخ . . » ومرة أخرى قرأنا له نصاً اشترك في تأليفه مع ناديا تويني بعنوان (كم هومر ولذيذ طعم الحرب في فمي) وقد جاء في هذا النص المكتوب على طراز النص السابق في اتخاذ الحوار قالباً والتداعي طريقةً : «-جاءت الحرب ورمت نفسها من الشباك . -على شعر طويل رغم الشمس . -نزلت من عينيَّ حبيبتي ، نزلت من كل العيون . -إنها تقول : هوذا آتٍ زمن الجياد ، هوذا آتٍ زمن الرمال ، هوذا آتٍ زمن أنهار المعدن ، وتمضي بلارجعة الدروب التي بلاذاكرة . -ذهب المسيح مع الريح ، ذهب يسوع مع الدموع ، ذهب يسوع المسيح تحت دموع التماسيح . . . إلخ» . ففي هذين النصين نرى من خصائص السرياليين العبث والتداعيات الحرة ضمن إطار التأليف الجماعي .

ثالثاً : الكتابة في محاور الموضوعات أو الينابيع التي تمركز حولها السرياليون الغربيون وجعلوها أطراً لشعرهم ، ومن أبرز هذه المحاور ، تلك المظاهر التي سميناها الأسس والمنطلقات ونحن نعرف أن التأثر لم يكن في كل الحالات مباشراً . أحياناً كانت تطرح الفكرة لدى أحد شعرائنا ، فإذا هي تنتقل منه إلى الآخرين ، ثم تلقى استحساناً أو تصادف قبولاً فلاتلبث أن تشيع وتنتشر ، مبعثرة على صفحات المجلات والدواوين . مثال ذلك أنّ أنسي الحاج سمى ديوانه الأول (لن) وأبرز فيه أنه شاعر اللعنة والتمرد والرفض والاستباحة ، سواء في قصائد الديوان أو في مقدمته التي دافع فيها

عن قصيدة النثر قائلاً: «إنها عمل شاعر ملعون لايضطجع على إرث الماضي، إنه غاز، وحاجته إلى الحرية تفوق حاجة أي كائن إليها، إنه يستبيح كل المحرمات ليتحرر» هذه الشعارات التي رفعها أنسي الحاج وجدت تجاوباً لدى كثير من الأدباء والشعراء وقد تداولوها على نطاق واسع، كان أدونيس واحداً منهم، حيث قال في ديوانه (أغاني مهيار) الصادر بعد عامين من صدور (لن)، مرةً نثراً: «إنني اللغم والطعم، أقنع الأرض بحضوري، وأفتت العالم كي أمنحه الوجود، ضارباً بعصاي الصخر، حيث ينبجس الرفض ويغسل جسد البسيطة، معلناً طوفان الرفض، معلناً سفر تكوينه» ومرة شعراً عندما قال: خريطتي أرض بلا خالق، والرفض إنجيلي» وممن استحسن هذا الشعار وبالغ فيه الشاعر فايز خضور منذ ديوانه الأول (الظل وحارس المقبرة) وقد جمع بين اللعنة والرفض فقال في فاتحة الديوان: «لعنتني أمي من صغري، من غيري يهفو للَّعنه؟ ألأني كنتُ ألص ّالبيض. والقمح لأبتاع الحلوى. أم أني من أعصاب البلوى. كُوِّنتُ لأرفض حتى الرفض؟» وإذا تجاوزنا الفاتحة إلى قصائد الديوان عثرنا على كلمة الرفض مكررة هنا وهناك، لتصبح توجهاً بارزاً ومسيطراً في شعر فايز كما في قوله: «والرفض يمرمر أعصابي... مهلاً يا رفض... والرفض يهزهز عكازه/ الفارس رفض الرفض يزرع بالتاريخ الأرض/ ...» وبالطبع لايقتصر رفض هؤلاء الشعراء على طرح الشعار، وإنما هو أشمل من ذلك بكثير، وما هذا الشعار إلا مظهر واحد من مظاهر الرفض عندهم. ومن الظواهر الأخرى للسريالية في شعرنا الحديث ظاهرة الرغبة الجنسية والتعبير عنها، فقد تحدث أدونيس مُفَلْسفاً علاقة الرجل بالمرأة من منطلق سريالي فقال: «الجنس عودة للوحدة، لأن الإنسان منفصل، وهو يتوق إلى الاتصال مع المرأة، والجنس هو الاتصال والوحدة، ومن هنا يتحد الموت بالجنس لأنه أعمق أنواع الاتصال، الرجل يجد في المرأة نبعه ولايجد فيها موضوعاً غريباً عنه، إنه يجد جزأه الضائع، جزأه الآخر» وهذه العبارات تذكرنا بقول

أريستوفان الذي تأثر به السرياليون الغربيون عن الكائن الأسطوري الذي توحد فيه الرجل والمرأة، أما في الشعر فقد تناول أدونيس الرغبة في كثير من قصائده، لعل أهمها قصيدة (تحولات العاشق) التي ألح فيها إلى فاعلية العشق، وجهد بصوت الجسد التائق إلى الاتصال: «واستيقظ جسدي/ وأخذ جلدي يتهيأ لسقوط كوكب آخر في تجاعيدي/ أسمع أطرافك الهاذية، أسمع شهقة الخاصرة وسلام الأوراك/ نازلاً إلى الأطباق السفلى/ في حضرة العالم الأضيق/ أشاهد النار والدمع في صحن واحد/ أشاهد مدينة العجب، وتسكر أحوالي/ هكذا يقول السيد الجسد/ ننحني، نتوتر، نتقابل، نتقاطع، نتحاذى، أنا لباس لكِ، وأنت لباس لي» ولانعرف أهذه صلاة وثنية للجسد الأنثوي أم صوفية حسية تتطهر بنار الحب؟ . لعل من الطريف أن تكون عدوى الرغبة قد انتقلت بفضل السريالية، إلى بعض الشعر النسائي، وهو مانلمحه أحياناً في عبارات ناديا تويني، وأحياناً في قصائد تيريز عواد، وكلتاهما من شاعرات مجلة شعر، لقد كانت تيريز جريئة في طرح اللفتات الجسدية عبر شعرها، مرمزاً كما في قولها: «الحروف الفوسفورية تنطفئ في عيني / المسافات سود/ السرير عالٍ/ و(هو) يتدحرج على الهضبات بين آلات النساء/ ويتدحرج وينحدر به الوقت إلى البحر/ فيقلع بلاطه كله/ ويقصف أعمدته جميعها/ ويسقط إلى أسفل/ إلى الحرير المائي/ إلى نعومة الأظافر/ إلى الزرقة الأولى/ بعد أن ماتت العادة التي باسمها كان يعود/ كل ليلة إلى البيت باكراً/ ويردد باسمها كل ليلة متأخراً: أحبّ جسدكِ» وأقلّ ترميزاً في قصائد أخرى، تُعدُّ جوهر عشق أشبه بتجربة موت عنيف، تتفجر شموساً وكواكب، صمتاً وينابيع، جراحات وخوارق: «ساعداي مبسوطان/ هكذا صلبت جسدي مقلاً عنك/ ما زلت أقطر في اللفتة وميض الدهشة/ خلعت قشرتي عني/ وارتديتك قميص الحب/ طمرت عيني تحت رخام ألمك/ وشققتُ إلى النور طريقاً في لحمك. . . / ». ومن الظواهر السريالية الأخرى، التي حفل بها

شعرنا الحديث، الكتابة الآلية، وقد عرضنا بعض طرائقها في الشعر الغربي، والآن نعرض بعض طرائقها في شعرنا العربي، وأهمها في رأينا، تلك القصائد التي تقوم على الاسترسال في تداعيات مفككة، يطلقها الشاعر، ثم ينجرف في تيارها، حتى يصل في معظم الأحوال إلى حد الهذيان، ولانبالغ إذا قلنا، إن الكتابة بدون تصور مسبق أو فكرة مهيأة هي سمة من سمات شعرنا الحديث، حيث تخلُقُ اللغةُ المعاني، وتلد الكلماتُ الأفكارَ والمشاعر، مع الاختلاف في درجة الهذيان بين شاعر وآخر، ولتوضيح هذه الكتابة نستمع إلى سركون بولص أحد شعراء مجلة شعر في قصيدته (آلام بودلير وصلت) إذ يقول فيها: «كانت رحلته طويلة/ رحلة طويلة كانت/ لايعرف فيها أحد أحداً/ لايشرب أحد غير أحشاء صديقه المخلص لايطير أحد إلا في امرأة/ النوم في جمرة واحدة/ ليل الجميع واحد/ نمتُ طويلاً في سفُن الضعف/ قلت قودوني إلى الحرب لأشفى/ ورأيت جمرتي» ومن المغرب العربي (المملكة المغربية) نذكر مثالاً آخر على الكتابة الآلية، وهو للشاعر محمد الشركي، من قصيدته (عشاء الوجه الوثني) إذ يقول فيها: «شموع عميقة/ أعشاب مدن سفلى/ شموع خضراء ومدلاة/ تحت الحدائق المسكونة بدم سهران/ دم هائل ومضاء/ طوال الليل بأعراش وجه قديم/ يا أيها الوجه العالي/ أيها المضرّج بالظلام/ أضموموات زهرك البري لاوريث لها/ لاوريث في ليل القبائل واللغات/ سوى ألسنة تعرّش قرب القصب الشمسي/ ألسنة صاعدة نحوك/ أيها الوجه المغروس في ذاكرة الطواطم:/ ضيافات مسروقة من عشاء الموت./ . . .» ومن الظواهر السريالية الجديرة بالانتباه ظاهرة الأحلام، فقد درج السرياليون على إعطاء الأحلام أهمية فائقة إما في عروضهم النظرية أو في قصائدهم ذاتها، وقد بنى إيلوار وبريتون وأراغون كثيراً من قصائدهم على الأحلام الحقيقية أو المتخيلة، وفي شعرنا الحديث نعثر على كميات هائلة من الأحلام تدل على التأثر بالمنهج الفني للسرياليين، فالشاعر محمد الماغوط يرتاح

للأحلام أنها تحقق له ما يعجز عن تحقيقه على أرض الواقع إذ يقول: «كل شوارع أوربا تسكعتها في فراشي/ أجمل نساء التاريخ ضاجعتهنّ وأنا ساهمٌ في زوايا المقاهي/ ». وجبرا ابراهيم جبرا يدخل إلى شعره تقنية الحلم فيقول في قصيدته (خماسية الصيف) مصوراً حلمه برؤية صديق عمره الشهيد عبد الرحيم محمود الذي حمل البندقية وقاتل عدوه حتى استشهد في معركة الشجرة عام ثمانية وأربعين «في حلمي رأيته/ منزوياً مع صحب له يشربون/ في قاعة قديمة/ على أطرافها أناس يلفظون/ حيّيته ولكن لم يرني/ مررت به ثم عدت ثانية/ فرآني وانتفض على قدميه يعانقني/ قيل لي إنه يوم خرج للقتال مسلحاً ببندقية/ قد قُتل/ وهذا هو صاحباً يشرب، يضحك/ أسود الشعر كما كنا في الثلاثين/ ساعة استيقظت ذُكرتُه بوضوح/ لن يستعيد، فرحي، شوقي إليه، ذكراي له في الثلاثين/ »

من خلال ما تقدم نرى أن السريالية تمددت واستطالت في تضاريس الوطن العربي المتباعدة، وتجسدت في الجنون والأحلام والرفض والكتابة الآلية وغير ذلك من التقنيات التي غطت النتاج السريالي الأوربي، ولايمكن -إلا لمكابر- أن ينكر التأثر الواضح بذلك النتاج.

المراجع والمصادر

١- والاس فاولي. عصر السريالية. ت خالدة سعيد. دار العودة بيروت، ١٩٨١

٢- كميل قيصر داغر. اندره بريتون سلسلة أعلام الفكر العالمي. المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط١ ١٩٧٩

٣- موريس نادو. تاريخ السريالية ت. نتيجة الخلاق وزارة الثقافة دمشق ١٩٩٢

٤- فردينان ألكية. فلسفة السريالية ت. وجيه العمر وزارة الثقافة دمشق ١٩٧٨

٥- مجلة شعر اللبنانية الأعداد (٤١، ٤٣، ٣٣، ٣٤، ٣٥)

٦- مجلة الكرمل العدد (٢٥) وهو خاص بالأدب المغربي

٧- دواوين أدونيس وفايز خضور وأنسي الحاج.

ابـــــداع

شعـــــر

ترانيـم تحـت شـرفة الأزرق

د. نزار بريك هنيدي*

- ١ -

فِي ظِلِّ الماءْ
هَمَسَتْ أَطياقُ الأزرقِ
كَيْفَ غَفَوْتَ
وقَلْبُك منْذُورٌ للرعشَةِ
في ليلِ الأشياءْ

* د . نزار بريك هنيدي : شاعر من سورية ، عضو اتحاد الكتاب العرب ، عضو جمعية الشعر ، من دواوينه « حرائق الندى » .

كيفَ خلعْتَ سماءكَ
ثمَّ لَبِسْتَ الرملَ
لتسجدَ
في كهفِ الأصداءْ
مَنْ غَرَّرَ بالجمر المتوهجِ
في أعماقكَ
حتى غادرَ مكْمَنَهُ
فتَجمَّدَ
في جَيْبِ الأنواءْ
ولماذا
مزّقْتَ غلالةَ روحكَ
حتى فَرَّتْ منكَ
عصافيرُ الإشراقِ
وخافَتْ من نزواتكَ
أسرابُ الأسرارِ
وهامَ جوادُكَ
في بيدِ الأهواءْ.

– ٢ –

والأزرقُ كانَ رفيقَ البدْءِ
يُرتِّبُ أوراقي

وَيُهَيِّءُ طقسي
ينفُخُ في قلبي النغمَ الأزليَّ
يُقَدِّمُ لي مفتاحَ الجوْهرِ
يَسكبُ في جسدي
إكسيرَ العشقِ
يُسَلِّحُني بوميضِ الكشفِ
ويُتْحِفُني
بيقينِ الغبْطةِ
يوقدُ مشكاتي
في قيعانِ الظُلُماتْ .
والأزرقُ منذ البدءِ
يصالحني
مع أسئلتي
ويُنَصِّبُني
مَلِكَ الكلماتْ .

ـ هامش ـ

عَلّقْتُ الأزرقَ في عنُقي
وانسابتْ حولي الأنغامُ
حُوصِرْتُ ، فأيقَظَني قلقي

وأنهالتْ فوقي الأيّامُ

- ٣ -

في فجرٍ أغبرَ
ألقتْ ريحٌ
في بئرٍ
ببقايا شالٍ أزرقَ
كان يُلَوِّنُ برجي السابحَ
في العبَقِ العلْويِّ
اهتزَّ سكونٌ
واندفعتْ أمواجٌ من غبشٍ
لتدكَّ حواسي
فاختلَطَتْ خلَجاتُ الموتِ
بطعم غبارِ الطلعِ
بلون النهدِ
بصوتِ دبيبِ الذعرِ
برائحةِ الأمطارْ.
فَخَرَجْتُ أهيمُ على وجهي
أتسلّلُ من مُدُنٍ
تنْهارُ أمامَ السيلِ
إلى جزرٍ

تَتَهَشَّمُ تحت سياط البحرِ
إلى صحراءَ يُفتتُها الإعصارْ.
لَحِقَتْ بي أشباحٌ.
تغريني
كي أتخبأَ تحت عباءتها
فَنَفَرْتُ
وسرتُ على طرقٍ تتلوّى
بين حطامِ النبضِ
وبين ظلالِ الوعدِ
هوَتْ فوقي شُهُبٌ
جَرَحَتْ حلمي
وتَجلّى لي شَفَقٌ
يَتقلّدُ سيفَ دمي
فَضَمَمْتُ الليلَ إلى صدري
وهرَعْتُ إلى أفقٍ
محفورٍ
في صَخرِ النارْ.

- ٤ -

عندَ الطرفِ الأقصى
من سردابِ الرؤيا

لاحَ النجمُ
أنتصبَتْ أقواسُ البهجةِ
وانشقَّتْ أثوابُ الصمتِ
دَعَوْتُ بُراقَ الحبِّ
عَبَرْتُ وهادَ الخوفِ
هَدَمْتُ جبالَ اليأسِ
وقَوَّضْتُ الأسوارْ.
ومَخَرْتُ عُبابَ الجرحِ
فَشَعَّ القلبُ
وسالَ الضوءُ
وفاحَ أريجُ الشوقِ
فراحتْ
تعرضُ فتنتَها الأشجارْ.

-٥-

هل كانَ الدربُ طويلاً ؟
كنتُ أراهُ
أقصرَ من مرمى أوراقِ الوردْ.
هل كان النجمُ بعيداً ؟
كنتُ أراهُ
أقربَ من شفتينِ
إلى صَحْنِ الخدّ.

ولماذا طالَ مسيرُكَ؟

لا أدري

لكنيّ

لم أتجاوزْ نقطة منطلقي بَعْدُ .

– هامش –

نَبَتَتْ في حقلي الأحجارُ

والتَفَّ يُطَوّقني الشَوْكُ

شبَّتْ في أضلاعي النارُ

وأستوطنَ في خَلَدي الشكُّ

– ٦ –

عرّاف الدهرِ تَذَمَّر

أرخى لحيتَهُ

واستسلَمَ للهذيانْ

سنَّ السكّينَ

وشَقَّ غلافَ الظاهرِ

فاندلَقَتْ أحشاءُ الباطنِ

وارتعَدتْ أوصالُ الأرضِ

انهارتْ آفاقٌ

وتَدفَّقَ من جوفِ التاريخ دَمٌ

وعلَتْ صرخاتُ الأشلاءِ المطمورةِ

تحت تراب النسيان

-٧-

بَيْنَ الأنقاضِ تراءَى لي
نهرٌ يَنْسَابُ على مهلٍ
تتصاعدُ منه رائحةُ العَرَقِ البشريِّ
ويبْرقُ بالضوءِ المسكوبِ عليهِ
مِنْ قمرٍ
يتأوَّهُ في حضنِ الأعشابْ
تُضْنيه أزهارٌ
يتضوَّعُ منها الوَجْدُ
فترْعشُ
مثلَ الدمعِ العالقِ بالأهدابْ
وتكَلِّلهُ
سُحُبٌ حبلى
بالغيضِ الأولِ
تحملُها
راحاتٌ من أملٍ ومكابدةٍ
وقلوبٌ تطفحُ بالذكرى
ونفوسٌ يُسكرُها بَوْحٌ
فتلامس وجهَ الشمسِ

بغيرِ حجابْ .
هل كانَ النهرُ حقيقياً
أم كانَ المشهدُ وَحْيَ سرَابْ ؟
يا أزرقُ
لا توصِدْ
في وجهي البابْ .

-٨-

ياأزرقُ
روحي لم تَتْعَبْ
لكنّي أتْعَبْتُ الجَسَدا
جرَّبْتُ
سلَكْتُ دروبَ الأرضِ
ولكني
أهْرَقْتُ كؤوسَ الوقت سدى
فرَجعْتُ إليكَ
لتغسلَ أحزاني
وتعيدَ اليَّ ترانيمي الأولى
بيتي ، حاراتي ، أشجاري
وسمائي ، أمطاري ، حبي

كلماتي ، أحلامي الأولى
وتُرَمِّمَ ما هَدَمَتْهُ الريحُ
وتَبعَثَ عنقائي
لِتُحلّقَ بي
في كلِّ مدى .

– هامش –

أعلَنْتُ بدايةَ تقويمي
وصبَغْتُ بألواني أفقي
غادَرْتُ مراكبَ تهويمي
وحقَنْتُ عروقي بالألقِ

–٩–

ياأزرقُ
حَوِّمْ فوقي
طَيفَ نَهارْ
ياأزرقُ
أشعِلْ لي قلبي
مِنْ غَيْرِكَ
لَنْ تخضرَّ النارُ .

-١٠-

يا أزرقُ
مُدَّ بساط البحرِ
ودَرِّبني
كي أمشيَ فوقَ الماءْ
يا أزرقُ
زيِّنْ سَقْفَ الكونِ
وطَيِّرْ أحلامي
كي تَلْتَقِط النورَ المتناثرَ
في الأجواءْ
يا أزرقُ
مرِّرْني في النارِ
وعَمِّدْني بالحبِّ
وأرشدْني للنبعِ.
وعَلِّمْني الأسماءْ..

* * *

ابـــداع

حواريـــة

أمسية مع أبي تمام

سلمى الحفار الكزبري

الاشخاص:

١) حبيب ابن أوس الطائي، أي الشاعر أبو تمام.

٢) استاذ جامعي يدرّس الأدب العباسي.

٣) سيدة أديبة من المعجبين بأبي تمام.

سلمى الحفار الكزبري: أديبة من سورية، عضو اتحاد الكتاب العرب، عضو جمعية القصة لرواية، من مؤلفاتها: «البرتقال المر»، «مي وأعلام عصرها».

الحوار.

الاستاذ: كنا نتحدث عن ابي تمام من اكثر من ساعة ياسيدتي فهل أحسّت روحه بحديثنا، وقادته الينا؟ انظري من القادم؟

السيدة: انه أبو تمام بعينه! بقامته الممشوقة، وطلعته السمراء النبيلة، وأرى انه مقبل علينا فهلمّ نحييه ونتحدث اليه.

ابو تمام: اجل انا حبيب بن أوس الطائي! أسعدتما مساءً أيها الصديقان، شعرت بانكما مختلفان في امري فأتيت لاجلو ما التبس عليكما من شعري وحياتي، فما الخبر؟

الاستاذ: انك يا ابا تمام شغل الادباء والمعلمين والمؤرخين الشاغل منذ اكثر من الف ومئتي سنة لما انجزت في حياتك القصيرة من جليل الاعمال، وماكتبت وخلفت من رائع الشعر، وحديثي مع السيدة الاديبة المعجبة بك كان يدور حول لقائك الاول بالبحتري في مجلس ابي سعيد الطائي، وما حدث في ذلك اللقاء...

السيدة: وانا يا ابا تمام كنت أؤكد للاستاذ أنك ادعيت قصيدة البحتري التي انشدها في مجلس ابي سعيد الطائي بحضورك والتي مطلعها:

أأفاق صبٌّ من هوى فأفيقا   أو خان عهداً، او أطاع شفيقا.

قلت إنك ادعيتها اعجابا بالقصيدة وبالفتى الشاعر اولا، ثم لامتحانه ثانية فاحببت ان تمازحه اذ كنت يومئذ ميالا للمزاح، على غير عادتك.

ابو تمام: لقد أصبت والله، ولكن ماذا كان يقول صديقك؟

السيدة: كان يقول إنك حفظت القصيدة في إثر سماعها لما عُرف عنك من قوة الحافظة، واتهمت البحتري بسرقتها منك لانه تجرأ على قول الشعر بحضرتك مما أغاظك فاردت تأديبه...

أبو تمام: الحق أني أعجبت بالبحتري الشاب يوم لقيته لاول مرة في مجلس قريبه القائد أبي سعيد محمد بن يوسف الثغري الطائي، واني وجدت في قصيدته تلك بياناً مشرقاً ولمحات عبقرية، بينما كان ابو سعيد يعانق الفتى شاكرا متهللا خطر لي ان امازحه فقاطعتهما وقلت: (هذا -أعزك الله- شعرٌ لي في مدحك علقه هذا الفتى فسبقني به اليك. . .)

الاستاذ: وماذا كان جواب البحتري وابي سعيد الطائي؟

ابو تمام: ارتبك البحتري وخجل وبدا عليه الاستياء، اما ابو سعيد فقد انّبه في الحال قائلاً: (انك طائي يا فتى ولا يليق بك ان تأتي بما يشين!) فانبرى البحتري يدافع عن نفسه وصدقه وينشد القصيدة كلها والعرق يتصبب من وجهه، فعندئذ ضحكت وقلت لأبي سعيد: (لقد جنيت على هذا الفتى الشاعر واني أعترف له بملكية هذه القصيدة الجميلة وأهنئه عليها.)

السيدة: وهل كان البحتري يعلم من أنت يا أبا تمام؟

أبو تمام: كلا! كان يسمع بي ويحفظ شعري ولم يكن قد لقيني بعد فتعارفنا، وتعانقنا، واعتذر لتجرؤه على قول الشعر بحضوري. . .

الاستاذ: ثم اصبحتما صديقين حميمين، أليس كذلك؟

ابو تمام: أجل. . . لقد توسّمت فيه النبوغ، وأذكر اني قلت له يومئذ: (وددت والله إلا تلد طائية الا مثلك!)

الاستاذ: واعتقد انك بعثت له بوصية مخطوطة في كتابة الشعر ما زالت محفوظة في كتب الادب.

ابو تمام: هذا صحيح فلقد كتبت إليه أوصيه باجتناب الغموض، واستلهام القريحة ومسايرتها، والحرص على إتقان صنعة الشعر.

السيدة: ان نصيحتك للبحتري يا أبا تمام تستحق الاهتمام من كل شاعر وأديب، وتجدر ان تُدرّس في المعاهد والكليات لانها قيمة ومفيدة، واسمح لي بان اقول انها تدل على انسانيته العميقة، وروح في الزمالة عالية، مع انك لم تعمل بما جاء فيها أنت بالذات . . .

ابو تمام: أظن اني فهمت ما تقصدين، انك تجدين في قصائدي بعض الغموض، وألواناً من اوجه البديع، وتعمّد التجنيس، أليس كذلك؟

السيدة: نعم، هذا ما عنيته وما استغربته على الرغم من اعجابي الشديد بشعرك، فلقد نصحت البحتري بتجنب التعقيد، وانتقاء الالفاظ الواضحة المناسبة للمعاني والصور، واردت ان ينتقيها بدقة كما يفصّل الخياط الماهر القماش النفيس بما يتلاءم مع الجسم وشكله . . فاسمح لي بان اقول بصراحة انك تتعمد الغموض في اكثر قصائدك، وتبحث عن كل غريب في سكب قوالبك اللفظية احيانا . . . وتترك في القصيد أبياتاً لم تكن ترضيك انت ولا ترضي معاصريك من مقدّري موهبتك وشعرك . . .

ابو تمام: تعجبني منك هذه الصراحة، فأفصحي عما تفكرين به ولا تخشي مني نفورا.

السيدة: انك عظيم حقا يا أبا تمام وعلى خلق كريم، فلقد قرأت في كتاب ابي بكر الصولي الذي اسماه (اخبار ابي تمام) ان مثقال محمد ابن يعقوب الواسطي دخل عليك مرة وسمع إحدى قصائدك الرائعة التي أنشدتها في حضوره فطرب لها، وتجرأ وقال لك ان فيها بيتا يصحّ ان تحذفه حتى تخلو قصيدتك من كل عيب، فضحكت وقلت له: (أنا والله أعلم من هذا البيت مثل ما تعلم، ولكن شعر

الرجل عنده مثل أولاده الذين فيهم الجميل والقبيح، وفيهم الرشيد والساقط، غير ان كلهم حلو في نفسه فلا يشتهي ان يموت واحد منهم!) فهل هذه القصة صحيحة؟

ابو تمام: اجل ان رواية ابي بكر الصولي صحيحة لأني ضنين بما أنشد في جملته، ويعزّ علي كثيرا ان احذف شيئا منه، كما أني أطلب من القارئ ان يبذل بعض الجهد للوقوف على ما غمض في شعري من ألفاظ ومعان وذلك لكي يشحذ عقله، وينمي معرفته بلغتنا الجميلة.

الاستاذ: أو لست القائل يا أبا تمام للذين سألوك: (لماذا تقول ما لا يُفهم؟) -(لماذا لا تفهمون ما اقول؟)

ابو تمام: اجل كل هذا صحيح ولكن له أسباباً متعددة منها اني كنت ميالا للغوص في عباب العقل والمعقول أكثر مما كنت تواقا لمسايرة العاطفة والخيال، ومنها حفظك الله، أني جعلت من الشعر صنعة وهبت لها عمري، وكرست لها دراساتي كلها، ومنها أخيراً أني حاولت الإتيان بكل جديد في المبنى والمعنى. . . .

الاستاذ: إننا نعرف يا أبا تمام انك نذرت عمرك للفن الشعري وأتيت بكل جميل. كما سكبت القديم من المعاني في قوالب جديدة فان جميع محبيك ودارسيك يقرّون لك بهذا الفضل الكبير على اللغة والشعر، كما انهم يعترفون لك بالخبرة الواسعة، والعلم والذوق الرفيع بما جمعت في كتابك النفيس (ديوان الحماسة)

ابو تمام: وهل يدرّس (ديوان الحماسة كما تدرس قصائدي في عصركم؟)

السيدة: ان ديوان (الحماسة) يا أبا تمام مرجع هام، ومصدر استلهام لكل عالم ومؤرخ واديب، وقد يسرك ان تعلم ان اهتمام العرب فيه

والمستعربين فيه كان وما زال كبيراً، فلقد طبعوه وشرحوه في الشرق والغرب عبر العصور حتى عصرنا هذا، وما من مكتبة عامة او خاصة تخلو منه لما فيه من كنوز انتقيتها وجمعتها للشعراء الذين سبقوك، وقد انصفت المغمورين منهم احسن انصاف، فالله اسأل ان يحسن اليك بقدر ما أحسنت للفن الشعري ولتاريخ الادب.

ابو تمام: شكرا لك ايتها المرأة، فانه ليسرني كثيرا ما اسمع الآن لأني بقيت شتاء بأكمله أدرس شعراء الجاهلية، واختار افضل النماذج من قصائدهم فصنعتها وكان (ديوان الحماسة)، كما اردت ان يكون خدمةً للشعر وتاريخه...

الاستاذ: الرواية التي وردتنا تقول إنك كنت في ضيافة صديقك ابن سلمةعام وقع ثلج كثير قطع السابلة صحيحة إذن ياأبا تمام؟

أبو تمام: أجل ياصديقي لقد نزلت ضيفاً على صديقي أبي الوفاء ابن سلمةوأنا في طريقي الى خراسان فهطلت الثلوج في همدان، وقطعت المواصلات جميعا، فاغتممت وفرح صاحبي وقال لي: (وطن نفسك على البقاء فان مثل هذا الثلج لا ينحسر الا بعد زمان). وأحضر لي خزانة كتبه فطالعتها، ودونت ما اخترته منها حتى تركت له بعد انتهاء الشتاء (ديوان الحماسة) و(الوحشيات).

السيدة: اني ابارك الثلج يا أبا تمام، وأبارك صديقك ابن سلمة لأنهما دفعاك لتدوين هذا الكنز النفيس، ورب ضارة نافعة، كما يقول المثل.

ابو تمام: وكيف وصل اليكم (ديوان الحماسة)؟ كم احب ان اعلم كيف خرج من خزانة آل سلمة.

الاستاذ: يبدو ان آل سلمة كانوا ضنينين بذلك الديوان، وبالوحشيات، لا يطلعون عليهما أحداً تقديراً لقيمتهما التاريخية، الى ان تغيّرت

احوالهم؟

ابو تمام: آه من الزمان وقسوته وغدره! لقد كان آل سلمة من أكرم الناس وأطيبهم، فماذا فعلوا عندما ساءت احوالهم؟

الاستاذ: لقد اطلعوا عالما من دِيّنور يدعى: «أبا العواذل» على هذين الأثرين يوم أتى لزيارتهم فظفر بديوان الحماسة، وحمله الى اصبهان حيث أقبل الأدباء على دراسته وشرحه اذ وجدوا فيه ما يغنيهم عما كان لديهم من كتب مصنفة.

السيدة: وليسمح لي الاستاذ ان اضيف على ما قال إن العلماء الذين شرحوا (ديوان الحماسة) وطبعوه قد بلغوا العشرين في الشرق العربي وفي الغرب، وان من افضل الشروح شرح التبريزي الذي طُبع في مصر، في القرن الثالث عشر، في اربعة أجزاء، ومن ثم طُبع الديوان في المانيا في القرن التاسع عشر باشراف المستشرق (فريتاخ) مع ترجمة لاتينية، كما ترجمة الى اللغة الألمانية المستشرق فريدريك روكوت في شتودغارت سنة ١٨٤٦.

الاستاذ: يجب الا ننسى، اذا سمحت، ان نخبر ابا تمام بان العالم المرزوقي شرح (ديوان الحماسة) شرحا ممتازا، وان أبا العلاء المعري وابن جني قد شرحاه كذلك، ونحن وقد حظينا الليلة بلقاء مع ابي تمام غير مرتقب يسعدنا ان نخبره بمدى الاحسان الذي أحسنه الى الشعر واللغة والتاريخ، إن في ديوانه القيم، او فيما اختار وجمع في (ديوان الحماسة).

ابو تمام: وهل فعلت سوى واجبي، وما يتوافق مع رسالة الشاعر والأديب؟

السيدة: يا حبذا لو كان كل شاعر واديب واعيا لرسالته في عصرنا الحاضر بقدر ما كنت مدركا لها يا أبا تمام!! وهل تعلم انه لولا وصفك

لفتح عمورية لما عرفنا عنها في كتب التاريخ سوى النبأ، وربما التعليقات المحرفة ان رائحتك في تلك المعركة الحاسمة التي مطلعها:

السيفُ اصدقُ إنباءً من الكتبِ   في حدِّهِ الحدُّ بين الجدِّ واللعبِ
بيضُ الصفائحِ، لا سودُ الصحائفِ في   متونهنَّ جلاءُ الشكُّ والريَبِ

إن تلك القصيدة العصماء التي مدحت فيها الخليفة المعتصم بالله، ووصفت موقعة عمورية وصفاً دقيقاً وافياً أغنانا عن كتب التاريخ.

ابو تمام: لكم يسرني ان اسمع هذه الأنباء منك لأني شهدت تلك الموقعة بدعوة من الخليفة المعتصم بالله، وصوّرت كل ما جرى فيها، وهللت لنصرنا، نحن العرب، ضد الروم، ولتحرر المعتصم بالله والجيش العباسي من الخرافات، وتكهنات المنجمين. . . .

السيدة: اعتقد بان المنجمين استشاروالنجوم وزعموا ان فصل الشتاء لم يكن مواتياً للمعركة سنة ٢٢٣هـ، غير أنك كنت انت يا أبا تمام، من مشجعي الخليفة على الفتح لدحض نبؤاتهم الكاذبة، ولهذا كان استهلاك لتلك الملحمة منصباً عليهم فقلت:

والعلم في شهب الأرماح لامعة   بين الخميسين، لا في السبعة الشهب
أين الرواية، بل اين النجوم وما   صاغوه من زخرف فيها ومن كذب؟

ابوتمام: لقد أحسنت والله، ولا تنسى ان المعتصم بالله قاد حملته في فصل الشتاء، وأحرز فيها ذلك النصر المبين، بفضل جيشه العظيم المؤلف من تسعين ألف جندي، وبفضل إيمانه بالنصر وحرصه

على نجدة إخوانه الذين أرهقهم الاحتلال ، فقد بلغه أن امرأة منهم ظُلمت فصاحت تقول مستنجدة به : (وا معتصماه!)

السيدة: ما أعظم وصفك حين تقول:

إن الأسودَ، أسودَ الغابِ همتها ... يومَ الكريهةِ في المسلوبِ لا السَّلَبِ،
تسعون ألفا كآسادِ الشرى نضجَتْ ... جلودُهُم قبل نضْجِ التينِ والعِنَبِ.

الاستاذ: اما انا فاستأذنك يا أبا تمام وأقول ان اكثر ما يطربني من شعرك الجيد وصفك للربيع والغيث حيث تقول:

مطر يذوبُ الصحوُ منه وبعدَهُ ... صحوٌ يكاد من الغضارةِ يقطرُ
غيثان فالأنواءَ غيثٌ ظاهرٌ ... لكَ وجههُ، والغيثُ صحوٌ مُضْمَرُ
يا صاحبيّ تقصّيا نظريكما ... تريا وجوهَ الأرضِ كيفَ تصوّرُ
تريا نهاراً مُشمساً قد شابَهُ ... زهرُ الرُّبى فكأنما هو مُقْمِرُ

السيدة: أو نسيت يا صديقي وصف السحابة لشاعرنا العظيم اذ يقول:

لما بدت للأرض من قريبِ ... تشوّقتْ لوبلها السكوبِ،
تشوُّفَ المريض للطبيبِ ... وطربَ المحبِّ للحبيبِ،
وفرحةَ الأديبِ بالأديبِ، ... وخيّمت صادقةَ الشؤبوبِ
فقامَ فيها الرعدُ كالخطيبِ، ... وحنّت الريحُ حنينَ النوبِ
فالشمسُ ذاتُ حاجبٍ محجوبِ ... قد غرّبَتْ من غيرِ ما غروبِ.

أبو تمام: الربيع والانسان، أيها الصديقان، أعظم معجزتين في الدنيا، وقد ربطت بينهما حينما انشدت أقول:

إن الربيعَ أثرُ الزمانِ ... لو كان ذا روحٍ وذا جثمانِ
مُصوَّراً في صورةِ الانسانِ ... لكان بسّاماً من الفتيانِ

الاستاذ والسيدة معا: ما أجمل هذا التصوير!

السيدة: لم تكن يا ابا تمام بارعا في الوصف والمدح والرثاء فحسب، بل كنت في شعرك حكيماً، وإنساناً، ومعلما لا يضاهيه معلم، فعندما قرأت الأبيات الجميلة التي تقول فيها:

مـن لـي بـانسـان اذا أغـضـبـتهُ وجـهـلـت، كـان الحلـمُ ردَّ جـوابِهِ
واذا طَرِبْتُ الى المُدام شـربـت مـن أخـلاقِهِ، وسكـرتُ مـن آدابـهِ،
وتـراه يُصغـي للـحـديثِ بقلبـه وبسـمـعـه، وكـأنـه أدرى بهِ.

نعم! عندما قرأت هذه الأبيات وامعنت النظر في معانيها تصوّرتك؛ ايها الشاعر الكبير، واقفا على منبر تعلم الناس الأخلاق، والذوق، فهل كنت تشكو، كما نشكو نحن اليوم، من سوء سلوك الناس عامة؟!

ابو تمام: الناس يا سيدتي هم هم في كل زمان ومكان، فيهم الانسان المهذب، وفيهم ذو الخلق السيء، والمهم في اعتقادي ان يكون الانسان خيّراً ومفيداً أينما وُجد، وان يُعطي تجاربه ومواهبه بسخاء لكي يرضى عن نفسه، ويكون انساناً سوياً.

الاستاذ: تحضرني الان ابيات لك يا أبا تمام في هذا المعنى لم اعثر على مثلها في تراثنا الادبي، ولكني لا اذكر في اي قصيدة من قصائدك جاءت.

ابو تمام: وما هي تلك الابيات؟ علني اذكر في أي مقام أنشدتها؟

الاستاذ: اظن انك ختمت بها احدى قصائدك فقلت:

مـا أنسَ، لا انسَ قـولا قـالـه رجـل غَضَضْتَ في عُقْبِهِ طرفي واجـفاني
نلْ الثريا، او الشعرى، فليس فتىً لم يُغْنِ خمسينَ إنسـانا بانسـان!

ابو تمام: الآن تذكرت! كان هذان البيتان نهاية قصيدة لي في مدح سليمان ابن وهب، وكنت أشفع في رجل لديه.

السيدة: لقد عُرف عنك يا أبا تمام سعيك لخدمة معاصريك، وكرم نفسك ويدك فليس بمستغرب ان تؤدي لهم ما استطعت من الخدمات.

ابو تمام: صحيح أني كنت ميالا للاتفاق، ولهذا لم يبق لدى ما يكفيني مؤونة العيش في آخر عمري على الرغم مما دخل عليّ من مال، فرضيت ان أتولى شؤون البريد في الموصل.

السيدة: لا ريب في انك كنت حكيماً وعلى حق، فشاعر كبير مثلك جدير بأن يعيش عيشاً كريماً.

الاستاذ: يقول المعري يا ابا تمام: (ابو تمام والمتنبي حكيمان، والبحتري الشاعر،) فما هو رأيك في حكمه؟

ابو تمام: لا أرى في حكمه ما يتنافى مع الحق. . . مع اني لم اعاصر المتنبي، اما ان اكون انا شاعراً وحكيماً في آن واحد فهذا لا يؤذيني البتة، وكيف لا استفيد من علم المنطق والفلسفة اليونانية وقد اطلعت عليهما في حياتي أوسع اطلاع؟

السيدة: بل ارى ان من صفات عبقريتك انك لم تعتمد على الموهبة وحدها بل غذيتها بالعلم والدرس والتمحيص.

ابو تمام: وهل يستغني شاعر أو عالم أو أديب عن الدراسة المستمرة مهما كان موهوبا؟ ان الذين يعتمدون على الموهبة وحدها سريعا ما يأفل نجمهم في الأفق. . .

الاستاذ: هذا صحيح، واعتقد ان من دواعي خلود شعرك يا ابا تمام انك ضمّنت قصائدك حكما خالدة ذهبت مثلا، وذاعت بين الناس لان المنطق كان لك إماما، والخبرة في الناس والنفس الانسانية كانت لك ينبوعاً ثراً.

ابو تمام: وكيف لا اتبصرّ في امور الدنيا وأنا من جاب الاقطار، وعرف الناس، وعانى من الغربة والشقاء الوانا؟

الاستاذ: هنا يكمن السرّ في قيمة شعرك وفي خلوده، فعندما يجتمع العلم مع الموهبة يكون عطاء الفنان خالداً ابد الدهر.

السيدة: لقد حبّبت الاغتراب الى الناس يا ابا تمام حين قلت:

ولكنني لم أحو وفرا مجمعا ... ففزت به الا بشمل مبدّد
ولم تعطني الايام نوماً مسكنا ... ألذ به الا بنوم مشرّد
وطول مُقام المرء في الحيّ مخلق ... لديباجتيه فاغترب تتجدّد
فاني رأيت الشمس زيدت محبةً ... الى الناس أن ليست عليهم بسرمد.

ابو تمام: اجل ان التجوال والسفر والاغتراب مدرسة وأية مدرسة لشحذ المواهب، وتقوية العزائم، وصقل الاخلاق... لقد جنيت من السفر والاغتراب فوائد جمة تفوق ما قاسيت فيهما من آلام ومتعاب، ولولا الأسفار لما اتيح لي ان التقي بالعلماء والادباء الذين كانوا أهلا جدداً لي في كل مكان، فلقد عزاني ودُّهم عن كل حرمان.

الاستاذ: كلامك جوهري يا أبا تمام، ولقد كنت مخلصا مع نفسك، ومخلصا في شعرك وعطائك حين عبرت عن هذا الرأي تقول في مدح صديقك الشاعر علي بن الجهم:

إن يكد مطرفُ الاخاء فإننا ... نغدو ونسري في إخاء تالد
او يختلف ماءُ الوصال فماؤنا ... عذب تحدّر من غمام واحد
او يفترق نسبٌ يؤلّف بيننا ... أدبٌ أقمناه مقام الوالد.

السيدة : ان اعجابي بك كشاعر وانسان فوق كلّ اعجاب لانك علمت الناس، يا أبا تمام، ما لا يعلمون، وهديتهم الى ما كانوا غافلين! لقد جعلت من أبناء الموهبة الواحدة أهلاً وأحباءً مؤتلفين في اخوانياتك الرائعة، ودعوتهم الى التضامن على مبادئ الصداقة والودّ عوضاً عن التنافر بدافع العداوة والحقد.

ابو تمام : اجل يا سيدتي، آمنت بتلك الدعوة البناءة وبشّرت بها بعد أن عانيت من التحاسد والتباغض ما عانيت . . . .

الاستاذ : أذكر جيدا بيتين لك في هذا المعنى أدرّسهما لطلابي لما فيهما من دقّة المعنى وبراعة التمثيل :

واذا اراد الله نشرَ فضيلةٍ طُويت، أتاح لها لسانَ حسود
لولا اشتعالُ النارِ فيما جاورت ما كان يُعرف طيبُ عَرفِ العود!

السيدة : لله درك يا أبا تمام! لقد كنت أمنع من ان يصيبك حسد الحاسدين. . وكنت مرهف الحس، شديد التألم من كل ضعف وشذوذ، تعظّم العقل وتذم الزمان ولا سيما تُسلّم مقاليد الامور الى غير أهلها، وكثيرا ما أتخيل أرسطو وحكماء اليونان عندما أقرأ أشعاراً لك كقولك :

لقد ساسَنا هذا الزمانُ سياسةً سُدى، لم يَسُسْها قبلُ عبدٌ مجدّعُ
حلت نُطَفٌ منها لنِكسٍ، وذو الحجا يُدارُ له سُمٌّ من العيش مُنْقَعُ

الاستاذ : جميل والله! ويطيب لي ان أعلمك يا ابا تمام بأن المتنبي أخذ هذا المعنى عنك فقال :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم.

السيدة : وربما يسرك ان تعرف ان المتنبي أخذ عنك معنىً آخر سكبه في قالب

مختلف ابسط ديباجة، وأسهل لفظا، فانت قلت:

وليس يُجلّي الكَرْبَ رُمْحٌ مُسدَّدٌ إذا هو لم يُؤْنَسْ برأيٍ مُسدَّدِ

فقال المتنبي:

الرأي قبلَ شجاعةِ الشجعانِ هو أولٌ، وهي المَحَلُّ الثاني.

الاستاذ: اسمحي لي ان اعارضكِ يا سيدتي لاني استسيغ بيت أبي تمام اكثر من بيت المتنبي وأجده واضحاً، سلساً لا تعقيد فيه ولاغموض..

ابو تمام: على كل حال يسعدني أن يأخذ عني المتنبي ومن جاء بعده من كبار الشعراء فأنا نفسي قد اخذت عمن سبقني ووضعته في أسلوب ذاتي، فالفن في الاصل ينهل من معينين: معين الموهبة الذي يأتي بالابداع، ومعين الاقتباس الذي يؤدي الى التطوير والتجديد.

السيدة: يا سلام! لقد أصبت والله وجئت بالقول الفصل! ولا أخفي عنك أني طربت كثيرا حين قرأت سينية ابن زيدون الاندلسي الذي جاء بعدك ببضعة قرون وفيها يقول يوم كان مسجونا:

ما على ظنّي باسُ يجرحُ الدهرُ ويأسو

ولقد يُنجيك إغفالٌ، ويُرديك احتراس

والمحاذيرُ سهامٌ، والمقاديرُ قياسُ

ولكم أجدى قعودٌ ولكم أكدى التماسُ

وكذا الدهرُ اذا ما عزَّ ناسٌ ذلَّ ناسُ.

لقد أعجبتني القصيدة وشممت فيها نَفَسَكَ يا ابا تمام حين قلت:

الدهرُ يومٌ ويومُ، والعيشُ عذرٌ ولوم،

فاقصدْ لما تشتهيه ولا يكنْ منك حوم

لا تُصغين لقبيحٍ يقولُه فيك قوم.

الاستاذ: وتذكرني سينية ابن زيدون بابيات لشاعرنا الكبير أبي تمام يقول فيها:

اصبري ايتها النفسُ   فإن الصبرَ أحجى،
نهنهي الحزن فان   الحزنَ ان لم ينْه لجا
وألبسي اليأس من النا   س، فإن اليأس ملجا
ربما خاب رجاءٌ   واتى ما ليس يُرجى

بينما يقول ابن زيدون قريباً من هذا المعنى

إن قسا الدهر فللما   ءِ من الصخر انبجاس
ولئن أمسيت محبو   ساً فللغيث احتباس
فتأمل كيف يغشى   مُقلةَ المجد النعاسُ
ويُفتُّ المسك في التر   بِ فيوطأ ويداسُ

ابو تمام: لا ريب في ان ابن زيدون هذا كان شاعرا كبيرا.

الاستاذ: نعم يا أبا تمام، لقد سماه النقاد والمؤرخون بحتري الاندلس، واعتبره احد المستعربين الاسبان أشعر شعراء الاندلس قاطبةً، فإن له في ولادة حبيبته قصائدَ رائعة...

السيدة: يحلو لي يا ابا تمام، ونحن نذكر الحبيبات، ان اسألك سؤالا شخصياً فهل تسمح؟

ابو تمام: وكيف لا أسمح وقد حضرت مجلسكما الليلة بأعجوبة، ورجوتكما ان تكونا صريحين، وان تسألا عما تفكران به دون حرج! تفضلي.

السيدة: اني حائرة حقاً في أمرك مع المرأة، فهل أجبيتها وانزلتها في حياتك

وشعرك المنزلة اللائقة بالمحبوب؟

ابو تمام: (بصوت ضاحك) انه سؤال محرج حقا ولكن لا مفر من الاجابة عليه... فكيف لا أحب المرأة وهي أجمل مخلوق على الأرض، ومصدر الوحي والالهام للشاعر عندما تكون جميلة الخُلُق والخَلق.

السيدة: أنت تريدها اذن خلواً اذن من كلّ عيب في خُلقها وخَلقها، أرى انك تطلب المستحيل يا ابا تمام، وان حرصك على الكمال جعلك تعزف عن الحبيبة، وربما عن النساء...

ابو تمام: ولكن الا تظنين مثلي ان الشاعر، ككل انسان آخر، قد يُوفّق في الحبّ وقد لا يوفق؟

السيدة: بلى! ولكن الحبيبات المشهورات في أدبنا العربي أمثال ليلى، وبثينة وعزة، وولادة، كن نساء على نصيب يقلُّ أو ينقص من الجمال، وعرفنَ الغيرة، وحدّة الطبع، ومع ذلك فقد كان لهن تأثير كبير في حياة كل من الشعراء الكبار قيس، وجميل، وكثير، وابن زيدون، وفي أشعارهم...

ابو تمام: وهل من الضروري ان يكون للشاعر حبيبة واحدة، وان يُشهّر بها في قصائده؟ أولا تعتقدين ان طباع الشعراء تختلف، وان منهم من يؤثر الكتمان والتحشّم مثلي؟

السيدة: إنه لمعروف عنك انك كنت متحشماً في شعرك الغزلي، ولكن هب انك قصدت إخفاء هوية حبيباتك فأين هن في غزلك؟

ابو تمام: إبحثي عنهن يا سيدتي إن في القصائد الغزلية القليلة التي انشدتها، او في الابيات التي استهللت فيها بعض مدائحي.

السيدة: ثق يا ابا تمام بأني بحثت كثيراً عن أثر المرأة في شعرك، وحاولت التماسه، فطال بي التعب، وعزّ عليّ الطلب.

الاستاذ: ان لك بيتين تقول فيهما:

نقل فؤادكَ حيثُ شئتَ من الهوى ... ما الحبُّ الا للحبيبِ الاول
كم منزلٍ في الارض يألَفُهُ الفتى ... وحنينُهُ أبداً لأولِ منزلِ

فهل نفهم منهما يا أبا تمام انك عرفت الحب الصحيح مرة واحدة في مطلع شبابك؟

ابو تمام: الحق اني عرفت الحب الجارف في مطلع شبابي، ثم قُضي عليّ بالترحال، لذا بقي حنيني إليه شديدا...

السيدة: هل كانت المحبوبة الاولى هي التي عنيتها في قولك:

ابادرها بالشكرِ قبلَ وصالِها ... وان هجرَتْ يوماً طلبتُ لها عذْرا
وأجعلُها في الغدرِ عندي وفيةً ... وان زعمت اني لها مُضْمِرٌ غدرا
أتاها بعطرٍ اهلُها فتضاحكتْ ... وقالت: أيبغي العطرَ ويَحكُمُ عطرا؟
أحاديثُها درٌّ، ودرٌ كلامها، ... ولم ار دَرًّا قبلَهُ يُنظمُ الدرَّا

فإني أعجب لما في خطابكَ هذا من ولوعٍ وتسامح..

ابو تمام: او لا يكفيك هذا الوصف وهذا التصوير للمحبوبة!

السيدة: كلا! انه لا يرويني من شاعر طويل النفس مثلك، ثم ان تكرار ذكر الغدر والصدود في الابيات التي خصصت المرأة فيها يدعوني الى الظن انك كنت عاثر الحظ من اللواتي شُغفت بهن... أو لست القائل:

وماذا عليها لو اشارت فودعت ... الينا باطراف البنان وأومت
ولما دعاني البينُ ولّيت اذ دعا، ... ولما دعاها طاوعته ولبّت،
فلم أر مثلي كان أوفى بعهدها، ... ولا مثلها لم يرعَ عهدي وذمتي

ابو تمام: قلت لك عندما طرحت أول سؤال عن المرأة في حياتي انك احرجتني، ولا استطيع ان أضيف الان سوى ان الحظوظ في حياة الرجال مقادير . . .

الاستاذ: بل لعل كثرة انتقالك في البلاد يا ابا تمام قد حال بينك وبين استقرارك عاطفيا . . . فعندما بارحت مصر الى العراق وخراسان عبّرت عن ألم الفراق ابلغ تعبير اذ قلت:

خلّفت في الافق الغربي لي سكنا ... قد كان عيشي حُلواً بحلوانِ
غصنٌ من البان مهتزٌ على قَمَرٍ ... يهتزُ مثلَ اهتزازِ الغُصْنِ بالبانِ
أفنيتُ في حبهِ فيضَ الدموعِ كما ... أفنيتُ في هَجْرِهِ صبري وسلواني

السيدة: ما اروعَ هذا الحنين، وما أجمل هذا الوصف أو ليست يا أستاذ هذه الابيات من قصيدة أبي تمام التي مطلعها:

في الشام اهلي وبغدادُ الهوى ... وأنا بالرقمتين، وبالفسْطاطِ اخواني
وما أظنُ النوى ترضى بما صنعتْ ... حتى تُشافِهَ بي أقصى خراسانِ!

الاستاذ: أجل يا سيدتي، فإن أبا تمام كان في تلك الأبيات داعيةً لوحدة الاقطار العربية لما بينها من وثيق الروابط العرقية واللغوية والتاريخية، وهذه في ظني صفة عظيمة من صفات شخصيته.

ابو تمام: شكراً يا استاذ على هذا الاستنتاج، أما أنت يا سيدتي فأحبّ ان تعلمي اني رجل مؤمن في أعماق وجداني، وأني كنت شديد النفور من التهتك والمجون اللذين كانا شائعين في العصر العباسي الأول الذي عشت فيه.

السيدة: لقد كنت مؤمناً حقا يا أبا تمام، وكان قلبك عامراً بالرجاء فأنت من

قال:

واني جدير ان أخافَ وأتقي — وان كنت لم أشرك بذي العرش ثانياً

ولكنك كنت قبل كل شيء صاحب أخلاق رفيعة ردعتك عن التبجح بالتهتك والمجون كما فعل معاصروك ومن سبقهم مثل أبي نواس . . .

الاستاذ: اتسمح لي بان اضيف شيئا يا ابا تمام على ما قالته السيدة الادبية؟

ابو تمام: تفضل ارجوك.

الاستاذ: كلنا يعلم انك متهور، وبغيرتك على كرامتك، فأنت من الشعراء القلائل الذين مدحوا ولم يتزلفوا، وكوفئوا فتعففوا.

ابو تمام: لا تنسى يا صديقي أنني طائي عربيٌّ معتزٌّ بقبيلتي وقومي، فكيف يليق بمثلي ان يسفّ وينحني؟ كان الخلفاء والولاة والوزراء يغدقون عليّ الهبات بمنتهى الإكرام.

الاستاذ: لقد بلغتنا أخبار تكريمهم لك يا أبا تمام، ووجدنا في موقف الحسن بن رجاء منك ابلغ تعبير عن هذا التكريم والاحترام، وذلك عندما أنشدت له لاميتك الرائعة في مدحه التي مطلعها:

لما وردنا ساحةَ الحَسن انقضى — عنا تعجرفُ دولةِ الأمحالِ

أحيا الرجاءَ لنا برغم نوائب — كثُرَتْ بهنَّ مصارعُ الآمالِ

أغلى عذارى الشعر إنَّ مهورَها — عند الكرام، وإن رَخُصْنَ، غوالي!

ابو تمام: طيّب الله ثرى الحسن بن رجاء! عندما سمع مني هذه الابيات هبّ واقفا لشدة ما أُعجب بها تعبيرا منه عن تقديري وقال (ما أحسن ما جَلَوْتَ هذه العروس!)

السيدة: فأجبتَهُ في الحال، وأنت المشهور بالفطنة والجواب السريع: (والله

لو كانت من الحورِ العين لكان قيامُك لها أوفى مهورها. . .)

ابو تمام: لله دركما أيها الصديقان! لقد أعدتماني الى تلك الايام الخوالي العذاب. . . والآن ثبت لي أنه ما من شيء يضيع في الوجود. . . وشتان بين الحسن بن رجاء وغيره من الولاة والامراء. . .

الاستاذ: هل أفهم من هذا الكلام أن الحادثة المناقضة لهذه والتي جرت معك ومع امير خراسان صحيحة إذن؟

ابو تمام: أيةُ حادثة تعني يا تُرى؟

الاستاذ: يوم فرغت من إنشاد قصيدتك في مدح عبد الله بن طاهر بن الحسين فنثر عليك ألف درهم فأنفت تناول الدراهم مع أنك كنت في أمس الحاجة اليها، فأخذها الغلمان، وغضب الأمير.

ابو تمام: اني متعجبٌ حقاً كيف أنكم تعرفون عني كل شيء!!

السيدة: لا حساب للعصور يا أبا تمام في حياة الخالدين. . . . لقد أبيت ان تنحني لأخذ المكافأة من أمير خراسان لأنه جرح عزةَ نفسك بنثرها عليك، والآن قل لي بربك أولم تقصد هذا الحادث عندما انشدت تقول:

ما جودُ كفِّكَ إن جادَتْ وان بخلَتْ   من ماء وجهي إذا أخلقتهُ، عرضُ!

ابو تمام: أهنئك على هذه الحافظة، وعلى هذا التحليل، سأعود الآن الى مثوايَ مثلج الصدر، قرير العين، متأكداً من أن البذور التي غرستُها في لغة العرب وشعرهم أينعت وأعطت ثمارا طيبة. . .

يغيب ابو تمام فيقول الاستاذ للسيدة:

الاستاذ: هل كنا نحلم يا سيدتي؟ او ان أبا تمام كان حقاً بيننا يُحاورنا ويجيب على اسئلتنا؟

السيدة: لا لم نكن نحلم يا صديقي، فقد سجّلت الحديث برمته، ولا ريب

في ان روح ابي تمام أحسّت بأن الشعراء العرب وأدبائه اقاموا مهرجانا كبيرا لاحياء ذكراه في مدينة الموصل مؤخرا، وان الحكومة العراقية رفعت له تمثالا ضخما فيها، وكأنه أطل علينا هذا المساء يردّ التحية...

الاستاذ: وماذا كان أعطى شاعرنا العظيم لو عاش اكثر من اربعين عاما؟

لقد كفاه ما اعطى لتراثنا وأغناه به، ثم لا تنسى أنه كان واثقا من قيمة هذا العطاء لأنه وضع فيه خلاصة علمه وفكره وقلبه، فقد حكم بنفسه على شعره حين قال:

من شاعر وقفَ الكلامُ ببابه ... واكتّن في طَرَفَيْ ذراهُ المنطقُ

قد ثقفت منه الشآم، وسهلت ... منه الحجازُ، ورققته المشرق.

الاستاذ: وقال ابو تمام يصف جهده في كتابة الشعر ويتنبأ بخلوده:

خذها ابنة الفكر المهذّب في الدُّجى ... والليلُ أسود رقعة الجلباب

ويزيدها مرُّ الليالي جِدّةً ... وتقادمُ الأيام حسنَ شباب!

* * *

ابــــــداع

قصة قصيرة

أبو محمد الطيب

ســـحبان العمـــر *

- ماذا تشرب ياأبا محمد ، شاي أو قهوة ؟

لم ينتبه ، واستمر محنيا ع ى الكرسي الكبير، يـ معّه ...

فتابعتُ : ع ى كل حال سوف نشرب الاثنين، وسوف نتغدياً معاً .

لكن ماذا تفضل أن تشرب الآن ، ع ى الريق ؟

أجاب باقتضاب :

- القهوة مضرة لأن بقاياها تترسب في البدن ...

---

* سحبان العمر : أديب وقاص من سورية .

سكت قليلاً ثم قال: نحن معشر الصناع نشرب الشاي طوال النهار، إبريق شاي رايح، وإبريق شاي راجع، ... نتذوق الشاي على الأصول، نشرب قطراته بتمهل يتلاءم مع طبيعة مهنتنا، التي تحتاج إلى صبر وتأن، أما أنتم معشر الموظفين، فتبتلعون القهوة والشاي ابتلاعاً، مثلما تبتلعون كل ما تصل إليه أيديكم.

غمزني بوجه يلوح عليه المزاح، وقال معتذرا: أنا لا أقصدك طبعا، وأولاد الحلال من أمثالك كثر ... ثم تنهد مجاملا: الله يساعد الموظف.. راتبه الشهري يطير خلال يومين أو ثلاثة أيام على الأكثر ... لو اشتغل في اليوم ساعة واحدة لكفاه....

أخذ يرتشف كأس الشاي بتمهل وشغف، فانثال لسانه: اشتغلت منذ شهرين عند طبيب، قدم لي شايا خفيفا، لونه أصفر كوجه طفل مرتعب، وطمأنني أن الشاي الخفيف لا يضر الجسم، وحدثني الطبيب عن عملية جراحية أجراها لمريض استأصل من كليته ثلاث حصيات، كل واحدة بحجم حبة الحمص ... حللها، فاذ بها رواسب من القهوة والشاي ... والقهوة فيها أكثف وأغلظ ...

صمت لحظة ثم قال بأسلوب الحكيم: الإكثار من المنبهات مضر للصحة ... وخاصة القهوة ملعونة الوالدين..

* * *

أخذ يلمع كرسياً آخر وكالعادة انطلق لسانه:

– منذ عشر سنوات، أخذت ابني معي، كان وقتها صغيراً لا يتجاوز عمره السبع سنوات، قصدنا بيت ناس أكابر، لنصلح لهم « طقماً » معتبراً من طراز لويس الرابع عشر ... أكرمونا كثيراً، وغادرناهم مساء، غانمين، آكلين، شاربين.. بارك الله فيهم، نفس هنية وعين « شبعانة » ...

بعد أن نام الأولاد، انتفضت أم المؤمنين، وأخذت تصب فوق رأسي التهم:

-أراك اليوم منشرح الصدر على غير العادة . . طبعاً، الصبايا اللواتي كنت عندهن متعة للنظر ، صدور مكشوفة وسيقان عريانة . . لم يحبوا أن يلبسوا على آخر طراز ، إلا عندما جئت تعمل عندهن ... أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ألا تستحي على شيبتك يارجل ؟

سكت برهة ، وقال وهو يهز رأسه : الصبي حكى لأمه ، ووصف لها كل ماشاهده ... ثم أردف وهو يضحك ببراءة : ومن وقتها حلفت يميناً مغلظاً، ألا أصطحب الصبي معي ثانية ، وإلا فطلاقي من أم محمد على يديه ! ! ...

تأملني مليا ثم قال :

ـ أيجب أن نعلّم الناس ماذا يلبسون ؟ ! ، هم أحرار ، الإنسان يلبس كما يشاء ويشتهي ، هذه قشور ، أما اللب فهو المعاملة الحسنة والأخلاق الكريمة ، وهم أشهد بالله كذلك ... يا أستاذ ، مادح نفسه كذّاب ، لو لم أكن ذا أخلاق ، وأغض بصري لما أدخلوني بيتهم ... زوجتي عقلها قليل ، النسوان عقلهن قليل ... زاد انفعاله ، فسقط المبرد من يده ، وتسارعت ألفاظه :

– البيوت أسرار ، والله أمر بالستر ... أنا أطرش أعمى أخرس ، . . . لا أغتاب الناس وأثرثر : بيت فلان مستورون ، وبيت علاّن مستهترون ... وهؤلاء أصحاب دين ، وأولئك ليسوا باصحاب دين ... أي انسان أدخلني بيته ، منحني ثقته ... أفلا يجب أن أكون أهلا الثقة ؟ !

أجبته على الفور : أجل والله .

* * *

– نرجع إلى الصبي . . الآن كبر ، وأصبح في السابعة عشرة من عمره . . صحيح أنه وحيد على خمس بنات ، ولكنني لم أدلله في يوم من الأيام ، أمه كانت تدلله ، أما الآن وقد أصبح شابا فهي تشدُّ عليه ... الدلال يضر ابن آدم . . .

ثم أردف من فوره ، وقد ازدادت تعابير وجهه جدية :

- أبناء هذه الأيام كسالى، لا يريدون أن يتعبوا كما تعبنا ، ولا أن يشقوا كما شقينا، يريدون أن تهبط أرزاقهم من السماء ، لا أن يسعوا إليها ... هذا الصبي أتعبني كثيراً ، لم يتقن أي صنعه ... سبّع الكارات ...

- عُدَّ معي على أصابعك الصنعات التي شغّلته بها : دهان ، حداد ، بلاط ، وفي زخرفة الجبصين ، وبمعمل نسيج ، وبمعمل معلبات ، وفي ورشة ألمنيوم ، ومطعم فول وحمص ، ومحل خرداوات ، وبائع زهور ... بصراحة إنه « كثير الكارات قليل المردود » ...

سقط المبرد من يد أبي محمد ثانية وهز رأسه متبرما :

- في كل مرة يهرب من الشغل ، يحتج بحجج ما أنزل الله بها من سلطان ! ! مرة انكسر ظهره من التعب ، وأخرى المعلم شتمه بالفاظ بذيئة . . ومرة الصانع الكبير ضربه ، وثالثة ورابعة ، وخامسة . . إنهم لا يعلمونه أصول الصنعة ، وكل همهم أن يشغلوه عتالا ، أو أن يقدم لهم الشاي والقهوة ...

سألني متوسلا ، وسحابة من الكآبة ظللت وجهه : ماذا أفعل به ، انصحني بربك ؟ !

قلت بجدية : ياأبا محمد ، لماذا لا تشبع هواية الصبي ، لماذا لا تعلمه المهنة التي يحبها ؟ !

تنهد وزفر زفرة عميقة :

- ابني يحب التجارة والبيع والشراء . . حلمه بكل بساطة أن أفتح له «سوبر ماركت » يحتوي مختلف البضائع من كل صنف ولون ...

وأضاف بلا مبالاة مستخفة : حلّ المشكلة سهل جداً ، وهو واضح في ذهن الصبي ، بما أنني مليونير فهذا المخزن لن يكلفني أكثر من ستة ملايين ليرة ، والصبي سيصبح مليارديرا خلال بضع سنوات . . ثم ضحك ضحكة مستسلمة ، فاضت من أعماقه ، وتردد صداها في أرجاء المنزل . . .

* * *

قبيل الغروب بقليل تناولت الطعام مع أبي محمد ، ويبدو أن الطبيخ أعجبه ، فانبرى يشكر زوجتي على عنايتها ... ثم خاطبني بقوله :

- ياأستاذ أنا صانع . . « على قد الحال » مستور والحمد لله ... اننا نمد أرجلنا على « قد بساطنا » ، مصروفنا في الشهر عشرون ألفاً ، وقد يصل إلى خمسة وعشرين ألف ليرة ... أنا لا أستدين أبداً ، فسؤال الناس مذلة ، ولو إلى أين الطريق ؟ ! أنا أشتغل - كما ترى - من الصباح إلى المساء حتى يصبح دخلي على قدر مصروفي ... وقد أوفر « قرشين أحيانا ...

سكت هنيهة ، وابتسم ابتسامة راضية مقتضبة وقال :

- حتى اليوم لم أستطع أن أمتلك محلا خاصاً بي . . عدتي كلها في منزلي . . ولولا أن أسعاري رخيصة لما كان عندي زبائن ، الحمد لله الزبائن كثر ، ويقصدونني في منزلي . . . ابتلع آخر لقمة ، ثم انكب ثانية على كرسي آخر يلمعه وتابع :

- قد أربح باليوم الواحد ألفي ليرة ، أو ألف ليرة ، أو خمسمئة ليرة ، وقد لا أستفتح ، قد أمرض فلا أعمل ... وربك ساترها ...

كنت أومىء برأسي مؤيداً آراءه ، وأهم أحياناً أن أشاركه النقاش ، غير أني كنت سعيداً بحديثه العفوي الخالي من التكلف ، فاسكت ، وأظل مصغيا له :

- في السنتين الأخيرتين ، الناس في ضيقة والسوق بارد ، في مثل هذه الظروف ، عندما يأتيك زبون ، وتقول له : غرفة النوم يكلف إصلاحها عشرة الاف ليرة ، فان الزبون سيهرب ... أنا أعرف طبيعة الناس عندما تضيق الأحوال لذلك أتهاود معهم ...

ظهرت على وجهه علائم التفكير ، والرفض ، فسكت فترة ليست قصيرة ، ثم حدثني بهذه القصة :

- لي صاحب يمتلك محلا فخماً للمفروشات . . صحيح أن بضاعته ممتازة ، لكن أسعاره كاوية . . منذ سنتين لم يستفتح بأية بيعة ذات وزن ...

ورغم ذلك ظل مبيساً رأسه ، لا يتزحزح عن أسعاره، أرخص غرفة نوم عنده بمئة ألف ليرة ، لا تنقص قرشاً واحداً . . هز رأسه باستنكار : ابن آدم أسود رأس ... لماذا لا يبيعها بثمانين ألف ليرة ، أو بستين ألف أو حتى بخمسين ألف ... لماذا يظل مصراً أن يربح ضعفي التكلفة أو ثلاثة أضعافها ... لماذا لا يرضى بربح معقول ... لماذا لا يراعي أحوال الناس وضيقتهم ، فيستفيد ويفيد . .

أفلت الكرسي من يده ، والتفت إلي قائلاً :

- تصور أنه باع بيته - منذ مدة - واشترى بيتاً أصغر منه ، وأرخص ، لينفق على عياله ... والبارحة بالذات قصد أخاه واستدان منه ... ولا يزال مبيسا رأسه ... داء الفالج لا تعالج ...

* * *

الساعة تجاوزت التاسعة ليلاً ، أبو محمد أنهى عمله .

- كل شيء أصبح مضبوطاً على ما أظن ... !!

قلت : أجل ، شكراً لك ! ... تفضل ، هاك الألفي ليرة التي اتفقنا عليها . . .

سكت أبو محمد برهة ، ثم قال بهدوء : يمكنني أن أخصم لك مئتي ليرة ، عشرة بالمئة ، فقد صار بيننا خبز وملح ، وأنا أقدّر ظروف الموظفين الصعبة . . وبعد . . فاذا لم تخصم المئتي ليرة ، فسوف تظن أن رأيي عن المهاودة في الأسعار ، للاستهلاك المحلي ، مجرد كلام دون فعل ...

قاطعته بجدية وتصميم : ياأبا محمد الطيب، بارك الله فيك . . أنا راض كل الرضا ، فالعمل متقن ويستحق هذا المبلغ ...

دس أبو محمد النقود في جيبه ، وودعني ، وقد انفرجت شفتاه عن ابتسامة عريضة . . .

* * *

ابــــداع

كوميديا الكاتب في الزمن الكاذب

حسب الله يحيى

أكتب . الكتابة نزهة .

أكتب . الكتابة خلاص .

أكتب . . أكتب . . أكتب .

تَعلمت أن تكتب . أتقنتَ الحرفة جيداً . . وصار بمقدورك الآن أن تبوح بكل ما تعاني في داخلك . أن تقول كل ما تعرف . أن تحقق موقفك . أن تعلن عن الخطأ . أن . . أن . . أن . .

---

* حسب الله يحيى : قاص من القطر العراقي الشقيق ، يهتم بالدراسات الأدبية والمسرحية ، وله اسهامات في مجال النقد الأدبي .

غير أنك تحس . . فتكتم إحساسك بالأشياء .

وترى . . وتسمع . . وتشم وتدرك وتعلم . . وأمام كل الأمور تتغافل ، تتجاهل . . كأن الجهل بالأشياء حكمة . كأن الصمت عن كل ما تعرف . . معرفة قطافها دانية ، كأن العمر المديد ، يجعلك بل يلزمك أن تسكت وتتأمل .

وتهدأ . . بأقراص مهدئة .

وتنام . . بأقراص منوّمة .

وتتوسل النسيان أن يلغي منك ذاكرتك . . أن يقتلها فيك . . أن تكون كلمة النسيان نفسها منسية .

أكتب . . الكتابة ذاكرة يقظة ، وأنت لا تريد أن تتذكر ولا أن تحس باليقظة . . فكلاهما عذاب وأرق وجنون ومحن .

وما دمت تنعم : برئتين سليمتين ، فبامكانك اذن أن تتنفس وتأخذ الأوكسجين وتملأ به صدرك .

ومادمت تملك بقايا أسنان ، فان بمقدورك أن تكون بمعدة مملوءة ، يمكنها هضم رغيف كامل مندى بماء زلال .

بقدمين تمشي ، بيدين تنجز أعمالك . برأس كامل مرتاح يمكنك أن تفكر . بعينين ترى طبيعة بهية وسماء مشرقة . بأذنين تسمع كل أغاني الشباب التي تعيد إليك ما أنطفأ من سنوات عمرك .

بمقدورك أن تشم كل العطور التي تعلن شاشة التلفزيون عن وفرتها في الأسواق .

من الأبناء . . أنت فرح باثنين .

من الزوجات . . لك واحدة تتمتع بالوفاء .

من الأشجار . . لك شجرة تين وشجرة توت وشجرة برتقال .

من العمل . . لك راتب تقاعدي .

من السكن . . لك بيت يحتوي على غرفتين . . وفي كل غرفة نافذة .

من العافية . . لك دفتر صحي .

ماالذي ينقصك . . لئن تكون في قمة السعادة ؟

ماالذي تنشده . . لئن تكتب عن شمس تشرق وتضيء الكون وعصافير تنشد ، ونسائم عليلة تهب عليك . . ؟ !

لا عليك . . من أخبار تسمعها في آخر الليل ، تروج لها إذاعات معادية لبلدك . . فغداً يكذبها مصدر مسؤول .

لا عليك . . من الأسعار اللاهبة للمواد الغذائية الضرورية التي تحتاجها . اليوم يعلن التلفزيون عن التسعيرة والأمر بالالتزام بها .

لا عليك . . أن تمشي لساعات أو نهار . . حتى تقوم بتسليم أجور الماء أو الكهرباء ، دون استخدام سيارة للأجرة . . فهذا هو السبيل لايقاف التلاعب بأجور النقل وجشع السواق الدائم . . وبناء جسد قوي .

لا عليك . . أن تنتظر تناول حبوب هيبتون لتخفيف تصاعد ضغط الدم بعد أسبوعين أو شهر . . فحقك مضمون .

لا عليك . . أن تعاني من قلق على بيتك وعلى قنينة الغاز بالذات من اللصوص . . يمكنك الاتفاق مع زوجتك ومع ولديك وذلك بتنظيم جدول للخفارات ليلاً ونهاراً . . وبامكانك إستخدام سكين المطبخ ، أو مسحوق نفاث السام في مواجهة اللصوص .

لا تشغل رأسك بشيء . .

لا شيء يستحق أن يجعل شعر رأسك ناصع البياض .

لا تدع قلبك يخفق لامرأة . . ليست هناك امرأة تستحق أن يخفق لها قلبك . . فكلهن يطلبن منك خفية . أن تكذب .

لا ترأف بأحد . الرأفة ذل .

لا تُقبل طفلاً . . القبلة دلال .

لا تبتسم لأحد . . الابتسامة نفاق ، والابتسامة بلا سبب من قلة ...

لا تحزن لشيء . لا تبك . لا تفكر بالغد .

الحزن والبكاء والتفكير . . حالات لا تلائم من هو في مقامك الرفيع .

مثلك . . يتباهى بأنه عرف جيداً آخر الأزياء الرجالية والنسائية التي تعلن عنها المجلات وشاشة التلفزيون .

مثلك . . يعرف حفلات هذا المساء ، يعرف المطاعم الأفضل دائماً .

مثلك . . يعرف ويعلّم زوجته كيفية استخدام الكريم الأساس للحصول على وجه ناعم وبشرة رقيقة .

مثلك . . يحفظ كل الأغاني . . وإلا فليس من المنطق أن يتداولها الجميع وأنت . . أنت ابن هذا الزمن . . على جهل بها !

مثلك . . لا بد أن يثمن عملية البناء . . والتي كان من أبرز معالمها تبليط شارع بطول نصف كيلومتر . . وتصنيع الملح وتعليبه بأياد محلية دون الاستعانة بالخبرات الأجنبية المرتفعة التكاليف مما وفر على البلد ملايين الدولارات .

مثلك . . مثل وعيك وقلمك الأنيق ، ملزم بالكتابة عن تجربة تحويل التمور الرديئة التي تعطى علفاً للحيوانات إلى منتوج صالح للبشر ويعطيهم طاقة حرارية تضاهي عسل النحل الأجنبي المغشوش ، والتين المعلب . . والفاكهة المشتهاة .

أكتب . . أكتب . . الكتابة مسؤولية ، ومسؤوليتك أن تقول الحقيقة للناس ، وإلا أصبحت خائفاً لبلد أخرجك من العتمة إلى النور ، وجعل منك آدمياً يمشي على قدمين وبزوج من الجوارب الملونة وحذاء يطول إنتعالك له أكثر من خمسة أيام على التوالي . .

وصار بمقدورك أن تتعلم لغات المستعمرين والصهاينة في غضون أربع وعشرين ساعة . . وتنسى لغة قومك واجدادك . . وكأنك لست من سلالة الجهل . . التي تخلت عن كل شيء وصارت تناقش مسائل ما بعد الحداثة . . حتى تستبق الأعداء وتنتقل من حضيرة الأمية إلى حضيرة العلم

بالمعلوم والجهل بالمجهول . . أكتب . . فهذا زمن حرية تتقاسمها مع كتبك الأثيرة في غرفة منزلك التي تنطلق من نافذتها أشرعة كلماتك . . وتذوب بأنصهار تام في الحرارة الموجودة خارج وداخل النافذة .

أكتب . . لا شيء يحول دون ممارستك الكتابة .

أكتب . . لا تفكر بأمور صغيرة ، لا تليق بمقامك الكبير . .

أكتب . . أنت إنسان مميز . . لا ينشغل بالانشغالات اليومية لعامة الناس . . الذين يشغلهم رغيف الخبز لمجرد أنه أصبح بستين ديناراً ، وقدح الشاي في المقهى بمائة وخمسين ديناراً فمثلك يفكر خارج هذا المأزق الضيق . . ذلك أنك من الوعي بحيث تكتفي بوضع صورة ملونة يمكن إقتطاعها من أحدى المجلات المترفة والصادرة من مكان آمن مترف مرفه ، رسم فيها رغيف في دورة القمر ووجهه البهي وعلى مقربة منه يقف قدح الشاي المعطر ، منصباً ، نشوان ، مزهواً بلونه المحمر العجيب ، يفوح منه بخار شهي . .

أكتب . . لا تتوقف . .

هنالك سيولة نقدية ورقية يمكن أن تملأ بها جيوبك ... كل ما في الأمر أن تكون مرناً في تعاملك مع ماتراه وتسمعه وتشمه وتحسه وتتذوقه . .

- مثلاً . .

- مثلاً . . لا تقل إننا نعيش في فوضى اقتصادية . . حدد المسؤولية . قل إن المواطن هو السبب . . فلو قام كل مواطن بمقاطعة شراء المواد الغذائية . . لتلفت ، وصارت أسعارها زهيدة .

- مثل آخر . .

- نعم . . مثل آخر . لا تَرشِ ولا ترتشي . . فتلك ظاهرة سيئة ينبغي عليك فضحها بطريقة تقديم وقبول الهدايا . . تعبيراً عن المودة والتلاحم في صفوف المجتمع .

- مثل ثالث . .

– هناك أمثلة كثيرة . . وأنت تريد العد والاحصاء . . مثلاً . . المواد الفاسدة والمغشوشة والرديئة التي تباع على أنها من أفضل النوعيات . .

– ما الذي يمكن للكاتب أن يقول عنها ؟

– الأمر بسيط ، بسيط جداً . . قل إن مادة الملح التي تستخدم لادامة بعض المواد . . يمكن أن تكون فاسدة . . قل الملح فاسد . والبحر الذي دفع به إلى الضفة هو المسؤول عن هذا الفساد وينبغي معاقبته ، بعدم السباحة فيه ، ومقاطعة العبور إلى ضفته الأخرى . . حتى يعود إليه رشده فلا يلقي إلينا بملح فاسد مستغلاً بعض مشكلاتنا الآنية .

أكتب . . الكتابة تبرير ، وأنت خير من يبرر الأخطاء ، إن كانت هناك أخطاء فعلاً . . مع علمنا أنها غير موجودة كما تشير كل أجهزة الاعلام المقروءة والمرئية والسمعية . .

أكتب . . فقنينة الحبر موجودة . .

وما دامت قناني الحبر موفورة لك ، فمعنى هذا أنك مدعو للكتابة . وأي تخلف عن أداء هذه المهمة الوطنية . . تعني . . أنك عاجز أو خائن . .

ابعد تهمة العجز والخيانة عنك . . وأكتب .

غازل من لا تحب . . مهمة الكاتب أن يستلهم .

كن سعيداً . . وأنت في قمة الحزن . . فالكاتب من يتجاوز المحن الشخصية ، وصولاً إلى الفرح والشموخ الانساني .

شيدّ قصوراً من الآمال . . لا من الرمال . . فهذا هو الفرق بين فحولتك الابداعية ، والبراءة العابرة لطفولتك المضاعة .

إرسم العالم من حولك مزهواً بالخضرة . . أمح من مخيلتك شيئاً اسمه الليل . . وإن لاحقك وألزمك الكتابة عنه ، قل إنه مصدر الالهام وموطن الخيال والمسرات . .

أكتب . . أكتب . . أكتب .

. . وظل الكاتب يكتب . . ويكتب حتى آخر يوم في حياته مستجْيباً لخوف لا يعرف مصدره - كما يقول البعض مع أن الجميع يعرفون مصدر كل شيء-وعندما تقرر طبع أعماله الكاملة . . فوجيء القاصي والداني . القريب والبعيد. العدو والصديق . الغافل واليقظ . الصادق والكاذب. الشجاع والجبان . . أن كل ما تركه الكاتب . . لم يكن إلا حزمة من أوراق بيضاء . . وإلى جانبها قنينة حبر مملوءة بالماء . . وقلم حبر معبأ بالهواء . .

* * *

آفاق المعرفة

مدخل إلى معاني الدهر

لؤي علي خليل

أولاً- المعنى اللغوي
ثانياً- المعنى الديني
ثالثاً- المعنى الفلسفي
رابعاً- المعنى الشعري

لعله من الجائز أن تتعدد مدلولات دال ماكلما تعدّدت زاوية الرؤية التي يُنظر من خلالها إليه؛ لأن اختلاف هذه الزاوية قد يؤدي إلى اكتشاف وجه مخبأ لم يكن قد اكتشف بعد،

* لؤي علي خليل: باحث من سورية، يهتم بالدراسات الفلسفية والاجتماعية.

وذلك بسبب اختلاف الزاوية أولاً وتفرّد كل عين وخصوصيتها آخراً. فإذا صح ذلك غدا للدهر معنى لغوي إذا نُظر إليه من زاوية اللغة، ومعنى ديني إذا صُوِّر بعين الدين... وهكذا. وهذه الكثرة من المعاني للفظ واحد كالدهر - إن وُجدت - إنما تدل على خصبه من جهة وتجذّر علاقته بالتاريخ الإنساني من خلال سيرورته وصيرورته من جهة أخرى. كما أن تضافرها بعضها مع بعض يسهم في تشكيل فهم أكثر شمولاً للدال.

أولاً - المعنى اللغوي:

ملاك الأمر فيه على ماشاع بين العرب من مفاهيم للدهر أو مااستخدموه دون أن يقع موقع الشيوع بينهم. ويغلب أن يرد الدهر في هذا المعنى منظوراً إليه من وجوه ثلاثة لاتكاد تخرج عنها معظم المعاجم اللغوية؛ **أولها**: قَرْنُهُ بالأبد وجعله معناه الذي لايحيد عنه، **وثانيها**: نَسْبُهُ إلى الزمان، تارة يظنهما شيئاً واحداً، وتارة يفرق بينهما بفروق من الزمان نفسه، وانفرد آخرها بأن التقط ماتُنوقل عن الدهر من استخدامات فعلية هي إلى المجاز أقرب منها إلى الحقيقة.

فقد جاء في (التهذيب) أن الدهر بمعنى (الأبد المحدود)، ورجّح محققاً الكتاب أن يكون هذا التعريف محرَّفاً من (الأمد الممدود) على ماجاء في (لسان العرب)[1]. بيد أن لهذا التعريف وجهاً يحتمل الصواب بتعزيز مما ذكره صاحب (الكلّيات) وصاحب (المخصَّص)، فقد قال الكَفَوي: «الدهر: هو في الأصل اسم لمدة العالم من مبدأ وجوده إلى انقضائه، ويستعار للعادة الباقية ومدّة الحياة»[2]. وقال ابن سيدَه: «الدهر: مدة بقاء الدنيا إلى انقضائها»[3] وعلى ذلك يصبح المقصود بـ«المحدود» في التعريف الأول: حدود الدنيا أو العالم، ابتداؤها وانتهاؤها. ولكن لايخفى أن (الكلّيات) من الكتب المتأخرة، فبينه وبين (التهذيب) قرون سبعة، كما أن

١- الأزهري- تهذيب اللغة: ٦/ ١٩١ وابن منظور- لسان العرب: ٤/ ٢٩٢.

٢- الكفوي- الكليات: ٤٤٤

٣- ابن سيده- المُخصَّص: ٢/ ٩: ٦٢

تعريف الدهر بـ«الأمد الممدود» أو «الأبد الممدود» ورد غير مرة في المعاجم السابقة على (الكليّات) وعلى هذا فإن قبولنا لتعريف (التهذيب) سيكون مقروناً بكثير من التحفظ. وقد يُقال: الدهر هو الأبد بغير صفة[٤].

ويكون الدهر بمعنى الزمان، فقد ورد في (التهذيب): «قال شمر: الزمان والدهر واحد، واحتجّ بقوله:

إن دهراً يلفّ حبلي بجُمْلٍ لزمان يهمُّ بالإحسان»[٥]

وجاء في (التاج): «وقيل: الدهر: (الزمان) قلّ أو كثر، وهما واحد»[٦]. ونسبه التّهانوي إلى أهل المغرب: «وفي المغرب الدهر والزمان واحد»[٧]. غير أن الأزهري استدرك بأن «الدهر عند العرب يقع على بعض الدهر الأطول، ويقع على مدّة الدنيا كلها (وقد سمعت غير واحد من العرب يقول: أقمنا على ماء كذا وكذا دهراً، ودارنا التي حللنا بها دهراً، وإذا كان هذا هكذا جاز أن يُقال: الزمان والدهر واحد في معنى دون معنى»[٨]. رمى بذلك إلى أننا إذا أردنا بالدهر بعضه فإنه كالزمان، وإذا أردنا به الأبد فإنه بخلافه. ورأى آخرون أن الدهر إنما هو زمان طويل، قال التهانوي: «الدهر... يُعَبَّرُ به عن كل مدّة كثيرة بخلاف الزمان فإنه يقع على المدة القليلة والكثيرة»[٩]. وقد يأتي الدهر أيضاً بمعنى: ألف سنة[١٠].

ويبدو من الأجدر الأخذ برأي صاحب (التهذيب) حين مازج بين مفهومين

٤- الجوهري- تاج اللغة وصحاح العربية: ٢/ ٦٦١.

٥- الأزهري- تهذيب اللغة: ٦/ ١٩٢.

٦- الزبيدي- تاج العروس من جواهر القاموس: ١١/ ٣٤٦.

٧- التهانوي- كشاف اصطلاحات الفنون: ٢/ ٢٧٤

٨- الأزهري- تهذيب اللغة:/ ١٩٢-١٩٣- وينظر أيضاً: الزبيدي: تاج العروس: ١١/ ٣٤٦-٣٤٧.

٩- التهانوي- كشاف اصطلاحات الفنون: ٢/ ٢٧٤ وينظر أيضاً: ابن منظور- لسان العرب: ٤/ ٢٩٢

١٠- ابن منظور- لسان العرب: ٤/ ٢٩٢.

للدهر: الأصل أن يكون بمعنى الأبد، والجائز أن يكون بمعنى الزمان إذا قُصد به بعضه، وعلى هذا فإن «إطلاقه على القليل مجاز واتساع»[١١].

أما استخدام الدهر باشتقاقات فعلية فجلُّه يذهب إلى معنى الغلبة، جاء في (مقاييس اللغة) «دهر» الدال والهاء والراء واحد، وهو الغلبة والقهر، وسمّي الدهر دهراً لأنه يأتي على كل شيء ويغلبه . . . وقد يحتمل قياساً أن يكون الدهر اسماً مأخوذاً من الفعل وهو الغلبة»[١٢]، وعلى هذا كان أكثر معانيه دوراناً على الألسن (النازلة)، فقد جاء في (التهذيب) «الدهر: النازلة تنزل بالقوم، تقول: دَهَرَهم أمر: نزلت بهم نازلة»[١٣]. والجمع «دهارير: تصاريف الدهر ونوائبه، مشتق من لفظ الدهر»[١٤]. وكانت عادة العرب أنها تذم الدهر إذا نزل بها مكروه، فتقول: أبادهم الدهر، وأصابتهم قوارعه ونوازله، فينسبون الفاعلية إليه. ومن معاني الدهر الأخرى: (العادة)، فقولنا: ماذاك بدهري، أي: عادتي، و(الهمة والغاية): مادهري كذا، أي: ماهمّتي، و(الغلبة)[١٥]. وقد يأتي الفعل منه في السياقات المختلفة بمعان متنوعة؛ مثل: «الدهْوَرَة: جمعُكَ الشيء وقذفك به في مهواة. . ودَهْوَرَ: سلح، ودَهْوَرَ كلامَه: قحّم بعضه في إثر بعض، ودَهْوَرَ الحائط: دفعه فسقط، وتَدَهْوَرَ الليل: أدبر»، ويقال: دَهْوَرَ اللُّقَم، أي: كبَّرها، ويقال أيضاً: دهرٌ دهارير، بمعنى شديد[١٧].

١١- الزبيدي- تاج العروس: ١١/ ٣٤٧. وقد نسبه إلى الأزهري، ولم أعثر عليه في (التهذيب) لافي مادة (دهر) ولافي مادة (زمن).

١٢- ابن فارس - معجم مقاييس اللغة: ٢/ ٣٠٥-٣٠٦.

١٣- الأزهري- تهذيب اللغة: ٦/ ١٩٤.

١٤- الزبيدي- تاج العروس: ١١/ ٣٤٨.

١٥- الجوهري- تاج اللغة: ٢/ ٦٦٢ وابن فارس- مقاييس اللغة ٢/ ٣٠٦-٣٠٧ وقد علّق عليها قائلاً (وهذا توسّع في التفسير).

١٦- ابن منظور- لسان العرب: ٤/ ٢٩٤.

١٧- الجوهري- تاج اللغة: ٢/ ٦٦٦، ٦٦١.

وليس يعدم من يديم النظر في الاستعمالات المجازية لمشتقات (الدهر) أن يكتشف ظلال معاني القوة والغلبة التي تحوطها، مثل : (الإتلاف، القذف، التفخيم، الدفع، الشدّة)، وهي معان ماكانت لتكون لولا أن للدهر في أذهان مستخدميه صلة قُربى بالقوة والجبروت، قال بذلك ابن فارس حين جعله اسماً مأخوذاً من الفعل بمعنى الغلبة. فإذا أردنا بعد هذا البسط اللغوي لمعاني الدهر أن نخلص إلى تحديد واضح له فعلينا أن نعقله بأعنة ثلاثة هي مجمل معانيه :

١- **الزمنية** : وهي خاصة بالمعنيين الأول والثاني.

٢- **القوة**: وتختص بالمعنى المجازي الأخير.

٣- **التأثير** : وتقترن هذه الصفة بمعظم المعاني تقريباً.

ثانياً- المعنى الديني:

يتحقق المعنى هاهنا بالنظر إلى الدهر داخلاً في تشكيل معتقد ما، أو منظوراً إليه من كوة دينية. وكلا الأمرين جدير بأن يثري فهم الأبعاد الدينية للدهر.

لقد نظر بعض عرب الجاهلية إلى متغيرات حياتهم على أنها ردود أفعال لقوى هي جزء من تفاصيل الحياة ذاتها، لم يجدوا آنئذ شيئاً أحق من الدهر ينسبون إليه قوى التغيير تلك، فاعتقدوا به محركاً لتفاصيل الحياة. ولكنهم لم يروا فيه القوة المقدسة أو الإلهية، بل القوّة الخالية من الحكمة أو التنظيم، والتي تفعل لمجرّد الفعل، ويُفهم ذلك مما جاء في (رسالة الغفران) عن عرب الجاهلية بأنه : «لم يُدَّع أن أحداً منهم كان يُقرِّب للأفلاك القرابين، ولايزعم أنها تعقل، وإنما ذلك شيء يتوارثه الأمم في زمان بعد زمان»[١٨]، ودليل ذلك كلّه ماأثر عن العرب من أنها اعتادت أن تنسب جلّ مايصيبها من نوازل وكروب إلى الدهر الفاعل والمدبّر والمتصرّف، فهو الذي يميت ويُهرم،

١٨- المعري، أبو العلاء- رسالة الغفران: ٤٢٠.

وبيده وحده مفاتح الليل والنهار . يقول الأحوص بن محمد الأنصاري معبِّراً عن فاعلية الدهر :

الدهرُ إن سرَّ لأقوام لـــه ... أحداثه تصدع الرأسي من العَلَم
يَستَنْزِلُ الطَّيرَ كرهاً من منازلها ... إلى المنيَّة والآساد في الأجـم
ويَسلُبُ الآمنَ المُغترَّ نعمتَـه ... ويُلحقُ الموتَ بالهيَّابة البَـرَم(١٩)
من يأمنُ الدهرَ أو يرجُو الخلودَ به ... بعدَ الذين مَضَوا في سالفِ الأُمَمِ(٢٠)

ويقول وضّاح اليمن معبراً عن تبرُّمه بسطوة الدهر وتصرفه :

يادهر ماإن تَزَالُ مُعترِضاً ... لأملٍ قبلَ مُنتهى الأمـلِ
تنـالُ كفَّكَ كلُّ مُسْـهلَةٍ ... وحُوت بحرٍ ومعقلَ الوعـلِ
لو كانَ مَنْ فرَّ منك مُنفلتاً ... ياموتُ أسرعتُ رحلةَ الجملِ(٢١)

وقد أكثروا من الشكوى منه لأن سلوكه لم يكن يوماً حكيماً أو منصفاً، يقول زُهَيرُ بن أبي سلمى :

يادهرُ قد أكثرتَ فجعتَنا ... بسراتنا، وقرعتَ في العَظـمِ
وسلبْتَنا مالســتَ مُعقِبَهُ ... يادهرُ ماأنصفتَ في الحكمِ(٢٢)

ويقول عمرو بن قَميئة في المعنى ذاته :

كَبِرتُ وفارقَني الأقربُون ... وأيقنَتِ النَّفس ألا خلُــودا
وبانَ الأحبَّةُ حتى فنَــوا ... ولم يَترُكِ الدّهرُ منهم عَميدا
فيا دهرُ قَدْكَ فأسجِحْ بنا ... فلَسْنا بصخرٍ ولسنا حديدا(٢٣)

وعندما هبط الوحي على النبي محمد صلى الله عليه وسلم،

١٩- وردت في النص: ويَلحقُ الموتُ. وأظنها كما أثبتُّها، لأن الشاعر يتحدث عن صروف الدهر، وينسب الأفعال إليه كما جاء في الأبيات الثلاثة الأولى.
٢٠- البحتري، أبو عبادة- الحماسة: ٩١ .
٢١- المصدر نفسه: ١٠٥
٢٢- ابن أبي سلمى، زهير - شعره: ٢٧٤ .
٢٣- البحتري- الحماسة: ١٠٥ .

وأخذت تباشير الدين الإسلامي تلوح في الأفق، بدا أن المعمورة كلها تتهيأ لتبدلات جذرية موشكة، وكان ذلك حقاً، فما إن ترسّخت أركان الإسلام حتى بدأت مفاهيم جديدة تسلك طريقها إلى الوعي الإنساني، لإعادة التوازن إلى العلاقات بين الإنسان وربه، ثم بينه وبين عالمه المحيط به من بشر وحيوان ومفردات حياتية، ثم بين الإنسان ونفسه. فكان لزاماً، والحال كذلك، أن تعود الأمور إلى نصابها، والأشياء إلى أحجامها الطبيعية، فنال الدهرَ مانال غيره من تبدّل، وماعاد المدبّرَ الفاعل؛ لأن ثمة مدبراً وفاعلاً وخالقاً للعالم وللدهر ضمناً، وماعاد ذلك الماردَ الأسطوري الذي تهابه النفوس، بل غدا مخلوقاً كغيره من المخلوقات، لايملك لنفسه ضراً ولانفعاً فضلاً عن أن يجلبهما لغيره[٢٤]. وقد سفّه القرآن الكريم مقال الجاهليين في الدهر: «وقالوا ماهي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ومايهلكنا إلا الدهر ومالهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون»[٢٥]. ومافتئت أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم تبسط ماانطوى في القرآن الكريم وتفصّل ماأوجز حتى قال عليه الصلاة والسلام في حديث قدسي: «قال الله عز وجل: يؤذيني ابن آدم، يسبّ الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلّب الليل والنهار»[٢٦]. وجاء أيضاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «لاتُسَمُّوا العنَبَ الكرمَ، ولاتقولوا: خيبة الدهر، فإن الله هو الدهر»[٢٧].

وقد أفاض كثيرون في شرح هذين الحديثين فجاء في (فتح الباري): «معناه يخاطبني من القول بما يتأذى من يجوز في حقّه التأذي، والله منزّه عن أن يصل إليه الأذى، وإنما هذا من التوسّع في الكلام. والمراد أن من وقع ذلك منه تعرّض لسخط الله»[٢٨]؛ لأن من يسب الدهر لايفعل ذلك إلا

٢٤- عن أثر الاعتقاد بأن الله هو خالق الزمان ينظر: مجموعة- فكرة الزمان عبر التاريخ: ١٨-١٩.

٢٥- الجاثية: ٢٤.

٢٦- البخاري- صحيح البخاري: ٤/ ١٨٢٥.

٢٧- المصدر نفسه: ٥/ ٢٢٨٦.

٢٨- العسقلاني، ابن حجر- فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ٨/ ٥٨٤-٥٨٥.

لاعتقاده بفاعليته. ولو افتُرِض أن الدهر هو الفاعل فذلك بقضاء الله وقدره، لأنه هو الذي منح القوّة على الفعل[٢٩]. و«قوله (وأنا الدهر)... معناه أن صاحب الدهر، ومدبّر الأمور التي ينسبونها إلى الدهر، فمن سب الدهر من أجل أنه فاعل هذه الأمور عاد سبّه إلى ربّه الذي هو فاعلها، وإنما الدهر زمانٌ جُعل ظرفاً لمواقع الأمور»[٣٠]. وقال ابن حجر مُجْملاً: «ومُحصّل ماقيل في تأويله ثلاثة أوجه: أحدها أن المراد بقوله: «إن الله هو الدهر) أي: المدبر للأمور. ثانيها أنه على حذف مضاف، أي صاحب الدهر. ثالثها: التقدير مُقَلِّب الدهر. ولذلك عقب بقوله: (بيدي الليل والنهار)»[٣١].

بيد أن هذه الأحاديث الشريفة بصياغاتها المختلفة جعلت للدهر كوّةً يلج من خلالها إلى العقائد؛ فقد استنتج بعضهم من عبارة: (فأنا الدهر) مايدل على أن الدهر قد يُعدُّ في الأسماء الحسنى[٣٢]. وقد ردّه صاحب (فتح الباري) فقال «زعم بعض من لاتحقيق له أن الدهر من أسماء الله، وهو غلط فإن الدهر مدّة زمان الدنيا، وعرفه بعضهم بأنه أمد مفعولات الله في الدنيا، أو فعله لما قبل الموت»[٣٣]. فما جاء من قوله (أنا الدهر) ماكان ليُقصد به على سبيل الماهية، بل على تقدير: إن ماتنسبونه إلى الدهر إنما أنا فاعله.

غير أن جماعةً هم الدَّهرية تمسّكوا بظاهر قوله في الحديث الشريف عن الله عزّ وجلّ (وأنا الدهر)، وبنوا عليه مقولاتهم التي تأخذ من مفهومات عرب الجاهلية بطرف، فأسندوا إلى الدهر ماكان قد أُسند إليه من فاعلية كالإفناء، وعمادهم في ذلك زعمُهم: «ألا تراه يقولُ [أي في

٢٩- الكفوي- الكليّات: ٤٤٦ والتهانوي- كشاف اصطلاحات الفنون: ٢/ ٢٧٥.
٣٠- العسقلاني، ابن حجر- فتح الباري: ٨/ ٥٧٥
٣١- المصدر نفسه: ٨/ ٥٦٥.
٣٢- الزبيدي- تاج العروس: ١١/ ٣٤٣-٣٤٤.
٣٣- العسقلاني، ابن حجر- فتح الباري: ١٠/ ٥٦٦.

الحديث] فإن الله هو الدهر»[٣٤]، يرمون إلى أن هذا دال على أن الدهر هو الإله، ولذلك قالوا بأزلية العالم وأنه غير مُحدَث، وليس للعالم نهاية لأنه كان ولم يزل وسيبقى[٣٥]. «فأنكروا الخالق والبعث والإعادة وقالوا بالطبع المحيي والدهر المفني»[٣٦]. «فالدهر بما يقتضيه مجبول من حيث الفطرة على ماهو عليه»[٣٧]. وقولهم بقدم الدهر هو مربط أعنّتهم الذي منه يغدون، وإليه يقبلون، وبه يتميّزون. وجاء (في فتح الباري) رداً عليهم «وقد تمسّك الجهلة من الدهرية والمعطّلة بظاهر هذا الحديث، واحتجوا به على من لارسوخ له في العلم، لأن الدهر عندهم حركات الفلك وأمد العالم، ولاشيء عندهم ولاصانع سواه، وكفى في الرد عليهم قوله في بقية الحديث: (أنا الدهر أقلّب الليل والنهار) فكيف يُقلَّب الشيء نفسه؟!»[٣٨].

وهكذا فإن الموقف من الدهر بعد الإسلام تفرّق بين ثلاث شعاب؛ شعبة تراه مخلوقاً كغيره من المخلوقات لاحول له ولاقوة إلا بسبب من الله، وشعبة ثانية تشاطر عرب الجاهلية آراءهم، وتنسب إلى الدهر الفاعلية والخلق دون الله، ولكنها تزيد عليهم في أنها خرجت بالأمر من إطار الوعي الساذج إلى محاولة البرهنة والاستدلال. وشعبة أخيرة تظنه اسماً من أسماء الله الحسنى، ويبدو من هذا التقسيم أن القضية التي اختُلف فيها إنما هي الفاعلية؛ فمن سلبه إياها رآه مخلوقاً، ومن ألصقها به جعله إلهاً.

ثالثاً- المعنى الفلسفي:

ليس المراد ها هنا البحث في الدهر بوصفه وقتاً، أو بوصفه قوّة، أو بوصفه ملمحاً لخبرتنا الإنسانية، بل النظر في ماهيته بما هو عليه، مستقلاً عن

٣٤- الأزهري- تهذيب اللغة: ٦/ ١٩١.
٣٥- ابن حزم- فصل في الملل والأهواء والنحل: ١/ ٤٧.
٣٦- الشهر ستاني- الملل والنحل: ٢/ ٢٣٥.
٣٧- ابن حزم- الفصل في الملل: ١/ ٤٧ (الحاشية).
٣٨- العسقلاني، ابن حجر- فتح الباري: ١٠/ ٥٦٦

أي علاقة مع ماهو خارج عنه، زائد على معناه، فهو غير الزمان الفلكي، و«جوهر افتراقهما يكمن في كون ماسمّي (بالزمن الفلسفي) نظراً في الزمن، و(الزمن الفلكي) هو الزمن ذاته. وعلى هذا فإن أبعاد الزمن الفلسفي غير محددة بالوجود المادي، على العكس من الزمن الفلكي الذي هو سجل طويل يمتد إلى أعماق سحيقة في الوجود المكتشف فقط»[٣٩].
ولكي تتضح ملامح هذا المعنى لابد من إجراء مقارنات بين الدهر وبعض مظاهر الزمان التي يُظن اشتراكها معه في المعنى كالزمان والسرمد والأبد والآن.

جاء في (المعجم الفلسفي): «الفرق بين الزمان والدهر والسرمد أن نسبة المتغيّر إلى المتغيّر هي الزمان، ونسبة الثابت إلى المتغيّر هي الدهر، ونسبة الثابت إلى الثابت هي السرمد»[٤٠]. بيان ذلك أن محل الزمان المتغيّرات؛ فإن أنت ضربت موعداً لرؤية أحدهم في الساعة العاشرة، إنما تنسب المتغيّر (الرؤية) إلى المتغيّر (الساعة- الوقت). يُفهم ذلك مما جاء في (التعريفات) «الزمان. . . . عبارة عن متجدّد معلوم يُقدّر به متجدّدٌ آخر موهوم، كما يقال: آتيك عند طلوع الشمس، فإن طلوع الشمس معلوم ومجيئه موهوم، فإذا قرن ذلك الموهوم بذلك المعلوم زال الإيهام»[٤١]. وجاء في (مفاتيح العلوم): «الزمان: مدّة تعدها الحركة مثل حركة الأفلاك وغيرها من المتحركات»[٤٢]. أما الدهر فمحله بين الثابت والمتغير، كأن تنظر إلى الله عز وجل من واقع زمانك المعيش، فتكون قد نسبت الثابت (الله) إلى المتغيّر (الزمان+أنت). يُفهم ذلك مما جاء في (التعريفات) «الدهر: هو الآن الدائم الذي هو امتداد الحضرة الإلهية، وهو باطن الزمان»[٤٣]. والسرمد محلّه

٣٩- المطلبي، مالك يوسف- الزمن واللغة: ١١
٤٠- صليبا، جميل- المعجم الفلسفي: ٦٣٦/١.
٤١- الجرجاني، علي بن محمد- التعريفات: ١٢٩.
٤٢- الخوارزمي، محمد بن أحمد- مفاتيح العلوم: ١٦٥.
٤٣- الجرجاني، علي بن محمد- التعريفات: ١١٧

الثبات، فالحضرة الإلهية في عين ذاتها إنما هي في السرمد، وهذا هو معنى نسبة ثابت إلى ثابت، والسرمدية لاتجوز إلا على الله عز وجل. وجاء في (التعريفات) أن السرمدي «مالاأول له ولاآخر»[٤٤]. والأبد هو «استمرار الوجود في أزمنة مُقَدّرة غير متناهية في جانب المستقبل»[٤٥]. أي: هو امتداد زمني بلا نهاية في المستقبل. والأزل هو «استمرار الوجود في أزمنة مقدرة غير متناهية في جانب الماضي»[٤٦]، أي أنه امتداد زمني بلا نهاية في الماضي. أما الآن فـ«ليس ممكناً أن يوجد لا . . . مع الزمان الماضي، ولامع المستقبل، فهو، ضرورة، بعد الماضي وقبل المستقبل»[٤٧].

رابعاً– المعنى الشعري:

تكاد معاني الدهر التي سيقت تنحصر في اتجاهات ثلاثة، فهي بين ناسبٍ للدهر كماً من زمان، وقارنٍ به شيئاً من قداسة، وآخر مجردٍ منه مالصق به مما هو زائد عن قدره. ولكن لامناص من الاعتراف بقدر من الاشتراك شاع بين هذه المعاني كلها. . ذاك هو الفاعلية؛ فهو إن نُسب إلى الزمان ظُنّ به التغيير الذي يحدثه، وإن نُسب إلى الألوهية ظُنّ به التصرف والتدبر والإهلاك، وإن جُرِّد من ذلك عُرِج به إلى الاستخدامات الفعلية التي لاتكاد تخرجه عن معنى الفاعلية، كالنازلة تنزل بالقوم، أو الغلبة، أو القهر، وماسوى ذلك مما مرّ ذكره. وهو بهذا المعنى خارج عن الزمان الكمي المجرَّد من جهة، ولكنه داخل فيه من حيث هو مَطيّة للولوج في علاقة مع المفردات الحياتية للإنسان، ولكنها علاقة من خارج الإنسان لامن داخله. وهذا التفريق ضروري، لأنه يدل على أنه بخلاف الزمان الوجودي كما أسماه جميل صليبا، فـ«الزمان الوجودي: هو الزمان الذاتي، أو الزمان

٤٤– المصدر نفسه: ١٣٤

٤٥– المصدر نفسه: ٢٥ وينظر: وهبة، مراد– المعجم الفلسفي: ١

٤٦– المصدر نفسه: ٣٤ وينظر: وهبة، مراد– المعجم الفلسفي: ١٨

٤٧– صليبا، جميل– المعجم الفلسفي: ١/ ٦٣٨.

الوجداني المصبوغ بالانفعال؛ كزمان الانتظار أو زمان الأمل»[٤٨]؛ فالزمان الوجودي علاقته بالإنسان من داخله، من ملامح نفسيّته، ولذلك هو مُغرق في الذاتية، لأنه مرهون بالخبرة الإنسانية، وهذه الخبرة لاتُكمِّن من قياس الزمان بموضوعية؛ لأن الإحساس به مرهون بالحالة النفسية للفرد، فقد شعر به بطيئاً ثقيلاً في حالات يأسه وحزنه، وقد يشعر به سريعاً في حالات فرحه[٤٩]. وقد سبق أن فرّق صليبا بين الزمان الوجودي ومأسماه بالزمان الفاعل، ولكنه نظر إلى الأخير على أنه «الذي يُطلق على التأثير في الأشياء فهو موضوعي وكمّي وقابل للقياس»[٥٠]، غير أنه جمع في هذا التعريف بين مفهومين مختلفين للزمان، الأول بوصفه فاعلاً، والآخر بوصفه وقتاً مقدّراً، وهذا يخالف مااتفقت عليه المعاني السابقة من معنى الفاعلية الصرف الذي تُلصقه بالدهر مجرداً من القياس الكمّي.

وقد مرّ سابقاً أن العرب اعتادت أن تنسب إلى الدهر من الفاعلية ماحفر معلماً بارزاً في مجمل شعرها، إن لم يكن في كله، فصحّ بذلك أن يُطلق على هذا المعنى من الدهر اسم: المعنى الشعري. وقد أثاره غير واحد من قبل، فقد جاء في (دائرة المعارف الإسلامية) مايلي: «لو نظرنا في جملة النصوص المأثورة عن العرب الجاهليين لوجدنا أن فكرة الدهر كانت قديمة عندهم، وهي عند الشعراء مفهوم شعري يستعينون به في الدلالة على مجرى الحوادث الكونية وتصرّف الأقدار، ولكن الكلمة لم تكن تدل على قوة شخصية، بل على قوة غير شخصية تتصرّف في الأشياء وفي الناس»[٥١].

وفي الأطروحة التي تقدّم بها صلاح عبد الحافظ عن الشعر الجاهلي

٤٨- صليبا، جميل- المعجم الفلسفي: ٦٣٨/١.
٤٩- ميرهوف، هانز- الزمن في الأدب: ١٠-١١، ١٨-٢٠.
٥٠- صليبا، جميل- المعجم الفلسفي: ٦٣٨/١.
٥١- مجموعة- دائرة المعارف الإسلامية: ١٠-٣٩٠.

ثمة تمييز بين ثلاثة أنواع للزمان، منها: الزمان الدهري، وهو عنده« كل ماتناول العلاقة بين الشاعر وبين الدهر أو القدر أو الموت أو المصير أو البقاء أو الفناء، أي كل مافرض على الشاعر من قبل ذلك الكون الذي يحتويه بالإضافة إلى عنصر المكان»[٥٢]. بيد أن الزمان الدهري بهذا المعنى يبدو مُحمَّلاً بمعان ينوء بها كاهله، وهي معانٍ لاتمتّ إلى الدهر بصلة لامن قريب ولامن بعيد؛ فالموت غير الدهر وغير القدر وغير الفناء وغير المكان. وحُقّ لكل منها أن يستقل بتأثيره الخاص، ولايجوز بحال من الأحوال أن تصهر جميعها في بوتقة الدهر، وإلاأصبح دهراً ليس كالأدهر.

وعلى هذا يكون المعنى الشعري للدهر هو: النظر إليه قوةً زمنيةً ضاغطة، من أهم سماتها الفاعلية والتغيير. وقد أشارت إلى شيء من ذلك دائرة المعارف الإسلامية من خلال ربطها بين الدهر واعتقاد الشعراء بقوة ما تُسيِّر الأشياء، وتحكم الإنسان»[٥٣]. هذه القوة لها حضور متجذر في تاريخ الخبرة الإنسانية، حضور يمكِّن من نفسه بسهولة ويُسر بمجرد إلقاء نظرة متمهِّلة إلى الأطر العامة لعلاقة الإنسان بالدهر- القوة. وإنَّ نظرة كتلك ستدفع إلى الاعتراف بأن تشكيل هذه العلاقة مافتئ يفرض نفسه على مجمل الإنتاج الأدبي العربي، والشعري خاصةً.

٥٢- عبد الحافظ، صلاح- الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي وشعره: (و).

٥٣- مجموعة- دائرة المعارف الإسلامية: ١٠/ ٣٩٠-٣٩١.

المصادر والمراجع

١- ابن أبي سلمى، زهير- **شعر زهير**، صنعة الأعلم الشنتري، تحقيق: فخر الدين قباوة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٠.

٢- الأزهري، محمد بن أحمد- **تهذيب اللغة**:

-ج٦ تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي ومحمد فرج العقدة، مراجعة: علي محمد البجاوي.

-ج١٣ تحقيق: أحمد عبد العليم البردوني، مراجعة: علي محمد البجاوي.

الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٤-١٩٦٧، ١٥جزءاً.

٣- البحتري، أبو عبادة- **الحماسة**، تحقيق: لويس شيخو، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٧.

٤- البخاري، أبو عبد الله- **صحيح البخاري**، تحقيق: مصطفى ديب البغا، مطبعة الهندي، بيروت ١٩٨٠-١٩٨١، ٧ أجزاء.

٥- التهانوي، محمد علي- **كشاف اصطلاحات الفنون**، تحقيق: لطفي عبد البديع، ترجم النصوص الفارسية: عبد النعيم محمد حسنين، مراجعة: أمين الخولي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٢، الجزءان ٢، ٣.

٦- الجرجاني، علي بن محمد- **كتاب التعريفات**، تحقيق: عبد المنعم الحفني، دار الرشاد، القاهرة، ١٩٩١.

٧- الجوهري، اسماعيل بن حماد- **تاج اللغة وصحاح العربية**، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار الكتاب العربي، مصر١٩٥٧، ٦أجزاء.

٨- ابن حزم، أبو محمد- **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، تحقيق: محمد ابراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٥، ٥أجزاء.

٩- الخوارزمي، محمد بن أحمد- **مفاتيح العلوم**، تحقيق: نهى النجار، دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٩٣.

١٠- ابن رشد، أبو الوليد- **تهافت التهافت**، تحقيق: سليمان دنيا، دار المعارف، القاهرة، د.ت، جزآن.

١١- الزبيدي، محمد مرتضى- **تاج العروس من جواهر القاموس**، تحقيق: عبد الكريم العزباوي، مراجعة: عبد الستار فراج، مطبعة حكومة الكويت، ج١١، ١٩٧٢.

١٢- ابن سيده، أبو الحسن علي- **المخصّص**، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٨، ٥أجزاء.

١٣- الشهرستاني، أبو الفتح محمد- **الملل والنحل**، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، ١٩٦١، جزآن.

١٤- صليبا، جميل- **المعجم الفلسفي**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢، جزآن.
١٥- عبد الحافظ، صلاح- **الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي وشعره**، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣، جزآن.
١٦- العسقلاني، ابن حجر- **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، تحقيق: عبد العزيز بن باز، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه:
محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٥، ١٣جزءاً.
١٧- ابن فارس، أبو الحسين أحمد- **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، د.م، ١٩٧٩، ٦أجزاء.
١٨- الكفوي، أبو البقاء أيوب- **الكلّيات**، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٢.
١٩- مجموعة- **فكرة الزمان عبر التاريخ**، ترجمة: فؤاد كامل، مراجعة: شوقي جلال، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٢.
٢٠- المطلبي، مالك يوسف- **الزمن واللغة**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦.
٢١- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين- **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، د.ت، ١٥جزءاً.
٢٢- ميرهوف، هانز- **الزمن في الأدب**، ترجمة: أسعد رزوق، مراجعة: العوضي الوكيل، مؤسسة سجل العرب بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة- نيويورك، ١٩٧٢.
٢٣- وهبة، مراد- **المعجم الفلسفي**، دار الثقافة الجديدة، د.م، ١٩٧٩.
• **دائرة المعارف الإسلامية**، يصدرها بالعربية أحمد الشنتناوي وزملاؤه، مراجعة: محمد مهدي علام، دار المعرفة، بيروت، ١٩٣٣.

مرثية مالك بن الرَّيب بين واقعية الحدث، وجماليات الرؤية

د. شريف بشير احمد

تتحسَّس الذات الشاعرة في (المرثية) فناء الكائن، وبقاء الكلمة بوصفها عنصراً من عناصر التواصل الذهني، وتتمثل الوجود الواقعي الذي بدأ يفقد آنيّاً مقوماته المادية في الحركة؛ وترغب في الوجود المعنوي الذي يمتلك حضوراً واعياً في الشعر بفضاء نفسيٍّ ينفتح على الآخر؛ يُوجِهه

* د. شريف بشير أحمد: باحث من القطر اليمني الشقيق، دكتوراه في الأدب العربي، يدرس في جامعات اليمن، له اسهامات عدة في الحركة الأدبية العربية.

الشعور المهدد بالغياب القسري مع الاحساس بالفعل، والتآلف مع الجماعة تآلفاً تشعر معه الذات بماهيتها الانسانية في دورة زمنية تنتهي فلكياً، ودلالة فكرية تمتدُّ صياغة جمالية تتشكل لغوياً في لحظة المكاشفة والتجربة التي تتضاءل فيها نسوغ الحياة.

ويشكل الحدث الواقعي المتن الحكائي للنص؛ وحافزاً موضوعياً له علاقة ضرورية بالمبنى الحكائي، وله وظيفة تأثيرية تتناغم مع البناء اللغوي، وتحتوي عناصر ثابتة، وعناصر متغيرة تكون فاتحة النص بجملة شعرية تُعدُّ وحدة بنائية، ودلالية حية:

١- ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بجنب الغضا أزجي القلاص النواجيا

يبدأ النصُّ بأمنية تستولي على ذهن الشاعر، وترتبط بالمكان الذي تنطلق منه الأحداث في لحظة تحتفظ بها الذاكرة، وتجاوزها الزمن نحو المستقبل الذي يؤكد حتمية المصير. اذ مازال الشاعر يحسُّ بعلاقته الحية مع المكان بعد أن صار الرحيل قدراً حتمياً يُلاحقه، ويُسيطر على نصه، حيث ينفصل الحيُّ عن الحياة، ويؤول الانسان/ الشاعر للموت. والمبيت في (وادي الغضا) حلم ذهني له حضور في زمن يمتد طويلاً بين ماضٍ منقض، وآتٍ مجهول. اذ كثَّف الشاعر رغبته باستفهام نستشفُّ من معانيه التمني، والرجاء الحزين الذي يُمارس على القارىء تأثيراً مماثلاً لمظهر الحقيقة الشعرية التي تؤرّق الشاعر بعد أن أدرك أن أمنيته تخلق في نفسه توحُّداً آنياً بين العالم الخارجي والعالم الداخلي.

٢- فليت الغضا لم يقطع الرّكبُ عرضَهُ وليت الغضا ماشى الرّكاب لياليا!!

ويحاول الشاعر أن يبني وجوداً خارجياً لعالم الموجودات الذهنية، ويحاول أن يربط ويوحد بين الذات والموضوع من خلال أمنية ثانية تحمل في ثناياها لوم الشاعر لنفسه بنبرات خفيفة تحتقبُ حزناً تراكمياً يتمنّى فيه، تخلُّصاً منه، لو لم يقطع الركب الراحل واديه؛ ولم يخرج به منه في سياقٍ تعاضد فيه العنصر الزمني مع العنصر المكاني؛ وإن كان تشخيص المكان

لايجعل بداهة حدثه محتمل الوقوع؛ وهنا تظهر الدلالة الاجتماعية للمكان ــ وادي الغضا؛ لأن الفراق ومسير الركب يُعادل الألم والتشتت والضياع؛ ويتوازن البقاء مع الحياة والوجود والأمل، اذ يعتمد سرد الحدث على العلاقات التي تكونت تكوناً تآلفياً تتقابل فيه قيمة الشخصية مع قيمة الحدث بعد أن تأجج الخيال الشعري فأطلق أمنية ثالثة لها دلالتان تتداخل إحداهما مع الأخرى: الدلالة الأولى ذهنية- نفسية بحركة وهمية تتمثل بمماشاة الغضا للركاب مماشاة تشعر معها الذات بكينونتها؛ والدلالة الثانية اجتماعية- سلوكية تآلفت فيها الذات الواعية مع المكان تآلفاً يصعب معه التفرق، والبعد القسري.

٣- لقد كان في وادي الغضا- لودناالغضا- مزار، ولكن الغضا ليس دانيا

واستخدام (كان) يبرز دور العقل في السيطرة على العاطفة المتدفقة، ويوجه التراكمات الايحائية نحو الزمن الماضي الذي فقد وجوده في الزمن الحاضر، وقبعت آثاره في الذاكرة بوصفها حدثاً منقضياً تجسده الجملة الاعتراضية (لودنا الغضا) بأمشاج نفسية مهتاجة فيها من الأمل الضائع مايجعل الشاعر يتصاغر أمام الحدث رغبة في المكان حتى تأتي الصدمة الشعورية، والحقيقةالواقعية المؤلمة (ولكن الغضا ليس دانيا) حاملة بين دلالاتها سوداوية قاتمة. ونستخلص من الأبيات الثلاثة ماهو آت:

- الغربة المكانية التي سكنت في قلب الشاعر، والتي عُدت مؤثراً موضوعياً أسهم في تكوين النص، وشكل تجربة شعرية تختلج بها الذات في لحظة الاحساس بواقعية الحدث من خلال الارتباط العاطفي والشعوري بالمكان ــ الأرض ــ وادي الغضا ــ الوطن الذي أصبح فكرة مقدسة يهيم بها عقل شرود.

- الأمنيات المتتابعة التي بثت في تداعيات الذاكرة قطيعة حقيقية تلاشت بها رؤية الحياة الحالمة أمام الموت المنتظر؛ وكأن الأمنية توافقٌ ومصالحة بين الوجود والفناء حفاظاً على الموجود من الغياب.

– تكرار (الغضا) ست مرات يدل على زمنين يناقض أحدهما الآخر ويتلوه تعاقبياً؛ الزمن الأول زمن حضانة المكان للشاعر الانسان وهو زمن اللقاء النفسي والاجتماعي؛ والزمن الثاني زمن الانفصال الجبري، والمفارقة غير المرغوب فيها التي غادر بها الشاعر فضاءه الممتلىء حركة ونشاطاً وذكريات.

٤– ألم ترني بعت الضلالة بالهدى وأصبحت في جيش ابن عفان غازيا

٥– فلله درّي يوم أترك طائعاً بني بأعلى الرقمتين وماليا

٦– ودر كبيريٍّ اللذين كلاهما عليٌّ شفيقٌ ناصح لو دعانيا

٧– ودرُّ الظباء السانحات عشية يُخبِّرن – أني هالكٌ – من ورائيا

يتمحور السَّرد في هذه الأبيات حول فاعلية (الأنا)، وحركتها الدؤوبة في زمن تنفصل فيه الذات عن الحدث السابق؛ وتنسج فيه حدثاً واقعياً بديلاً عن الغربة، والهجرة؛ يكون الفعل الناشط به فعلاً يرسم من خلاله الشاعر صورته الحقيقية؛ وتتحول الفكرة فيه من فكرة عاطفية– نفسية الى فكرة ذهبية ترتبط بالشخصية الناضجة التي تخلق نموذجاً حوارياً توجه اليه الخطاب حيث يقدم لنا الشاعر صفحة مشرقة من صفحات حياته التي أصبح فيها مقاتلاً في جيش سعيد بن عثمان بن عفان المتوجه بعساكره الى خُراسان بأمر من الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان في سنة ست وخمسين للهجرة؛ اذ نقلنا الشاعر ونفسه نقلة ضدية من عالم اللصوصية الى عالم الجهاد في سبيل الله؛ ذاكراً لنا طورين متعاقبين متناقضين من حياته: الضلالة مصحوبة بالتشرد والضياع والهداية مصحوبة بالخير وممزوجة بالاطمئنان الروحي والنفسي؛ اذ شبه تحوله من الضلالة الى الهداية بالتجارة والمقايضة السلعية المادية التي تباع وتُشترى؛ ولكنه حذف المشبه به، وأبقى قرينة تدل عليه، وهي الفعل (بعت) على سبيل الاستعارة المكنية، مع أن تجارته معنوية، وربحه فيها روحيٌّ ونفسيٌّ ودينيٌّ. وقد استخدم الشاعر الطباق بين (الضلالة) و (الهدى) ليمنح رؤيته حساً عقائدياً مؤثراً؛ حتى تعد

صحبته لسعيد بن عثمان بن عفان تحولاً جوهرياً في حياته، ومسلكاً يغاير ما ألفته نفسه. ولكن الفعل (أترك) يدعُ مجالاً للترقب والتوقع، ويقي من خطر واهم في اللحظة التي يقيم الشاعر بالفعل (أصبحت) صلة مع العالم الخارجي، لأن ماحوله بدأ يوحي بخشية غامضة، وينطوي على خطر فعلي، وطاقة تتغير، ولاتنفك عن الحراك. وبذلك تقع جملة (أني هالكٌ) في سياق التكهن المعقول، والمقبول، بالمستقبل؛ والمقدرة التي يستنبط بها الشاعر الأحداث المستقبلية انطلاقاً من القوى والهواجس التي تعتمل في أعماقه؛ بعد أن أيدت الوقائع تكهناته حين أدرك الموت حقيقة وجودية كائنة؛ إذ فهم فهماً عميقاً هشاشة وجوده الانساني، وعلم أن الخلود مستحيل، وأن الموت يرصده. وتظهر في الفعل (يُخبرن) دلالة اعلامية أو اخبارية ذهنية يسعى بها الشاعر الى جلاء الغموض الآتي؛ وبذلك ترتفع الظباء من المستوى الحيواني الى المستوى الانساني؛ وتتحرر من صورتها الحيوانية، وتكتسب ملامح انسانية.

وتشكيل المكان (الرقمتين ـــ الغضا ـــ نجدا) نتيجة حتمية لطبيعة تشكيل الزمان حيث تجتمع إيحائية الزمان والمكان، وتستقي مقوماتها من الخروج عن الصمت القهري في ممارسة تتمحور حول الذات المختلفة بنشاطها المخبوء في الذاكرة، والمنتشية بأناها التي تكبتها الغربة، والتي تبرز التناقض بين سلوكيات تنتمي الى الماضي والحاضر.

والتجانس الصوتي بين الوحدات المعجمية (درّي ـــ ودرّ كبيري ـــ ودرّ الظباء) الذي يحتوي وحدات صوتية متواترة؛ يخلق توازناً إيقاعياً بالتردد النمطي، ويُسهل الأداء الانشادي، ويوحي بالتوتر الداخلي.

٨- تذكرت من يبكي عليَّ فلم أجد   سوى السَّيف والرمح الرديني باكيا
٩- وأشقر خنذيذ يجرُّ عنانه   الى الماء لم يترك له الدهر ساقيا
١٠- ولكن في ظهر السُّمينة   نسوة عزيز عليهن العشية ما بيا
١١- صريعٌ على أيدي الرجال بقفرة   يسوون رحلي حيث حُمَّ قضائيا

أدرك الشاعر أنه في مواجهة مع المجهول الذي يهدد وجوده، وهو يرغب في ديمومة حركته. وفي اللحظة التي بدأ يفقد فيها مقومات الحياة؛ يشحن نفسه وغيره بنشاط له جذور قابعة في الذاكرة؛ فيقفز الفعل (تذكرت) الى المكاشفة بين عالمين يحتدمان في ذات يُغذيها الاحساس بالفناء. وتنثال بفعل التذكر شرائط تتناثر فوق لوحة الواقع، والمكان، والصفة؛ وكأنه براثن الفناء بدأت تنهش في الجسد؛ اذ يرتبط الفعل (تذكرت) بالذات الشاعرة التي تتوزعها بؤر لها مرجعيات انسانية وسلوكية لها اشارة مفهومية، وشعورية.

ويحتفي الشاعر بحصانه حفاوة تظهر بها الآصرة النفسية بينهما؛ فأكد على الدلالة اللونية (أشقر)، والقدرة الجنسية (خنذيذ: الفحل من جياد الخيل). وجعل الماء بؤرة يرجو بها، ومن خلالها، الحياة والخصب. والحقيقة الواقعية لاتفترض ساقياً للجواد الطليق الذي أُرخي عنانه؛ فلاممسك له؛ وكأن الحصان في هذه اللحظة هو البديل الموضوعي للشاعر الذي فقد قدرته على الحركة، ويحتاج الى منقذ؛ وكأن الشاعر يتخفى وراء حصانه حتى يُعلن في أثناء المكاشفة المكتومة عطشه، وضعفه. ووجود العنان يُحيل الى الفارس احالة تفاعلية- تواصلية؛ مما يجعل دلالة الجملة الفعلية (لم يترك له الدهر ساقيا) تتمثل فيها بوادر الغياب القسري للفارس حيث يكون الدهر قوة قهرية.

ويشكل (السيف، والرمح، والحصان) مثلثاً دلالياً تتكامل فيه الأضلاع، وتتمحور حول الشخصية التي لها فاعلية التوفيق، ومنح الرموز قيمة تعبيرية تتحول بها من التزيين الى التأثير في الأشياء خارج الذات. وتُعد مكونات المثلث من متممات الفروسية، ولوازم الفارس. وكأن الشاعر يُصرح بفروسية بدأت تخبو بفعل البكاء المجازي الذي تتراكم به آلام الآخر وهو ينظر غياب المؤثر.

ويؤدي الاستدراك الفجائي المقصود في (ولكن) وظيفة توجيهية نحو عنصر ايجابي يبكي بكاء حقيقياً- واقعياً، ويوازي المدلول السلبي للفعل

(لم أجد)؛ ويتفوق عليه في التبئير الشعوري بمرجعية المكان التي لها جذور قابعة في الذاكرة (السُّمينة ـــ الرقمتين ـــ الغضا ـــ نجد). وزمن الحدث المرتقب آنياً مرقون بالعشية اشارة بيانية الى الزوال المتجدد للشمس والوجود؛ والزوال الأبدي - النهائي للذات الشاعرة بالوصف الحالي (صريع) الذي نقتفي به خاتمة المواجهة مع (القضاء). ويُصبح التشكيل الجسدي في الوحدة المعجمية- الدلالية (صريعٌ) جواباً دائرياً لسؤال لم تظهر من قبل ملامحه في شبه الجملة (ما بيا)، وكأن مسائلاً يسأل صراحة. (مابك)؟ فيأتي الجواب: (صريعٌ على أيدي الرجال بقفرة).

واذا كانت (السُّمينة) موضعاً له أبعاده، وحدوده؛ فإن (القفرة) فضاء مفتوح تضيع فيه ملامح المكان كما ضاعت ملامح الشاعر الصريع/ ويصبح الماء المعادل الموضوعي للحياة، والخصب؛ وتكون (القفرة) البديل الواقعي للموت، والضياع.

وقد خلق التلون في المقطع الشعري ايقاعاً تتغاير فيه النبرات، والسكنات بوساطة المناورة الجملية بالأفعال، والمغايرة في الشخوص مغايرة ضدية في الوظيفة؛ اذ كانت وظيفة السيف والرمح القتل، وأصبحت البكاء المجازي. وأمستْ وظيفة النسوة البكاء الأدائي، ووظيفة الرجال في (القفرة) الدفن الآتي/ المستقبلي بدلالة الفعل (يُسوون) تمهيداً للمشهد الجنائزي الأخير القابع في الجملة (حُمَّ قضائيا: قُضِي وقُدِّر). وبذلك تنوعت في المشهد بؤر السرد بالمناورة بالضمائر، ومتعلقاتها النحوية، وبالتلاعب القصدي بأداة التعريف لخلق موازنة دلالية- سياقية بين النكرة (نسوة)؛ وبين المعرفة (الرجال).

وتتضاءل المسافة الرؤيوية بين الفعل (تذكرت)، والفعل (حُمَّ) أمام الحدث الحقيقي للوحدة الدلالية (صريع . . . بقفرة) بحثاً عن الخلاص الذهني من التناقض بين الماضي والحاضر بعد أن حاول الشاعر تأطير شخصيته الواقعية بلوازمها البدوية- القتالية (السيف+ الرمح+الجواد) حتى تتكامل ذهنياً فتتخيلها شخصية نموذجية واعية.

١٢- فلما تدانت عند مرو منيتي وخلّ بها جسمي وحانت وفاتيا

١٣- أقول لأصحابي ارفعوني فإنني يطيب لعيني أن سهيلٌ بدا ليا

١٤- فياصاحبي رحلي دنا الموت فانزلا برابيةٍ إني مقيمٌ لياليا

في هذا المشهد تتحول بؤرة السرد من التداعي الحرّ، والاسترجاع الماضوي بفعل التذكر الآني (تذكرت)؛ الى الواقع المأساوي، والموقف الجنائزي الذي يرسم فيها الشاعر لنفسه صورة ناطقة بالأم، وهو يفارق الوجود، ويفقد ذاته، ويلفظ أنفاسه بمعاناة فردية يجلب لها مشاركين وجدانيين بعد أن تضاءل نشاط الذاكرة، وأخذ الوصف وظيفته في تشكيل الحدث؛ وتحولت علاقة الشاعر بالمكان من علاقة تآلف، ووفاق؛ الى علاقة اغتراب، وخصومة لايملك فيها ارادة على التغيير؛ لأن من خاصمه الموت يعجز عن الخلاص منه، ويستسلم لقوة جبرية- قسرية. لذلك شكّل الفعلان (تدانت، ودنا) قوة ضغط نفسيٍّ وسلوكيٍّ أنطقت كوامن العقل بجملة ختامية قاتمة: (إني مقيمٌ لياليا).

وكان (وادي الغضا) ماضياً مشرقاً؛ وأصبحت (مرو) حاضراً كئيباً تتقابل معه ضدياً في الوظيفة، والدلالة، والوصف. وتتعارض الأفعال فيهما، وبينهما؛ تعارضاً حاداً يلتقيان فيه في نقطة يتمثلها الشاعر نفسه في المكانين معاً.

ويُحيل الفعل (تدانت) القارىء الى تقاصر في الزمن، وتقارب في الحدث، والصفة؛ إحالة تحتقب مشاركة شعورية ترغب في نفيه، وطرده، وترفض أن تتفاعل معه وجدانياً؛ لأن رغبة الحياة عند الشاعر، أعمق وأشمل من رغبة الموت.

ونشعر مع الفعل (خلّ) كأن ثقوباً جسدية تمتلىء بسكرات الموت، ودبيب النهاية الموقوتة؛ وكأن هجوماً بكتيرياً يقضمُ أكسير الحياة؛ فلجأ الشاعر، متأثراً بوطأة الموت، الى الترادف اللغوي بين وحدات دلالية يتحول بها الحدث من فكرة في الذهن الى واقع، مثل (المنية، الوفاة، الموت ـــ القدر المحتوم) من خلال سلسلة من تراكمات الفناء الجسدي.

ويبدو أن المخاطب في لحظات القوة المادية، والمعنوية، فردٌ من خلال الجملة الفعلية (ألم ترني ـــ أنت)، وأصبح في لحظات الضعف جماعة؛ اذ بدأ الشاعر يخاطب (أصحابه) بصيغة الجمع، وأظنه أجمل فيهم سيفه، ورمحه، وجواده، وضمّهم الى صحبه، ورفاقه العقلاء؛ لأن عقله الباطن مازال يفرز صوراً متضايفة برموز حية. وبعد أن أدرك أنّ مابه يستوجب عقلاء؛ خاطب (صاحبي رحله)، لأن العقل الواعي أنذره بالموت، فأظهره بصورة شعرية تموج بالفناء، وتعجُّ بالتلاشي (إني مقيمٌ لياليا) كناية عن القبر الذي يضمه جثة هامدة.

وشخصية المروي له في النصّ تتغير، وتتنوع، قياساً على وظيفة السرد، ووجهة نظر السارد في الحدث؛ لذلك كانت وظيفة المروي له (الشخصي) أن يسمع المتن الحكائي، ويستمتع به، وتتخلله الدهشة، والمفاجأة؛ ووظيفة المخاطب (الجماعة) تحديد أبعاد الحدث، وتوجيه الفكرة نحو بؤرة السرد المركزية ـــ الموت، وصراع الوجود والغياب؛ فضلاً عن التمهيد الذهني للمشاركة في الحدث من غير نفور، بل برؤية وجدانية-انسانية. أمّا الوظيفة الواقعية في المشهد الجنائزي؛ فينهض بها صاحبان يُشكلان ثنائياً حقيقياً في ثنايا جماعة لاتمتلك مواصفات واضحة المعالم؛ وبذلك تتكامل الشخصيات في التبئير، ويحتوي (الأصحاب)الفرد، والشخصين، حتى تترابط دائرة المضمون، وتتشابك رؤى الجماعة في الفعل (ارفعوني) بصيغة الأمر المجازي الذي يمثل رغبة أخيرة في العلو المعنوي تتقاطع دلالياً مع الفعل (انزلا)؛ فكأن الرفع آنيٌّ، والنزول أبدي.

ويهيمن على المشهد ضمير المتكلم في السرد معادلاً نفسياً وموضوعياً للذات الكليمة التي تنظر الأشياء نظرة وداع حيث ظهرت وظيفة الرؤية البصرية في ملاحظة العالم الموضوعي بالعين الباصرة التي يريد الشاعر بها أن يحتفظ بمنظر يمتلك رمزاً تأملياً- تأويلياً يكمن في نجم (سُهيل)، وكأن

الوعي الشعري يتجسد بالعلو المعنوي، وكأن الخير مقرونٌ بالسماء دائماً؛ لذلك رغب الشاعر في أن ينزل به (صاحباه) برابية ترتفع عن الأرض البسيطة متناسياً أو متجاوزاً تلك (القفرة) التي تستوي، ولاتتميز عمّا سواها مما يحيط بها.

١٥ - أقيما عليَّ اليوم أو بعض ليلة   ولاتَعجلاني قد تبين ما بيا
١٦ - وقوما اذا مااستُلَّ روحي فهيئا   لي السدر والأكفان ثم ابكيا نيا
١٧ - وخُطّا بأطراف الأسنة مضجعي   وردّا على عينيَّ فضل ردائيا
١٨ - ولاتحسُداني بارك الله فيكما   من الأرض ذات العرض أن توسعاليا
١٩ - خذاني فجرّاني ببردي إليكما   فقد كنت قبل اليوم صعباً قياديا

يحتوي المقطع وصية الشاعر الأخيرة لصاحبيه اللذين يشهدانه قبل الموت. ولاتسلك تلك الوصية مسلكاً عقائدياً؛ بل تنهج نهجاً رؤيوياً يبوح به الشاعر برغبته في طقوس خاصة به يمارسها صاحباه في أثناء دفنه المفترض، بتوجيههما توجيهاً معنوياً وسلوكياً بتعاقب الأفعال، وتراكم الجزئيات في الشعر والفعل وصولاً الى نهاية الحدث، وبداية التأويل في اللحظة التي تفقد فيها العين الباصرة وظيفتها الحياتية، فأمست جزءاً هامداً غادرته مقومات الحياة. لذلك بات غياب البواكي الاحتفالي يؤرق الشاعر الانسان الذي تستولي عليه الغربة؛ حتى تكاد فكرة الغربة تساوي في قسوتها فكرة الموت، فتحظى دعوة البكاء المجازية بوجود ذهني قابع في الذاكرة الوجدانية له؛ فلايملك منها فكاكاً. وفي الوقت الذي فقد بواكيه فقد اناً عاطفياً وحضورياً بالبعد المكاني، والمفارقة الجسدية، فلم يجد من يبكي عليه بكاء حقيقياً في زمن سابق، يستدرك ضعفه، وغربته؛ فكانت جملته (ثم ابكيانيا) معادلاً نفسياً تتوازن به الذات مع الوجود، وتتقابل الكلمة مع الفعل.

ويهيمن الاحساس بالزمن على (المقطع / الوصية)، لأنه مرتبط

بفعاليات ماقبل الموت، وبعد الحياة؛ ومرتبط بالحدث المنجز شعرياً قبل أن ينجز واقعياً. وزمن السرد يتسلل عبر زمن الحدث في المتن الحكائي، ويتوافق معه في تكوين نواة الفكرة؛ ولايتقاطع معه، أو يخالفه في المسافة؛ بل هما متضايفان، يعلن أحدهما عن وجود الآخر. ولكن زمن الوجود للكائن المحرك للحدث يحتقب كمية من الحركات، والأحداث، لاسكون فيها؛ لذلك يحتوي على زمنين يتقاطعان: زمن الحركة، والفعل، وهو زمنٌ قبل الحدث المرتقب في (مرو)؛ وزمن القول، والوصية، وهو زمن بعد الحدث الذي بدأت آثاره تظهر في (مرو). فالزمن الأول تنشط فيه الذات، وتقود الفعل، وتوجه الفكرة؛ والزمن الثاني تذوب فيه الذات، وتهمد حركتها، وتتحول من الحدث الى السرد، ومن الحركة الى السكون، ومن الرغبة الى التوسُّل؛ حتى باتت تتلقى الفعل والحدث، بعد أن كانت جوهر الحدث. وبؤرة التقابل بين الزمنين الذات الشاعرة التي تشكل كائناً انسانياً ينصهر فيه الزمنان.

وتكتمل بالأفعال المتلاحقة (أقيما، قوما، هيئا، ابكيا، خُطَّا، رُدَّا) تكتمل مراسيم الدفن، والتجهيز الجنائزي. وتحتوي تلك الأفعال فاعلية ثنائية تتعاضد فيها السواعد حتى تُنجز آخر حلقة في مسلسل الشاعر (ماقبل الموت، وبعد الحياة) وصولاً الى الحدث المركزي ـــ الموت الذي يمزج فيه الشاعر، تجسيماً له، بين الصورة الحسية، وهي استلال السيف؛ وبين الصورة المعنوية، وهي استلال الروح من الجسد؛ حيث شبه خروج الروح من الجسد بالسيف يُستلُّ من غمده، فحذف المشبه به، وأبقى قرينة دالة عليه على سبيل الاستعارة المكنية.

وتظهر في الفعلين المضارعين المسبوقين بـ(لا الناهية): (لاتعجلاني، لاتحشراني) سمة الرجاء والتوسل؛ لأن الشاعر يرسم لنا صورة موته، وقدره، ، رحيله؛ صورة حاضره المؤلم الذي تفوح منه رائحة الضعف، والنهاية؛ وإن كان يستذكر فروسيته، وشجاعته في ماضيه المشرق. وتوكيد

ثنائية الفاعل تعبير عن ارادة الحياة دون الموت؛ وتوثيق للصلة المفترضة بين الذات والجماعة حيث تظهر ارادة الشاعر الصلبة، وشخصيته النامية- المتطورة؛ وإن كان يتكىء على صيغة فعل الأمر بمضمون مجازي التكوين.

ولم يعد المكان عبثاً نفسياً، أو باعثاً دلالياً في (المقطع / الوصية)، ولم يترك آثاره على الخطاب المسرود، وفقدَ مرجعيته في الذاكرة الفردية؛ وأمسى المكان حفرة بأبعاد محدودة تحتوي جسداً (بعد الحياة ـــ وبعد الموت).

وفي الوقت الذي تحوّل الرمح الرديني الى كائن انساني يبكي الذات الناشطة القابعة في جلباب الشاعر بكاء مجازياً- تأبينياً، نجد الشاعر نفسه يمنحه وظيفة دلالية حيث يخطُّ صاحباه به ملامح قبره/ مضجعه المرتقب اليوم أو بعض ليلة؛ وكأنّه يرفض قبراً مجهولاً بلا علامة، وبلاحدود؛ ويرغب في قبر له علامة.

ويوظف الشاعر (القماش) توظيفاً دلالياً- عقائدياً من خلال ألفاظ تنضوي تحت جنسه مثل (الأكفان، الرداء، البُرد). ويرتبط الكفن بالموت وفق طقوس، وعقائد خاصة. وفضل الرداء المردود في سياق التركيب اللغوي كناية عن الموت، لذلك أوكله الشاعر الى صاحبيه دون نفسه. وتكتسب البُرود دلالة اجتماعية تتحدد بها المقومات المادية للشخصية؛ إلا أنها أصبحت وسيلة توضع فيها جثة الشاعر، وتُجرُّ جراً. وكأن الجواد الذي يجر عنانه وحيداً شبيه بالشاعر الذي يجره صاحباه الى مثواه الأخير؛ لذلك يشير الفعل (جُرَّاني) الى فقدان الشاعر لإرادته، وحركته، ونشاطه؛ فأسلم قياده الى سواه بعد أن كان فرداً صعباً يقود، ولا يُقاد.

٤- ألم ترني بعتُ الضلالة بالهدى وأصبحت في جيش ابن عفان غازيا

٢٠- فطوراً تراني في ظلال ونعمة وطوراً تراني والعتاق ركابيا

٢١- وطوراً تراني في رحىً مستديرة تهيم علي الريح منها السوافيا

يعد هذا المقطع تحولاً فجائياً في السرد والوصف معاً؛ مما يثير الدهشة مع خيبة التوقع؛ وكأنّ هذا القطع في سيرورة الحدث، وتراكم اللغة، يُشبه القطع القهري في حياة الشاعر. وبغتة تغير المخاطب من الثنائية الى الأحادية في قفزة ذهنية خارج السياق اللغوي لاتنسجم مع الرؤية البنائية للمقطع/ الوصية؛ وكأنّ النشاط العقلي قد توقف للحظات تماثل لحظات الموت؛ فاذا بالشاعر يبدأ خطاباً جديداً يخالف سابقه مخالفة تدخل في صعيد المساءلة التشكيلية لذلك شعرت أن البيت الرابع ينسجم في الوحدة الدلالية والفكرية مع البيتين (٢٠ و ٢١)؛ ويُشكل معهما مقطعاًله فكرة، وموضوع موحد.

ويمكن أن تكون ذاكرة الراوية الشفهية قد عبثت قليلاً في الترتيب العضوي للأبيات، مما جعل سابقها ينضوي تحت عباءة لاحقها مكوناً معه بؤرة مفهومية في مقطع ذاتي- وصفي، تُصوِّر فيه الذات الشاعرة نفسها وصفاً تكتسب به شخصية بطولية بشهادة بصرية يمتلك فيها الشاهد والمخاطب ضميراً مباشراً يدل عليه دلالة حية (تراني ـــ أنت)؛ يصبح بها المسجل المفترض لنشاط الشخصية النموذجية التي تخوض الحدث، وترويه، وتصطنع له الشهود عياناً.

وتتجسَّد عناصر الحدث في الراوي/ الشاعر الذي يسرد الحدث، وينهض به؛ والمروي له ـــ الشاهد المفترض؛ والموضوع المستند الى نشاط الأنا النرجسية في زمن ترسم فيه الشخصية لنفسها تأريخية مضيئة؛ فضلاً عن الفكرة التي تغوص في أعماق النشوة بالفعل، والمجاهرة به؛ والتي تخلق توافقاً بين الكلمة والفعل، وحواراً ضمنياً بين الراوي والمروي له من خلال الرؤية البصرية؛ حيث يقوم السرد على المقابلة المتعاقبة والمتداخلة بين أشكال، وأحوال متنافرة في أزمنة تتغير؛ لأن الشخصية متحركة، لايدوم لها سكون، ولاتستقر لها حركة. ونجد التقسيم الوصفي للحدث والشخصية؛ فالنعمة مصحوبة بالدَّعة والمال، وفيها اليسار والرخاء؛

والظلال تقترن بالاسترخاء والترهل، وقلة الحركة المؤثرة؛ ثم يأتي الزمن النرجسي الذي تتوق فيه الذات الى الانفلات، والانطلاق، وتتخذ من العتاق (كرائم الخيل) ركاباً تحقق به حلماً نفسياً تشعر معه بالوجود الحقيقي.

وفي زمن التصعلك يسلك الشاعر مسالك وعرةً بين كثبان رملية ــــ رحىً مستديرة تحتويه فيها العواصف الرملية بفعل الريح الناشطة؛ وهذا يعني أنه خبير في دروب الصحراء؛ لأن الكثبان الرملية لاتمتلك حدوداً واضحة بسبب سرعة حركتها التي تفرض ركوداً في مكان آخر يُولّد التيه والضياع.

لقد كرر الشاعر (الطَّور: التارة) مرات ثلاثاً في بيتين، وكأني به يتلذذ بهذا التقسيم الشعري والحياتي، ويترنّم به في ذاكرته التي عادت به الى ماضيه البهيج، فكان هذا التكرار النغم الأخير في نفسه المتهافتة. وأكد على فعل الرؤية المستمر، فجاء به على صيغة المضارع (تراني) مكرراً إياه مرات ثلاثاً رغبة منه في اظهار ماضيه المنعش صورة وتصوراً من خلال السَّرد الذاتي بضمير المتكلم الذي يهيمن على المقطع الذي تتضخم به الذات الشاعرة تضخماً تنتقل فيه من وادٍ الى وادٍ، وتتلون من حال الى حال، وتتحرك بحرية، وارادة قوية في القفار حيث تغيب ملامح المكان، ويتطاول السَّراب والزمن معاً.

١٠- ولكن في ظهر السُّمينة نسوةٌ عـزيزٌ عليهنَّ العشية ما بيا

٢٢- وفي الرَّمل مني نسوةٌ- لو شهدنني بكينَ، وفدَّين الطبيب المداويا

٢٣- فمنهن أمي، وابنتاي، وخالتي وباكيةٌ أخرى تُهيج البواكيا

يكتمل المشهد الجنائزي بالنسوة اللواتي يدخلهن الشاعر الى جوهر الحدث الذي نتخيله مأتماً نتحسس فيه العلاقة بين الشاعر والبيئة الاجتماعية من خلال شبكة العلاقات القرابية- الأسرية؛ حيث يُعيد مجتمع النسوة للشاعر انسانيته، ويربطه برباط المحبة الذي تمتد اليه من خلاله جذور التكاتف ويحدد الشاعر وظيفة النسوة التي يفتقد اليها في لحظته؛ وكأن أداء

الوظيفة يحقق متعته الأخيرة التي تعنُّ له؛ لذلك يجسد الوظيفة بالبكاء الذي يُعدُّ نهاية حقيقية لوهم الخلود الذي يظنُّه الشاعر في نفسه؛ وتعبيراً عن الكارثة التي تحيقُ به، وهو مساقٌ بدافع قهري- داخلي يتملكه فيه الخوف من فقدان الحياة بالموت، ومن الآلام والمعاناة التي تسبقه. وتتحقق فاعلية البكاء النسائي بين فعلين يتحرك بينهما الزمن سريعاً: فعل الرؤية والمشاهدة العيانية المرجوة؛ وفعل الفداء الذي يقايض فيه النسوة بين الوجود والعدم.

والمناوبة في وظيفة المكان (السُّمينة ــــ الرمل) لاتوحي بالمخالفة والبعد القسري المقصود بين إشارتين، بل نألف مجاورة دلالية ببؤرة مكانية لها ضلعان يفترقان مع رحلة الشاعر المغترب. لذلك تعود الذاكرة به الى موطنه حتى يستذكر من خلاله النسوة اللواتي سيبكين عليه لاحقاً حزناً عليه، وشفقة على مُصابه الأخير، ويعددهن: أمه التي ثكلت به، وبنتاه اللتان فُجعتا به أباً عطوفاً، وخالته التي تستدرُّ الدمع ألماً عليه؛ أمّا الباكية التي حملت على عاتقها دور النائحة دائبة البكاء، فهي زوجته التي يمثل لها حياة تنطق، وتتكلم؛ مما أغراه بأمنية عسيرة المنال، بعيدته؛ (لو شهدنني)؛ فكانت الجملة / الأمنية كائناً منفصلاً عنه؛ فاذا به يعزف على أوتار البكاء المؤلم، فذكر مشتقات البكاء ثلاث مرات في بيتين: (بكين، باكية، البواكيا) حتى يُمعن في الرؤية الجنائزية، ويُرضي ذاته الجريحة.

٢٤- وما كان وادي الرمل مني وأهله ذميماً، ولا في الرمل ودُّعتُ قاليا(١)

يُمثل المكان/ الوادي بؤرةً شعورية، يُعدُّها الشاعر نسوغاً تتركب فيها الحياة؛ حتى نشعر بتوحُّده النفسي معه، وإن كان وجوده منفصلاً عن إحساسه به؛ وكأن لديه الرغبة في أن يمتلك (الوادي) ملكية المعرفة، لاملكية مادية. لذلك يصرحُ بأن خروجه من (واديه) لم يكن تمرداً، ولاهواناً؛

(١) تنظر أخبار مالك بن الريب وشعره، في: الشعر والشعراء، ص ٢٢١، والأغاني، ٢٢/ ٢٨٦-٣٠١، والأمالي (الذيل)، ص١٣٥-١٤٠.

ولاخلعاً؛ بل يحتفظ له، ولنفسه فيه بعشق، ومواطنة تكتمل بهما التجربة الشعورية التي أفرغ فيها انفعالاته، وأحاسيسه، ومشاعره؛ بلغة أدبية حزينة.

إن الشاعر يبرأ من النقيصة / المذمَّة، وينفيها عن نفسه، ويقيم بدلاً عنها وثائق الألفة، ورابطة التواصل؛ وذلك كامنٌ بتكراره عامداً للوادي (الرمل) مرتين في بيت واحد يحتقب حسرةً، وتوجُّعاً. ويُوحي النفيُ المطلق بحوارٍ مضمرٍ يظهر طرفُهُ الأول، ويستكين صامتاً طرفُهُ الثاني الذي بذر في أثناء حواره بذور الشكِّ في الذات الشاعرة التي حولت حزنها الحقيقي الى أدوات جمالية لها قيمة فكرية في الدلالة والبناء؛ وروت شعورها بلغة تنبض بالحياة، والواقعية.

الميثولوجيا .. ومرجعيات الانتماء
قراءة
في أدب الهنود الحمر

ترجمة ودراسة :
د . أحمد الخليل

رحلة في أعماق التاريخ:

قبل الميلاد بألفي عام تقريباً نشأت الحضارات البدائيّة بين قبائل الهنود الحمر في البلاد التي تسمّى اليوم أمريكا، وقد نشأت تلك الحضارات وازدهرت مستقلّة إحداها عن الأخرى، وبينما كانت الحضارات المبكّرة في الهند والصين تتخطّى نطاق مرحلة العصر النيوليتي، كانت ثمّة حضارات مشابهة تتشكّل على أراضي أمريكا .

د. أحمد الخليل : باحث من سورية، دكتوراه في الأدب العربي ، محاضر في جامعة الامارات ، من أعماله : « ظاهرة القلق في الشعر الجاهلي » .

بلى . . فعند نهاية العصر الجليدي (٢٥٠٠٠ - ١٠٠٠٠ ق . م) بدأت سلسلة من الهجرات من آسيا إلى أمريكا، عبر مضيق دوهرنك وجبال أليوتيا وألاسكا ، وكان المهاجرون رعاة وقنّاصين مغوليين من العصر الحجري، لا يعرفون شيئاً عن الزراعة، واستطاعوا بمرور القرون التوسّع في استيطان الأمريكتين .

ومع مطلع الألف الثالث قبل الميلاد ، تعلّم أولئك المستوطنون الزراعة، ولا سيّما زراعة الذرة ، وصناعة الأدوات الفخاريّة ، وكونّوا عبر الحقب حضارات شتّى، بلغ بعضها مستوى رفيعاً عند مشارف القرون الأولى للعصر المسيحي، على أن المعادن لم تستخدم في صنع الأدوات، وإنما اقتصرت على أدوات الزينة ، وهكذا ظلّ فنّ الصناعة في أمريكا الهنود الحمر بمنزلة فنّ العصر الحجري .

ومن أبرز الحضارات التي أنشأها الهنود الحمر في الأمريكتين : **حضارة شعب الأولمك** الذي عاش في جنوب شرقي المكسيك (القرن الأول الميلادي) ، **وحضارة شعب المايا** (من القرن الأول إلى الثامن الميلادي) وقد انتهى هؤلاء الهنود إلى واحد من أدقّ التقاويم القديمة ، فضلاً عن طريقة بدائيّة للكتابة ، وتشييدهم للمعابد الهرمية الشامخة، وهناك أيضاً **حضارة شعب زابوتيك** في جنوبي المكسيك، **وحضارة شعب الأرتيك** المقاتل ، الذي استوعب - شأنه في ذلك شأن الرومان - كثيراً من الحضارات التي غزاها ، وكان ذلك بين (١٣٠٠ - ١٥٣٠ م) ، هذا إلى جانب **حضارة شعب الإينكا**، وحضارات أخرى عديدة لا مجال الآن للبحث فيها (١) .

كولومبس .. وبدايات الفجيعة :

في الوقت الذي كانت فيه **فرديناند وإيزابيلا** ، ملك وملكة اسبانيا ، يعملان بجدّ للإطاحة بمملكة غرناطة الإسلامية في الأندلس ، سنة (١٤٩٢م) ، كان كريستوف **كولومبس** يعدّ العدّة للإبحار غرباً ، واقتحام عباب المحيط الأطلسي (بحر الظلمات) ، واكتشاف طريق قصيرة توصل

الأوربيين إلى الهند، بدلاً من الدوران حول رأس الرجاء الصالح . وما أن سقطت غرناطة في يناير كانون الثاني من العام نفسه ، حتى صدرت الأوامر الملكية إلى كولومبس بالبدء .

وغادرت سفن **كولومبس** الثلاث **ميناء بالوس PALOS** الإسباني، في (٣) أغطس ؟ آب سنة (١٤٩٢ م)، ودامت الرحلة سبعين يوماً، وفي فجر يوم (١٢) أكتوبر من العام نفسه نزل كولومبس على إحدى الجزر، في القارة الأمريكية، وثبّت عليها العلم الإسباني، ظناً منه أنها من جزر الهند، وسمّاها **(سان سلفادور)**[٢] .

ومن هنا بدأت الفجيعة . . ففي سنة (١٥١٩ م) نزل الجيش الإسباني في المكسيك بقيادة كورتيز، ولم يكد يمرّ عام واحد على نزولهم حتّى عدا **كورتيز** على مملكة الأزتيك بزعامة **مونتيزوما** ، فدمّرها تدميراً، وسوّى بيوت عاصمتها بالأرض، ونهب كنوزها، ونقلها إلى أوربا، ولم يبق من مبانيها إلاّ مبنى واحد اتخذ كنيسة وإصطبلاً وحظيرة للخنازير .

وبعد قرن من هذه الأحداث داهم القائد الإسباني بيزارو بجيشه امبراطوريّة الإنيكا في بيرو، وجعلها مسرحاً للمذابح والنهب والتدمير، لقد دمّروا طرق المواصلات الكبرى التي تمّت في عهد حضارة الإينكا، ونهبوا المصوغات وحولّوها سبائك، وطمسوا معالم تلك الحضارة التي لم نعد نعرف عنها شيئاً، سوى ما يتوصّل إليه الأركيولوجيون[٣] .

الروح العظمى . . وانتصار البارود:

كانت مغامرة **كولومبس** هي بداية المأساة . . وصحيح أن ذاك المغامر الإيطالي الاصل الاسباني الإقامة، لم يعرف آنذاك أنه اكتشف عالماً جديداً، وأنه فتح عيون البشر في القارات القديمة الثلاث **(آسيا / أوربا/ إفريقيا)** على قارة شاسعة، عرفت بعدئذ بالقارة الأمريكية، لكن مغامرته تلك كانت البداية التراجيدية المرعبة لأوسع احتلال، وارتكاب أحد أبشع المجازر في التاريخ، وإبادة العدد الأكبر من الهنود الحمر، وهم من أعرق شعوب العالم .

ولم تكن خطيئة الهنود الحمر (سكان أمريكا الأصليين) أنهم كانوا وثنيين فقط ، وإنما لأنهم كانوا مايزالون يقاتلون أساليب وأسلحة بدائية أهمّها القوس والسهام، ولا يعرفون شيئاً عن البارود، ذاك السلاح الجهنّمي، ولأنهم كانوا يريدون الحياة في وطنهم بسلام، لذا كان عليهم أن يخسروا الأرض والتاريخ والمستقبل والهوية .

يقول **ردا - آن - يان - كا** ، أحد أبطال المقاومة الهنود، أيام الاحتلال الأوربي للقارة الأمريكية، وهو يخاطب زعيمه قبل إعدامه من قبل الغزاة البيض :

« حين يكبر أطفالي ،

فليعرفوا أن أباهم مات ،

لأنه اتبع نصيحة زعيمه ،

ودون أن يكون قد سفك دماء رجل أبيض »(٤) .

كان الرجل الأبيض يبرّر احتلال وطن الهندي الأحمر باسم نشر رسالة المسيح في العالم، والقضاء على الوثنية تارة ، وباسم إنقاذ الهنود من ظلمات البدائيّة والانتقال بهم إلى حياة الحضارة تارة أخرى. لكن الهنديّ الأحمر لم يكن يعيش حالة خواء عقيدي وضياع فكري كما توهّم الأوربّي، إنه كان صاحب أيديولوجية متكاملة البنى، راسخة الأركان، عميقة الجذور . . كان يؤمن بالروح العظمى (الله) ، ويرى الشمس تجسيداً لتلك الروح، وكان فهمه للوطن على صلة وثيقة بتلك الأيديولوجيا .

وفي هذا الصدد يقول (الغيمة الحمراء) أحد قادة الهنود الحمر :

« لقد خلق الله الرجل الأبيض والهندي كليهما . .

ولكن أعتقد أنه خلق الهندي أولاً . .

لقد خلقني في هذه الأرض ،

وهي لي . .

وقد أنبأتني الروح العظمى بأن عليّ الاحتفاظ بها»(٥) .

على أن السهام كانت أقصر مدى من البواريد والمدافع ، وكان على الهنود أن يخسروا المعركة في النهاية ، ويقعوا في قبضة الرجل الأبيض على نحو مأسويّ مرير . . يقول (**الدبّ الواقف**) من قبيلة البونكا للأبيض (كروك) :

« لقد ظننا أن الله أراد لنا أن نعيش ،
ولكنني كنت على خطأ . .
الله يريد أن يعطي هذا البلد للأبيض ،
وعلينا نحن أن نموت . .
وقد يكون الأمر حسناً هكذا . .
أجل . . قد يكون . . »(٦).

وهكذا جرّدت أمريكا الهنود الحمر من تاريخها القديم ، وأكرهت على أن تبدأ تاريخها الأوربي الجديد ، ولا سيّما في أمريكا الشمالية . لكن الجذور الضاربة في أعماق التاريخ تستعصي على الاقتلاع ، وتأبى الشخصية العريقة للهندي الأحمر أن تنمحق على نحو كلّي ، إنها تتشبّث بالهوية الأصيلة ، وتظلّ تحيا كلّ رموزها الميثولوجية ، وتعبرّ عن الحنين العميق إلى رؤى الأجداد ، متشوّقة إلى لحظة الانبعاث والقيامة .

وليس من ريب أن الشعراء الحقيقين هم الذين يجسّدون هويّة الأمة ، إنهم بها يكونون ، وبها يحيون ، وبها يشعرون ، وبلسانها ينطقون ، وفي سبيلها يموتون ، وبما أنهم كذلك ، فهم الأكثر تشبّثاً بالعمق الوجودي للانتماء ، وهم الأقدرعلى تصوير الخارطة الحقيقية للشعور القوميّ ، تلك الخارطة التي تتأصّل في القلوب والعقول قبل أن ترتسم على الورق ، وكذلك كان بعض شعراء الهنود الحمر في أمريكا الشمالية ، أولئك الذين ينتمون إلى جيل النصف الثاني من القرن العشرين .

فماذا في أشعار هؤلاء عن الميثولوجيا ، والأرض ، والتاريخ ، والإنسان ؟! . .

رقصة المطر المقدّسة :

كانت حياة الهنود الحمر تقوم على الصيد على الغالب ، صيد الطرائد ولا سيّما **البافالو** (نوع من الجاموس) ، ولم تكن الأراضي التي سكنها الهنود الحمر غزيرة بأمطارها على الدوام ، وكان الجفاف ينوء بكلكله في أحيان كثيرة على الطبيعة ، ويورد الطرائد موارد الهلاك ، ويترك الهنود الحمر للجوع والموت .

لذا يحتلّ المطر مكانة مهمّة في حياة الهندي وفي وعيه أيضاً ، ونجد الهندي الأحمر يرى الحياة في نقطة المطر ، ونجد المطر في صميم الميثولوجيا الهندية . . أجل ، عندما تشحّ السماء فما على الهنود إلاّ أن يرقصوا رقصة المطر المقدسة ، وحينئذ تتفتّح أبواب السماء ، وتخضرّ الأرض ، فتكثر الطرائد ، وينعم الهنود بالرخاء . يقول الشاعر **ألونزو باباغو** :

« أصرخ من شدّة العطش . .
أغنّي للمطر
أرقص للمطر
بدأت السماء تبكي . .
لأنها تراني أغنّي . . وأرقص . .
على الأرض الجافة المتشققة »(٧) .

إن الهنود الحمر يماثلون ، في ميثولوجيا المطر هذه ، عرب الجاهلية . . أفليس من أسماء المطر عند الجاهليين الغيث (من الغوث) تارة ، والحيا (من الحياة) تارة أخرى ؟! أو ما كانوا يعلّقون فروع العُشَرَ (نوع من الشجر) بأذناب البقر ، أيام القحط ، ويشعلون فيها النيران ، ويصعدون بها إلى الجبال الوعرة ويضجّون بالدعاء والتضرّع ، استنزالاً للمطر ؟!(٨) ، أوما كانوا يستنزلون الرحمة على الأموات في قبورهم بقولهم : (سقيت الغيث) باعتبار المطر رمز الحياة الأهم؟! .

ميثولوجيا رقصة الشمس :

تحتل الشمس موقع القلب من ميثولوجيا الهنود الحمر، شأنهم في ذلك شأن معظم شعوب العالم القديم شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، يستوي في هذه الحقيقة الصينيون، الهنود، والعرب والكرد والفرس، واليونان والرومان، وكثير من القبائل الإفريقية، بل إن شعب اليابان يعتقد، إلى عصرنا هذا، أن امبراطورهم هو من سلالة الشمس.

إن الشمس، في ميثولوجيا الهنود الحمر، لا تحول ولا تزول .. إنها أبدية . وها هوذا العجوز (ساتاتك) يغنّي أغنية الموت الخاصة بمحاربي قبيلة (الكتيووا)، قائلاً :

« أيتها الشمس ! ..
أنت تبقين للأبد ..
ولكن علينا – نحن الكايتسنكو – أن نموت .. »(٩).

والشمس هي الخالقة أيضاً، أو لنقل : إن للشمس في اعتقادهم ضلعاً في عملية الخلق، يقول (هايئموت تويالاكت)، زعيم قبيلة (الأنوف المخرومة) في هذا المعنى :

« خلقت الأرض بمساعدة الشمس ..
ويجب أن تترك كما هي .. »(١٠).

بل كان الهنود الحمر يقيمون احتفالات سنويّة مهيبة للشمس، يؤدون خلالها رقصة الشمس المقدّسة، ويمارسون بعض الطقوس التطهيرية، تهيّؤاً للاتّصال بالروح العظمى عبر الشمس، وتلقي الوحي منها. ففي أوائل قمر (صنع السمن) أقام **الهونكابابا** احتفال رقصة الشمس، ولمدّة ثلاثة أيام رقص (**الثور الجالس**)، وأدمى نفسه، وحدّق في الشمس حتّى سقط في غيبوبة، وحين استفاق تحدّث إلى قومه عمّا أوحت به الشمس إليه(١١).

وقد ظلّت الشمس، ببعدها الميثولوجي هذا، حيّةً في وجدان الهنديّ الأحمر إلى اليوم، ويكشف الشاعر (**ألونزو لوييز**) عن الصلة الدقيقة بين الدلالة الميثولوجية للشمس والحياة اليومية للإنسان الهندي .. إنه يقول :

« ارفع يديك إلى السماء . .
ارفع وجهك إلى السماء . .
استقبل بركات الشمس . .
سكرابْ . . سكرابْ . . سكرابْ . .
ماهو ذاك الصوت ؟ ! . .
إنها أمّي تطحن الذرة ! . . » (١٢).

من التراث .. إلى الهويّة :

ليست الخطورة في أن يخسر الإنسان جزءاً من وطنه، أو أن يشنّ الغزاة الحملات على تاريخه فيسرقوه أو يزوروّه . . إن الخطورة الكبرى هي الشعور بأنه يحيا في الخواء، من غير مرجعية قوميّة وطنية ينطلق منها، ويتميّز بها، ويعتمد عليها، ويحتكم إليها، إن الإنسان يكون عندئذ قد خسر هويّته، وأصبح غريباً عن حقيقته، وأخطأ الطريق إلى ذاته، وبات بعيداً كلّ البعد عن أصالته.

ومن هنا نفهم إصرار الشاعر الهندي الأحمر (كالفين نافاغو) CALVIN NAVAGOعلى تصوير لوحات شعرية، تزخر بتفاصيل الحياة الهندية اليوميّة . . إنه يستعيد في وجدانه التاريخ الهندي القديم، فيعيشه بكل نشوة، ويحاول من ثم تمزيق الأكفان، وتحريض أبناء شعبه على النهوض من جديد :

« ارقصي . . أيتها الخيام المخروطية . .
ارقصي عالياً فوق قمم الجبال الصخرية . .
ارقصي أيتها الخيام المخروطية
على ضفاف (كيريل كريك) المعشوشبة . .
مع أهداب شمس الخريف الضاحكة . .
هاهم أطفال الهنود الحمر يلعبون بالأقواس والسهام
على ضفاف (كريل كريك) المعشوشبة . .

نساء الهنود الحمر يجتمعن . .
لتبدأ نار العشاء . .
ارقصي أيتها الخيام المخروطية . .
ارقصي على ضوء نار أشجار الخريف . .
المحاربون يعودون إلى الخيام من الغارة . .
يمرّون عبر المخيّم بجلال .
يمتطون جيادهم المزيّنة . .
ارقصي أيتها الخيام المخروطية . .
والآن . . نامي على ضفاف (كريل كريك) المعشوشبة . .
وعلى قمم الجبال الصخرية . . » (١٣)

إن الهويّة القومية للهندي الأحمر لم تنمحق تحت وطأة الاستلاب الذي مارسه الأوربي على نحو منظّم ، إن جذوتها ما تزال متوقدة بإصرار في الذاكرة الشعبيّة ، من خلال رموز تراثيّة لها دلالاتها التاريخيّة المؤثّرة : **الخيام المخروطية/ الأقواس والسهام / نار العشاء / المحاربون العائدون / الجياد المزيّنة**. ويعمد الشاعر الهندي الأحمر إلى دغدغة تلك الرموز ونفخ الحياة فيها من جديد ، لتظلّ متوقدة بكلّ قوّة ، ولتكون الرابط الدائم بين الأصول والفروع ، بين ماضي أمة وحاضرها .

الأجداد . . والقيامة :

إذا كانت الشمس هي رمز الروح العظمى في التراث الهندي ، والأم هي رمز الانتماء للأرض والحياة ، فإن الأجداد هم التاريخ ، وهم الجذور ، وهم الهوية ، وهم القيّمون على مستقبل الشعب الهندي ، وهم الذين يضيئون دروب الخلاص . . إن الأجداد لا يتخلّون عن الأبناء والحفدة في محنتهم . . إن أرواحهم من أهمّ المرجعيات القومية ، فهي تظلّ حائمة في وسط الشعب ، توجههم ، وتهيب بهم أن ينهضوا ، ويصنعوا القيامة من جديد .

ولعلّ الشاعر الهندي (**ألونزو بـاباغو**) هو أكثر الذين عنوا بأهمّية التواصل بين الأجداد والحفدة في المجتمع الهندي. وفي قصيدة له بعنوان «**توجيه ! . .** Direction» يصور ذاك التواصل بدقّة، وليس هذا فحسب، وإنما يطلعنا على افاق رؤية الهندي الأحمر إلى عناصر الطبيعة، وإلى الحياة والوجود بشكل عام :

(بإيعاز من جدّي توجّهت إلى الشرق . .
لذا ينبغي أن أمتلك قوة الدبّ.
وإلى الجنوب . .
لذا ينبغي أن أكون شجاعاً كالنسر .
وإلى الغرب . .
لذا ينبغي أن أكون حكيماً كالبوم .
وإلى الشمال . .
لذا ينبغي أن أكون ماكراً كالثعلب .
وإلى الأرض . .
لذا ينبغي أن أتلقى ثمارها .
وإلى السماء . .
لذا ينبغي أن أعيش الطهر . . »(١٤).

إن نظرة عجلى في هذه القصيدة كافية لأن توقفنا على حقيقة الهواجس التي يعيشها الهندي الأحمر، إنها هواجس تراثية ووطنية وأخلاقية في آن واحد، وهي في النهاية تأكيد للشعور بالقهر المركّب وبالاضطهاد الشامل، قهر متجذّر في الزمان (الحؤول بينه وبين الانتماء إلى الجذور / الأجداد) ، وقهر متأصّل في المكان (تجريده من الانتماء إلى الوطن بجهاته الست)، وقهر ثقافي متمثّل في إكراهه على الانصياع للقيم الدخيلة (تحويله عن الانتماء إلى القيم التراثية الأصيلة : القوّة، الشجاعة، الحكمة ، الدهاء ، الطهر) . وكي يستعيد الهندي الأحمر هويته الحقيقية

لابدّ أن يسقط كلّ أشكال القهر تلك، ويصبح خارج دائرة الاضطهاد الشامل (ينبغي أن أكون ...) .

ويصل هذا الشاعر إلى الذروة في الحماسة لتاريخ شعبه ، وإلى الذروة في التعبير عن التثبّت بالهويّة الهندية ، ورفض الانمحاق المفروض عليه من قبل الأوربي الأبيض ، وذلك حيث يقول ، على لسان أحد الأجداد ، في قصيدة له بعنوان (بلا عنوان) UN TTTEO:

« امض . . ياولدي . .
امض إلى مرابع شعبك . .
أيقظهم من الرقاد . .
لقد ناموا طويلاً . .
أعوام كثيرةٌ قد مرّت . .
التقاليد العريقة تبددت مع الرياح . .
والأساطير القديمة ضاعت في الظلام . .
طريق الأجداد يشرف على الاندثار . .
اغسل الشرّ والأذى اللذين لحقا بالشعب . .
سِرْ بهم عبر الأغنية التقليدية العريقة . .
امض بهم عبر الرقصة المقدسة . .
أرسلهم بقوّة إلى أطراف الأرض البعيدة . .
ليستعيدوا كلّ ما أضاعوه . .
اجمل أولئك الذين يعيشون بيننا . .
وتركونا للموت . .
يعرفون أننا كنّا نائمين فقط . .
والآن . . ها قد عدنا إلى الحياة من جديد . . » (١٥).

إن التاريخ ، في شعر الهنود الحمر، هو المرجعيّة المقدّسة الأولى، ولا يمكن تجاوز هذه المرجعية ، فكلّ تجاوز لها إنما هو تجاوز للذات وللوجود وللمستقبل، وكلّ إلغاء لها هو في حقيقته إلغاء للهوية القومية، وتتجلّى المرجعية التاريخية، في هذه القصيدة، عبر محاور رمزية عميقة الدلالات والإيحاءات : ياولدي، طريق الأجداد (**الانتماء إلى الزمن القومي**)/ مرابع شعبك، أطراف الأرض البعيدة (**الانتماء إلى الوطن القومي**) / التقاليد العريقة، الأغنية التقليدية العريقة (**الانتماء إلى المجتمع القومي**) / الأساطير القديمة ، الرقصة المقدّسة (**الانتماء إلى الميثولوجيا القومية**) .

والحقّ أن قصيدة الانبعاث هذه تلخّص ستّة قرون من عمر الهنديّ الأحمر، وتؤكّد أنّ كلّ ذاك الزمن المديد من القهر ما استطاع **أن يمحق الهويّة الأصيلة** لشعب سلبت أرضه، واعتقل تاريخه ، وشوّهت هويته ، **ذلك لأن الشعب لم يخسر** المرجعيات القومية الأساسية، الأجداد أمناء على نقاء الهويّة، **إنهم هم** الذين صاغوا التاريخ الأصيل لحفدتهم، **والغرباء القاهرون** يريدون صياغة المستقبل على النحو الذي يرغبون فيه، ولا بدّ من الالتحام ثانية بالأجداد وبالجذور الميثولوجية العريقة، لتكريس الانبعاث وتجسيد القيامة، وإعادة رسم ملامح المستقبل من جديد .

المراجع

١- ثروت عكاشة : المعجم الموسوعي للمصطلحات الثقافية ، مكتبة لبنان ، ١٩٩٠ ، ص ٣٧٤ - ٣٧٥ .
٢- جمال محمود حجر : دراسات في التاريخ الأمريكي ، دار المعرفة الجامعية ، مصر ، ١٩٩٥ ، ص ٢٢ - ٢٦ .
٣- المعجم الموسوعي للمصطلحات الثقافية - مرجع سابق - ص ٣٧٥ .
٤- دي براون : تاريخ الهنود الحمر ، ترجمة توفيق الأسدي ، دار الحوار ، اللاذقية ، ط ١ ، ١٩٨٢ ، ص ٥٢ .
٥- السابق ، ص ٧٦ .
٦- السابق ، ص ٢٦٧ .
٧- الديوان ، ص ٨ .
٨- النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهّاب) : نهاية الأرب في فنون الأدب ، المؤسسة المصرية العامة للتاليف والترجمة والطباعة والنشر ، ١ / ١٠٩ - ١١٠ .
٩- تاريخ الهنود الحمر ، ص ١٩٤ .
١٠ - السابق ، ص ٢٣٦ .
١١- السابق ، ص ٢١٧
١٢- الديوان ، ٩ .
١٣- السابق ، ٦١ .
١٤- السابق ، ١٠ .
١٥- السابق ، ص ٥ .

---

* - الديوان الذي ترجمت منه القصائد :

Terry allen : the whispering wind poetry by young american indian, copyright 1972, new york.

روايـة
«في البدء كانت الحرية»

د. ممدوح ابو الوي*

يذكرنا عنوان: رواية «في البدء كانت الحرية» بالعبارة الأولى من الجيل يوحنا «في البدء كانت الكلمة»... ولقد حار الفلاسفة في مضمون الكلمة، وما المقصود بها وبعد قرون طويلة، وبوجه خاص، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر رأى ماركس وإنجلس أن المادة هي التي كانت في البدء، وبعد ذلك كان الفكر، وأيدّ لينين ١٨٧٠-١٩٢٤ رأيهما.

---

* د. ممدوح أبو الوي: باحث من سورية، يهتم بالدراسات الأدبية والنقد المقارن.

وفي عام ١٩٩٤ كتب الأستاذ عبد الكريم ناصيف رواية بعنوان «في البدء كانت الحرية» وتذكرنا الكلمات الأولى من الرواية المذكورة، بمزامير النبي داود، إلا أنه مزمور عن الحرية كان سهيل الشحود بطل الرواية يردد مزمور الحرية فيقول:

يازينة الحياة، ياأيتها الحرية تأتين للكسيح ينهض الكسيح. وسهيل الشحود، الذي عمل مدة تزيد عن ثلاث سنوات في قسم مكافحة التسول وانتقل بعد ذلك إلى قسم حماية الآداب العامة، وتزوج فتاةً، اسمها الثريا، أحبّها، وعاش معها دون أن يرزقا طفلاً، يطرح في الفصل الأول من الرواية المذكورة، مجموعةً من التساؤلات عن اخضاع الأشياء للإنسان بدلاً من خضوعه للأشياء، لماذا تتحكم الضرورة والحتمية بالإنسان بدلاً من أن يتحكم هو بالضرورة والحتمية. وما الذي ينقصه لكي يكون ممن يحطمون القيود والأغلال، وينعمون بالحرية.

إذا حاولنا أن نعبر عن الفكرة السابقة بكلمات أخرى، فالسؤال الذي يطرحه بطل الرواية هو عن الحرية، والفرد والمجتمع والعلاقات الجدلية القائمة بينهما، وعن الإنسان والقدر، فهل هو مخيّر أو مسيّر؟ أم هو مخيّر ومسيّر في الوقت ذاته؟ إذا كان الإنسان مسيراً، فماذا يبقى من حريته؟ هل الحرية وهم؟ أم هي حقيقية؟

سهيل شحود ابن عامل كان يصنع الحقائب وجده كان يصنع السروج، وتوفي أخواه في الطفولة بمرض الحصبة وتوفي والداه، وله أخت متزوجة اسمها عائشة. وهو موظف ملتزم بدوامه، يداوم صباحاً ومساءً، لاسمه معنى، جاء اسمه الأول سهيل من كلمة السهل وكنيته الشحود، من الشحاذة، وعرف أن العرب كانت تسمي الأشياء بأضدادها فيسمون الملدوغ سليماً والنازح عائداً.

وإذا كانت شخصية سهيل ترمز إلى الجولان المحتل فإنّ الكاتب فعلاً أعطاه اسماً لايتفق ومضمونه، لأن الجولان ليس سهلاً بل صخراً، وهو

يعتقد أنه كان الأولى بأبيه أن يسميه «جبيلاً» بدلاً من «سهيل» أو ربما «صعيباً» أو «عسيراً» فهو لايرى في نفسه إلا الصعب العسير يسكن سهيل الشحود في حي ساروجة بدمشق، في دارٍ عربيةٍ، ويملك محلاً تجارياً وبستاناً وتجري أحداث هذه الرواية بعد الخامس من حزيران عام ١٩٦٧ وتنتهي أحداث الرواية بحرب تشربن التحريرية في عام ١٩٧٣م، أيّ أنّ أحداث الرواية تجري خلال ست سنوات، يحمل سهيل شهادةً جامعيةً، حصل عليها فيما بعد من بيروت وهو موظف ملتزم ونزيه ومخلص لعمله ولزوجته، إلا أن زوجته تغار عليه، ولاسيما أنّهما لم يرزقا طفلاً، ولايقلقه هذا الأمر أيّ التأخر في الإنجاب لأنه في البداية كان لايريد الإنجاب، فعاش مع زوجته مدة عشرين شهراً مؤجلاً الإنجاب، لكي يتمتع بالحياة قبل أن تحط عليه أعباء الأطفال، وكان سهيل يتألم وهو يرى أطفال سوق ساروجة بالأزقة، وأنّ نسبة التكاثر هي أربعة بالمئة فالقيد الأول الذي كان يعاني منه سهيل الشحود هو بيته وكانت أم الثريا تعلمها أن «الحياة معركة، فاسعي دائماً لأن تكوني من فوق، لامن تحت. وغالبة لامغلوبة»(١) وسهيل، كما يقول عنه المؤلف جذاب، يكفي أن تنظر إليه المرأة لتنبهر، وانبهار المرأة أقصر الطرق لوقوعها بالحب، وإلى استسلامها للرجل. ولذلك حاولت إبعاده عن النساء كيلا يقعن في حبه، فلقد أحست أنها وقعت على صيدٍ ثمينٍ وطلبت الأم من ابنتها إخفاء الحب «إذا ابتليتم بالمعاصي فاستتروا».

لكن ثلاثة لايمكن إخفاؤها: الحب والحبل وركوب الجمل.

لقد اجتمع حبها وخوفها من فقدانه، ذات مرة وجدت بقعة دمٍ على سرواله الداخلي فجن جنونها... «أتضاجع عاهراتٍ وهن بالحيض» كان الإتهام، بالطبع، باطلاً.

الأطفال ضمانة للمرأة، وهي لاتنجب، إذن لاضمانة لها.

ففكرت الثريا بضمان مستقبلها، يجب أن يصبح سهيل نفسه ملكها.

المسيح أعطى ضمانةً أكبر للمرأة «فما جمعه الرب لايفرقه إلا الرب» هكذا قال لأتباعه.

وتشاورت مع أمها فنصحتها الأم أن سلاح الرجل هو ممتلكاته، رصيده، والمال هو السوط الذي يجلد به الرجل ظهر المرأة.

وحين يصبح سهيل فقيراً، حين يفقد الوسيلة كيف يحقق الغاية فيجب أن ينقل ممتلكاته إلى اسمها وأملاكه، كما ذكرنا، البيت والبستان والدكان التي يؤجرها.

ورأت ضرورة تنفيذ نقل الأملاك، ولكن كيف تقنعه بذلك، فوجدت أنّ: «الالتفاف خير من المواجهة، والمراوغة خير من التصدي، وإلا لما قالوا عن الثعلب إنه أذكى الحيوانات»[٢].

واقتنع سهيل الشحود بفكرتها، وحاول تنفيذها إلا أنه وجد الدولة تفرض ضرائب ورسوماً على نقل الملكية، وطال النقاش بين الثريا وسهيل، واحتدم الجدال، لكن دون أن يستطيعا التوصل إلى اتفاق، فاستعانت بالحلفاء وذوي الخبرة من أجل استئناف المعركة لاحقاً، وبالفعل استئنفت المعركة فيما بعد، فلقد قدم الحلفاء للثريا ردوداً وحججاً، وكان سهيل يحس أنّ حريته تتلاشى شيئاً فشيئاً، شجرة تعرّى من أوراقها، وشددت الثريا الضغط لعل مقاومته تتفتت أخيراً «حتى العظام تتفتت في القدر البخارية لشدة الضغط».

وكان آخر الأدلة على خيانة سهيل، التي لم تحدث، هي رائحة العطر الباريسي إذ ضمّته إحدى الفنانات رغم مقاومته لها.

فتركت الثريا البيت وبيدها البرهان على الخيانة، ألم يقل فرعون لسحرته في القرآن الكريم «هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين».

٦ – الدليل على الخيانة في الأدب: إذا عدنا إلى بعض الآثار الأدبية نجد أنّ الزوج هو الذي عادةً يتهم زوجته بالخيانة والأمثلة كثيرة منها مأساة عطيل ١٦٠٤م، للمسرحي الإنكليزي وليم شكسبير ١٥٦٤–١٦١٦م، يتهم عطيل قائد الجيوش في البندقية وهو مغربي الأصل، زوجته بالخيانة، يقنعه ياجو، بوجود علاقة بين ديدمونة، زوجة عطيل وبين كاسيو، والدليل

على ذلك أن منديلها مع كاسيو، علماً بأنّ منديلها سقط سهواً منها فأخذته إميليا زوجة ياجو، وأعطته لزوجها، الذي رماه في غرفة كاسيو، والمنديل هدية من أم عطيل لابنها، التي تلقته بدورها من ساحرة مصرية، وأوصتها بعدم التفريط بالمنديل، وتنتهي المأساة بموت عطيل بعد أن خنق ديدمونة، والدليل باطل، إذ تعترف في نهاية المأساة إميليا زوجة ياجو بفعلتها، ويعترف كاسيو بأنه وجد المنديل في غرفته ويرى عطيل أنّه «خير للإنسان أن يخدع كثيراً من أن يعلم بخديعته قليلاً»[٣].

يتناول الشاعر الروسي ليرمنتوف ١٨١٤ - ١٨٤١م، في مسرحيته «حفلة تنكرية» الموضوع ذاته.

تراود إيربنين شكوك بإخلاص زوجته نينا، التي تفقد سوارها في حفلة تنكرية، ويقع السوار بيدشخص أراد طعن إيربنين بكرامته.

أما في الرواية التي نحن بصددها، فالزوجة الثريا تتهم زوجها بالخيانة، وكانت رائحة العطر دليلاً أخيراً، بالإضافة إلى الأدلة السابقة، علماً بأنّ سهيل الشحود كان إنساناً شريفاً في بيته وفي وظيفته.

فتركت الثريا بيتها وظنّت أن زوجها سيأتي حاملاً الراية البيضاء، إلا أنّه لم يفعل ذلك.

شعر سهيل الشحود بحرية كاملة بوحدته، لقد كانت قبضتا الزوجة كالانشوطة حول عنقه، وتساءل: ماأعذب الحرية أنساماً عليلةً تدخل الصدر وتنعش القلب وتذكر قول أحدهم: (الحبّ لدى المرأة هو أن تربط الرجل إلى كعبها، فإذا لم تستطع ربطت نفسها إلى كعبه) ومضت فترةً طويلةً، دون أن يبوح بوضعه الجديد في البيت لزملائه في العمل إلا أنّ صديقه همت كشف الأمر فقال له: «اطلب النجدة، أرسل إشارة استغاثة»، وسهيل مرتاح لتخلصه من سجن الأسرة، مع أنه بين الحين والآخر يحن إلى جسد زوجته الغض، أما هي فتشعر بالبراكين بداخلها، وتؤكد لها أمها أنها لعبة عض أصابع.. من يصبر فيها يفز، «ورغم أن المرأتين لم تكونا قد درستا في

أكاديمية عسكرية، إلا أن الخبرة الحريمية المتراكمة عبر آلاف السنين كانت قد هدتهما إلى أنّ الظهور أمام الخصم والتعرض له من حين إلى حين هو أفضل السبل لاخراجه من مكمنه وجره إلى المعركة[٤]:

وهي تحبّ، ولكنها تريد منه أن يصرخ أولاً طالباً النجدة، وأرادت الثريا أن تتعرض لخصمها في عقر داره وأن يراها الخصم ويحس بوجودها.

كل منهما يطلب من الآخر أن يرفع الراية البيضاء إلى الأبد، وبدأت المناوشة بالهاتف، والمناوشة دائماً دافع مباشر للحسم، وشكل من أشكال حرب الاستنزاف، وذهبت إلى بيتها وأخذت ملابسها الشتوية وبعدما تشاورت مع الأم التي ارتأت اتباع أسلوب جديد، رسائل المضايقة والاتهام، ونسخت عشر رسائل، صورة طبق الأصل عن اتهام يتناول سهيل بالسخرية، هو موظف في قسم حماية الآداب، يعمل لتخريب الآداب، يقوّد على الفنانات، ويسهل لهن الدعارة، ويقبض خمسين بالمئة من وارداتهن.

وعندما ذهب لعند زوجته، بعد هذه الرسائل ظنت أنه جاء رافعاً الراية البيضاء إلا أن أخويها، دون أن يتفهما، أنه جاء للعتاب فقط، هجما عليه دفاعاً عن أختهما الثريا، لسماعهما صراخها، فتجمع عليه أهل الثريا وهم الأخوان خيرو ووليد، أحدهما يحمل ساطوراً والآخر مقصاً، والأم والجدة وطفلان ووالدة الثريا.

أطلق عليهم النار ثلاث عشرة طلقة مدافعاً عن نفسه، فأصيب الجميع بجروح إلا العجوز نجت من الإصابة إلا أنها ماتت بسكتة قلبية متأثرة بالصدمة.

هرب سهيل الشحود، وفي عينيه ظلام دامس، وتذكر قول الفيلسوف الإغريقي انكسيمندريس، أنّ الإنسان كائن، يجب ألا يوجد، لكنه يكفر عن وجوده بالآلام، وأخيراً بالموت، وإذا كان الماضي يحتل القلب والحاضر يحتل الذهن والمستقبل يحتل الخيال، فإن سهيل لايفكر إلا بحاضره، وبالتكفير عن خطيئته.

وبدا سهيل كأنه كبر خلال ليلة واحدة عشر سنوات ونصحه زملاؤه بالتمسك بحجة الدفاع عن النفس، ونقلت الثريا وأفراد أسرتها الى المشفى، ونجت زوجة الأخ واسمها ديمة من الكارثة، لأنها كانت خارج البيت في تلك الساعة، والتي أخذت تزور أفراد الأسرة في المشفى، وتلوم الثريا لسماحها لوالدتها بالتدخل في حياتها، لأنها هي التي فتحت ثغرة، دخلت منها العاصفة، وأخذت الثريا بدورها تلوم أمها التي رأت حريقاً شب في بيتها، فصبت على الحريق البنزين، وتلوم نفسها لأنها أرادت ربط سهيل بجنزير من عنقه، فلا يتحرك إلا بمقدار ماترخي له ذلك الجنزير، إنها فكرة جهنمية، ولامت الثريا سهيلاً نفسه لأنه صبر وتسامح، فتمادت هي وكبر الخطأ، وتبين لها وهي في المشفى أن الزوج أغلى من الأخ والابن فعارضت الإعرابية التي قالت الزوج موجود والابن مولود أما الأخ فمفقود وتذكرت أيامها الأولى مع سهيل، وكانت واثقة أنهما فتحا برميل الزواج من جهته الصحيحة، فخرجت لها طبقة العسل... [٥].

وتتذكر أنها كانت «تدخله الحمام، تحممه بيدها، وكم كانت تستمتع بذلك[٦]، «وتمسك بلسانه، تدفع بلسانها إلى فمه حتى يتحد الفمان فماً واحداً... وعلى الفراش يغدو سهيل فارس الفرسان»[٧].

٢ - وضع سهيل بعد الحادث: كان الحادث قد ترك بصماته على سهيل، وأبرزها عزوفه عن الناس، وفقدانه الثقة بهم.

وتذكرنا حالته بحالة بعض الشخصيات في الأدب، الذين أقدموا على جريمة، وبعد ذلك ابتعدوا عن الناس، مثل شخصية راسكو لينكوف في رواية «الجريمة والعقاب» ١٨٦٦م لدوستيفسكي ١٨٢١- ١٨٨١م.

يلتقي راسكو لينكوف، بعد تنفيذه جريمة قتل العجوز وأختها، يلتقي أخته وأمه، وعلى الرغم من طول الفراق الذي طال مدة ثلاث سنوات، وأنه الابن الوحيد والأخ الوحيد، فيقول لهما: «تنازلوا عن لقائي، إذا كنتم تحبونني، وإلا شعرت نحوكم بكره وبغض، إنني أحس بهذا.. وداعاً»[٨].

نجد مثل هذه الحالة في رواية «اللص والكلاب» ١٩٦١م لنجيب محفوظ (مواليد ١٩١١)، إلا أنّ الأمر معكوس.

هناك ابنة سعيد مهران، لاتريد رؤيته بعد خروجه من السجن» وإذ بها- كما يقول نجيب محفوظ - تفرمل قدميها في البساط، وتميل بجسمها إلى الوراء، ينزع منها عينيه، ولكن قلبه انكسر، انكسر حتى لم يبق فيه إلا شعور الضياع، كأنها ليست بابنته»[٩].

ولاينفصل وضع بطل الرواية، عن وضع الوطن، ويفكر في هزيمة حزيران ويقول عنها: «لقد وقعت الهزيمة، وقوع الصاعقة، فزاغت عيون، وتاهت عقول.

جندٌ تخلوا عن أرضهم، قادة تخلوا عن جندهم، ولم يحاسب أحد أحداً، فضاع الصالح بالطالح، واختلط الحابل بالنابل... هذا هو صوت البطل.

وبعد ذلك مباشرة نسمع صوت المؤلف إذ يقول: «سهيل رأى بأم عينيه حالة الفوضى، وهي تمتد من جبهة القتال إلى جبهة الداخل... فتفسد النفوس، ويشتد بها السوء»[١٠].

عرف سهيل من محاميه أنّ الدفاع عن النفس لايبيح له أن يضرب الناس خبط عشواء، ولكي يتخلص من حكم القاضي، نصحه زملاؤه بالتظاهر بالجنون، وبالفعل نقل إلى مشفى الأمراض العقلية، وحاولت هناك الثريا زيارته إلا أنه رفض لقاءها رغم أنها رأته وعرفت أن السترة التي يرتديها هي سترة طقم العرس، وعرفت من خلال زيارتها للمشفى أنّ الإنسان بلا عقل يعود مجرد وحش من وحوش الغابة، وتذكرت قول الفيلسوف (كانت) الذي قال: شيئان يملآن نفسي إعجاباً، تلك السماء التي فوق رأسي، وذلك الضمير الذي في داخلي، والشيء الثالث هو العقل، واستغربت أنّ المجنون لايعود يعرف الشهوة الجنسية، واستغرب سهيل كيف وصلت الثريا إلى المشفى، فهو لم يسمح لأخته عائشة بزيارته.

أصدر القاضي حكمه على سهيل بالسجن مدة سبع سنوات مع وقف التنفيذ، ينفذها بعد شفائه، وشهدت الثريا لصالحه لأنها تحبه شهادة زور، بأنها عانت الكثير من نوبات الجنون التي كانت تنتابه، وطلب منها أهلها تقديم طلب تفريق لأنّ المجنون بحكم الميت، والمرأة لاتبقى على ذمة ميت، فوافقت، في الوقت ذاته الذي أقدم به سهيل على طلاقها، وهرب من المشفى في ليلة ماطرة عاصفة باتجاه البادية، وعرفت الثريا أنها بيديها غرزت الخنجر في ظهره وأنها كسّرت زوجاً وهدمت بيتاً وحطمت حياةً، فلقد خاضت حرباً قذرةً مجرمةً ضد حبّها، وكان الخصم حبيبها، فهي التي أنتزعت قلبها من صدرها وأوسعته طعناً بالخناجر والسكاكين، وعندما عرفت بهروبه، فتشت عنه في بيتها وعند أخته، التي قالت للزوجة: إنها جاسوسة تريد إعادته الى القضبان.

أما بالنسبة لسهيل فسار على قدميه ثلاث ليال، يسري ليلاً ويختبىء نهاراً إلى أن غابت عن ناظريه المعمورة، والتقى براعٍ اسمه علاوي يعمل لدى منصور القواسمه الذي يملك أكثر من ألف رأس.

وأخوه فواز نائب البرلمان اللبناني. وغيّر سهيل اسمه فأصبح سهل الحمود، وعمل سائقاً للبيك أب، وانتقل مع البدو إلى لبنان، لأن آل القواسمه يتنقلون بين سوريا ولبنان.

٣ً – موضوع الصراع على الوجود في الرواية:

بدأ هذا الصراع بين سهيل وزوجته، وكانت التعابير التي يستخدمانها تدل على أن الوضع بينهما وضع مجابهة، إنها معركة بين اثنين بين الأرض والسماء بين الثرى والثريا بين سهيل وزوجته الثريا.

وعندما عبر سهيل الحدود السورية – اللبنانية مع منصور القواسمه تذكر القرى الأربع التي مازالت تتكلم اللغة الآرامية، وتأمل سهيل الظاهرة العجيبة وهي أن تكون لغة ما سائدة، تأتي لغة أخرى لتخوض معها معركةً ضروساً. . المنتصر فيها يبقى، والمنهزم يموت، هو ذا قانون الحياة، البقاء للأقوى.

ومشى سهيل ثلاثة أيام باتجاه الغرب، باتجاه لبنان أيّ عكس الاتجاه الذي سلكه سابقاً، ولكن المدة ذاتها، وكان يستريح في الليل ويسير في النهار أيّ على عكس مافعل عندما هرب من المشفى.

والصراع على الوجود قائم بين الإنسان وأخيه الإنسان، وكذلك بين شعب وشعب آخر، تجري أحداث الرواية، كما ذكرنا بعد الخامس من حزيران عام ١٩٦٧م، العام الذي احتلت فيه اسرائيل كلاً من الجولان والضفة الغربية وسيناء.

وكذلك فإن انقضاض الذئاب على المواشي في الليل، ماهو إلا جزء من اللوحة، التي رسمها المؤلف عن صراع الوجود وسقطت ثلاث عشرة شاةً في تلك الليلة ويذكرنا العدد ثلاثة عشر بعدد الرصاصات التي أطلقها سهيل في بيت أهل زوجته.

والعبارة التي يبدأ بها المؤلف الفصل الثامن وهي «ماالليث إلا خراف مهضومة» تعكس أيضاً الصراع على البقاء، إنها سنّة الأضداد، لاتقوم إلا على أكتاف الآخرين، لايظهر غني على السطح، إلا ويغرق ألف فقير إلى القاع»(١١).

وتقوم سلطة فواز على قوة تتطلب أن تتزايد باستمرار، وإن لم تتزايد تناقصت، وإن تناقصت مرةً واحدةً انتهت.

والمال هو المصدر الأكبر للقوة، ويسعى الجميع لكسب أقصى مايكن من المال.

ولذلك يرعى فواز مشروع زراعة الحشيش لأنه يكسب منه الكثير، وهو كما يقول عنه المؤلف، يمسك السوط بيد، ويمسك باليد الأخرى كيس المال، يوزع من هذا، ويهدد بذاك وفواز ومنصور القواسمه أخوان من أصل اثني عشر أخاً وهو عدد فصول الرواية، ويجسد فواز القواسمه مبدأ الفهم السوي والزند القوي والكف السخي في قيادة قومه.

ويقوم الصراع على الوجود بين الأزمنة أي بين عصر وآخر، بين مرحلة تاريخية معينة ومرحلة تاريخية جديدة.

ففي الرواية هيفاء زميلة الثريا في العمل، والتي تخرجت من قسم الفلسفة، وتؤمن بالفلسفة الوجودية، ترى أن على المرء ألا ينظر إلى الوراء إلا غاضباً أو رافضاً، وكما يقوم الصراع على الوجود بين ممثلي اتجاهات فكرية معينة فعلى سبيل المثال يؤمن سهيل بالعقل، ويتقيد بمبادىء أخلاقية صارمة ويختلف مع الشيخ الذي يستأجر غرفة عنده في بيروت، في وجهات نظر كثيرة، منها إيمان سهيل بضرورة الجدال والاجتهاد، «وجادلهم بالتي هي أحسن».

في حين كانت للشيخ وجهات نظر مخالفة لوجهة نظر سهيل.

والمعركة التي جرت بين سهيل وأهل زوجته ماهي إلا صراع بقاء ووجود، والصراع الذي قام بين الثريا وزوجها، إنه صراع بين أهل البيت الواحد، وكأنه يعكس الصراع القائم بين العرب أنفسهم.

كذلك يقوم الصراع بين عشيرة القواسمه والعشائر الأخرى، فلقد قتل منصور القواسمه ثلاثة أفراد من عشيرة أخرى، ودفع حياته ثمناً لجريمته فيما بعد، ويقوم الصراع على الوجود بين سلطة الدولة التي تحاول زراعة الحشيش وسلطة الشيخ فواز القواسمه الذي بالسلاح والرجال والسياسة والنقود استطاع إعادة قوات الجيش إلى قواعدها، والاستمرار بخرق القانون، وزراعة الحشيش وتصنيعه وتهريبه.

٤ – تصوير المؤلف للفساد:

عمل سهيل في دمشق في قسم حماية الآداب، وكان القسم لايحمي الآداب دائماً، أما في لبنان فتعتبر زحلة وبعلبك مركزين رئيسين لتصنيع مادة الحشيش وتهريبها الى العالم والمردود يساوي مئة ضعف مردود الشعير أو الحنطة فيعمل سهل الحمود لدى النائب اللبناني فواز سائقاً ويحصل على هوية لبنانية وشهادة سواقة لبنانية، وتعمل أسرة القواسمه في زراعة الحشيش والتجارة به.

وفي نهاية الرواية وبالتحديد في الفصل الحادي عشر، يسافر سهل مع الشيخ فواز الى دمشق، لانقاذ رجاله من عناصر قسم حماية الآداب العامة

وبالفعل استطاع الشيخ فواز إخلاء سبيل رجاله الخمسة بالمال والذهب، واستطاع سهيل عن طريق النائب فواز الحصول على مصدقة شهادة الثانوية اللبنانية وانتسب إلى كلية الحقوق، ويقول المؤلف عن بيروت: «في بيروت كما في كل العواصم الشقيقة الأخرى، كل شيء يصير وأي شيء لايصير، الفارق الوحيد بين الحالتين هو الأداة والوسيلة، فإن كان لديك المال الوفير، يمكنك أن تشتري الشهادة الجامعية والهوية وجواز السفر وأي شيء تريد، كذلك الأمر إن كان وراءك امرأة جميلة، أو متنفذ كبير، أو مسؤول خطير ولكن إن عدمت هذا وذاك وجدت نفسك أمام حائط عال، الطرق كلها مسدودة في وجهك وليس باستطاعتك أن تصل إلى شيء»[١١].

٥ - موضوع الهروب إلى أحضان الطبيعة:

تنتمي رواية «في البدء كانت الحرية» للمدرسة الواقعية النقدية، إلا أنها تتصف ببعض خصائص المدرسة الرومانسية.

فمن المواضيع التي عالجتها المدرسة الرومانسية، موضوع هروب الشخصية الإيجابية من المدينة، حيث يسود الفساد، بنظرهم، إلى أحضان الطبيعة، حيث العفوية والبساطة، هكذا على سبيل المثال هرب اليكو - بطل قصيدة (الغجر) ١٨٢٤ لبوشكين (١٧٩٩ - ١٨٣٧م) من المدينة إلى الطبيعة حيث يعيش الغجر ليكون مثلهم «إنساناً متحرراً من كل القيود»[١٢].

وتزوج غجرية اسمها زمفيرا التي تذكره بأهله وبلاده وأرضه فيجيبها بأنه متحرر منهم، لأن هناك الحب محتقر، والحرية تباع، والفكر يذبح ويركع الرجال أمام أصنامهم، بصورة معينة، من أجل الذهب والقيود وعاش اليكو مع زوجته زمفيرا الغجرية ووالدها، إلا أن زمفيرا خانت اليكو، فقتل عشيقها وبعد ذلك قتلها، وطلب منه والدها أن يتركه لأنه متكبر ويتقيد بتقاليد لاتنطبق على تقاليد الغجر، فهم متواضعون، ولايريدون أن يبقى قاتل بينهم.

سهيل الشحود الذي يعيش في مركز مدينة دمشق، حي الساروجة، ويعمل في مركزها، قسم حماية الآداب العامة، أي أن مكان عمله الحقيقي هو الملاهي والفنادق، وهي في مركز العاصمة.

يضطر هذا الدمشقي للهرب إلى البادية مشياً على الأقدام في ليلة ماطرة، وعبر مشفى الأمراض العقلية، مع أنه سليم منها.

ولكن هل وجد في البادية العربية الأخلاق السليمة، والمبادىء الصارمة، أم أنه هرب من فساد إلى فساد آخر؟ وجد سهيل شحود آل القواسمه يزرعون الحشيش ويصنعونه ويهربونه ويستغل النائب فواز القواسمه منصبه وحصانته لهذا الغرض، ويطلب من سهيل الشحود، الذي أصبح يعمل سائقاً ألا يتوقف لأية دورية، إذ أنه ينقل حقائب الحشيش، دون أن يدري.

كان سهيل يحمي الآداب العامة بحق، في حين أن رئيسه الرائد عبد المعطي والآخرون يستغلون وظيفتهم للرشوة، وكان ينتقدهم، ولكن هل الفساد الذي كان يحاربه موجود في الفنادق والملاهي؟ إنه موجود في أكثر من مكان فلقد استأجر في بيروت غرفة في بيت لشيخ، الذي ماأن يذهب لتأدية صلاة الفجر حتى تنسل زوجته نزهة، وهي ليست نزيهة إلى غرفة سهيل، إلا أنّ سهيل رفضها دون أي تردد، والوجه الآخر للفساد، هي المضايقات التي تعرضت لها الثريا في دمشق بعد طلاقها من سهيل، فهي من دمشق تعمل ضاربة آلة كاتبة، وبعد طلاقها أصبحت كقلعة بلا حراس أو كنعجة بلا راعٍ، فلماذا لاتغتنم الذئاب الفرصة؟ وكان زميلها في العمل واسمه عمر أول أولئك الذئاب، ففشلت محاولته وبعد ذلك حاول رئيس القسم يحيى، وباءت محاولته بالفشل وشعرت بأنها غزالة في غابة وأن الرجل صياد يتنكب قوسه وسهامه، وإذا ماوقع عليها صوب إليها سهامه ليلقيها أرضاً.

هي طريدة، فيحاول اصطيادها رئيس الدائرة، واسمه مظهر، وهو متزوج، يريد أن يتزوج منها سراً، ولاسيما أنها لاتنجب، وزوجته أتلفها الحمل والولادة، ولم تعد صالحة للفراش.

وتخلصت الثريا من التجربة الثالثة والأخيرة.

وعرضت ماحدث معها لأمها، التي صبت لعناتها زخات مدرارة على الرجال جميعاً كهولاً وشباباً.

وهي لاتريد الزواج لأنها مازالت تحب سهيل وتعلم أنه يحبها، وانها كحواء أنزلته من الجنة، ولقد لعبت بالنار، فحرقتها النار، ولاتستطيع أن تنظر إلى المستقبل إلا من خلال الماضي.

فموضوع تصوير الفساد مرتبط بالموضوع الذي سبقه، وهو موضوع الهروب من المدينة إلى أحضان الطبيعة، أي الهروب من الفساد إلى البراءة والعفوية.

٦- شخصية البطل الإيجابي:

لابد من وجود نجم ساطع في ذلك الزمن المظلم، يتطلع الناس إليه، عندما تظلم لياليهم إلى من ينقذهم من الظلام، إلى إنسان يتخلص من عيوب الآخرين، ويقودهم إلى الطريق المستقيم، نجد في هذه الرواية سهيل الشحود يتصف بصفات إيجابية، فهو صادق مع نفسه ومع الآخرين، يتمتع بقوى عقلية وجسدية وجمالية، ويبدو أن المؤلف يخالف تولستوي الذي كان يرى أن العالم الداخلي للإنسان كثيراً مايتناقض مع عالمه الخارجي، فإذا كان جميل المحيا كان في الوقت ذاته قبيح الروح.

أما الروائي الأستاذ عبد الكريم ناصيف فلقد وصف بطل الرواية بصفات جسدية وروحية جميلة.

ولقد أخلص البطل لجاره الشيخ أبي موسى الذي توفي فيما بعد بسكتة قلبية، وشارك سهيل في مراسم دفنه وفي العزاء، وأخلص لنفسه وأخلص لمنصور وفواز القواسمه. وأحبته الثريا حباً لامثيل له.

وبعد زواجها من مروان الرواس التاجر الدمشقي، الذي هاجر الى بيروت في فترة معينة، والذي عاش وعمل في مركز دمشق فترة من الزمن، وفي بيروت أصبح يصدر جلود المواشي وأحشاءها بعد معالجتها وكسب أموالاً طائلة، وأصبح حوتاً حقيقياً في البحر المتوسط وأصبح كل من حوله أسماكاً صغيرة، لاتؤخذ بالحسبان. وأنجبت الثريا طفلتين وطفلاً.

وكان لمروان الرواس ابنة من زوجته الأولى اسمها روشان تدرس في كلية الحقوق ببيروت، تعلقت هذه الفتاة بسهيل الشحود، وهو الآن زميلها في الكلية، تعلقاً، يكاد يكون جنونياً، فلديها سيارة وهي جميلة وفي ريعان شبابها «وعاطفية شديدة الحساسية تصل إلى حد الرومانسية»(١٤).

ومرضت بسبب حبها له، ومع ذلك مازالت تلهث وراءه وهو غامض أكبر منها سناً، لهجته ليست بيروتية تماماً.

وبناء على طلب روشان، يبحث عنه والدها، في الجامعة، ويتحدث معه.

واستغرب الوالد أن ابنته التي لايعجبها العجب ولا الصيام في رجب، مرضت بسبب سهل الحمود.

وكما هو معروف، فإن تصوير البطل الإيجابي عنصر من عناصر الواقعية الجديدةوكذلك تحتم المدرسة الأدبية الآنفة الذكر»... أن يبث الكاتب في تصويره للشر دواعي الأمل في التخلص منه..»(١٥)، أي على الكاتب أن يبث روح التفاؤل في نفوس القراء.

ومع أن الرواية تتصف بهذه الصفة، وهي من خصائص الواقعية الجديدة، إلا أنها بمجملها تنتمي للواقعية النقدية.

٧ - موضوع القدر:

مهما كان الإنسان قوياً وجباراً، فهو أضعف من قدره، ولاحظنا في بداية الرواية تأملات سهيل الشحود عن القدر، ولقد عادت إليه الأفكار المذكورة، أثناء حضوره حفلة المطربة الكبيرة أم كلثوم في بعلبك: التي كانت تغني:

ياحبيبي كل شيء بقضاء ما بأيدينا خلقنا تعساء

وتختتم أم كلثوم أغنيتها فتقول:

لاتقل شئنا، فإن الحظ شاء

وعلى الرغم من أنّ هذه الفكرة هامة، إلا أنّ سهيل الشحود لايؤمن بها، يرى سهيل: «فمن المستحيل أن تكون هناك حتمية وضرورة تجعل أعمالنا وأفكارنا، بل وحتى أحاسيسنا تسلك طريقاً محدداً، لايستطيع أحدٌ أن يحرفه قيد شعرة؟ يستحيل أن يكون الإنسان مسيراً كآلة بكماء صماء، يستحيل أن تكون هنالك ضرورة قاسرة آسرة، إلى درجة تلغي الإنسان، عقله، تلغي إرادته، لا . . . لا . . . الإنسان يصنع قدره، يغير الواقع، يبدل الظروف، فقط حين يملك العقل الراجح والإرادة الصلبة الحرة»[١٦].

ويبدو أن الفكرة الآنفة الذكر هي من الأفكار الأساسية في الرواية، هذا إن لم تكن الفكرة الأساسية.

وخلاصتها أن الإنسان حر ومخير قبل أن يكون مسيراً، وعلى الرغم من أن المؤلف هنا ينفي وجود القدر والحتمية، إلا أن هذه الفكرة تقلقه، ويبدو أنه يؤمن بها ولكن إلى حد معين.

فعلى الرغم من إيمان سهيل بأنه يصنع حياته بنفسه، إلا أننا نجده ضعيفاً أمام قدره.

استطاع سهيل الحصول على شهادة إجازة بالحقوق وهو اختصاص بحاجة إليه لأنه خارج عن القانون وهو بذلك يشبه راسكولينكوف بطل رواية (الجريمة والعقاب) ١٨٦٦ لدوستيفسكي ١٨٢١- ١٨٨١ وراسكولينكوف كان طالباً في كلية الحقوق وكذلك يشبه رؤوف علوان بطل (اللص والكلاب) ١٩٦١م لنجيب محفوظ، فبطل الرواية المذكورة تخرّج من كلية الحقوق.

ودرست معه في الجامعة روشان وأحبته، وطلب يده لها والدها مروان الرواس، الذي يبلغ عمره أكثر من خمسة وخمسين عاماً، وعرف

مروان الرواس سر سهيل الشحود، الذي كان يعلم أن زوجته السابقة الثريا قد تزوجت في لبنان إلا أنه لايدري أن مروان الرواس زوجها، وشاءت الأقدار أن تجتمع الثريا في البيت ذاته مع روشان التي تحبّ سهيل، وفي يوم السادس من تشرين الأول تذهبان لعنده الى البيارة، وتتكشف الأمور كلها وتعبر الثريا عن رغبتها في التخلي عن بنتيها وابنها وزوجها في سبيل سهيل، إلا أنّ سهيل رفض قبول تضحيتها، وقبل روشان، ورأى ضرورة العودة إلى سوريا، التي بأمس الحاجة الى أمثاله في الساعات السوداء، ساعات الحرب «سأمضي إلى هناك، أقاتل البغي والعدوان وضحَّت روشان من أجله بالذهب والفضة.

لم يكن سهيل الشحود حراً، عندما كان وطنه مكبلاً مذلاً مهزوماً بعد الخامس من حزيران ١٩٦٧، وكأن سهيل نال الحرية عندما نالها وطنه أو عندما ذاق وطنه طعمها في حرب تشرين التحريرية.

حرية الفرد هنا ليست منفصلة عن حرية الأمة والأستاذ عبد الكريم ناصيف تناول قضية وطنية من خلال تناوله مادة اجتماعية أسرية.

للقدر، كما قلنا، سلطة في أحداث الرواية، وبذلك نتذكر مأساة «أوديب ملكاً» للشاعر الاغريقي سوفوكليس (٤٩٦ - ٤٠٦) قبل الميلاد.

اتصف اوديب بصفات خارقة وحاول الهرب من قدره فهرب إلى قدره، وفهم أرسطو (٣٨٤-٣٢٢) قبل الميلاد في كتابه (فن الشعر) مأساة أوديب على أنها من مأساويات القدر مع أن فرويد ١٨٥٦ - ١٩٣٩ خالفه الرأي.

يرصّع الروائي روايته بأقوال مأثورة من الكتب السماوية «التوراة والإنجيل والقرآن الكريم»، وأجاد في استخدام الحبكة الروائية فلا تكلف في سرد الأحداث، وهناك مفاجآت، تذكرنا بالعالم الروائي للكاتب الروسي دوستيفسكي (١٨٢١ - ١٨٨١)، الذي استخدم المفاجأة ليس بهدف التشويق فحسب، وإنما هي مفهوم فلسفي، فالإنسان يخطط لعمل معين

بدقة، ولكن يحدث معه أمر آخر، لأنّ عالم الحياة أوسع بكثير من عالم الحساب والرياضيات.

أنت تحسب اثنين ضرب اثنين يساوي أربعة، أمّا الحياة فقد تعطيك نتائج أخرى فعلى سبيل المثال ذهب سهيل لبيت زوجته للعتاب فقط، فخرج من هناك مجرماً، الأمر الذي غيّر حياته وحياة زوجته تغيراً جذرياً.

ويبقى السؤال مطروحاً: من هو سهيل الشحود؟ هل هو رمز الجولان الذي سلب في الخامس من حزيران عام ١٩٦٧؟ أم أنّ سهيل الشحود يرمز الى الوجدان العربي الذي أصيب في نكسة حزيران واستيقظ في السادس من تشرين الأول؟ هل هو الوجدان الذي يقرع قلوب المرتشين؟ أمثال الرائد عبد المطيع الذي ترفع إلى رتبة عقيد وأصبح يعمل في نهاية الرواية في مركز الحدود السورية - اللبنانية، والشيخ فواز الذي ينادي في البرلمان بالديموقراطية وسيادة القانون، ويعمل بزرع وصناعة وتهريب الحشيش، ويقرأ كلمات في مجلس البرلمان يطلب من الآخرين أن يكتبوها له، والشيخ أبي موسى الذي ترك ثروة هائلة من مصادر سرية، وزوجته نزهة التي حاولت خيانته وهو على قيد الحياة، وأقامت علاقة مع شاب بعد وفاته.

هل سهيل هو الوجدان الذي استيقظ، في قلوب الناس ولكن كالعادة لفترة وجيزة؟

وخلاصة القول، الرواية هي نشيد الحرية، وماأحوجنا إليها، وتعني الحرية هنا حرية الوطن والمواطنين، الفرد والمجتمع، حرية البلاد والعباد، كما يقولون، لأن الحرية هي حجر الأساس في أي بناء، فالعبد لايستطيع العطاء، وهذا معروف منذ أقدم الأزمنة. والرواية رواية فكرية فلسفية تطرح مجموعة من الأسئلة التي أقلقت الإنسان بوجه عام في كل زمان ومكان، والتي أقلقت الإنسان العربي بوجه خاص، في مرحلة معينة ومازالت تقلقه الى يومنا الحاضر، وهي رواية اجتماعية، ينادي المؤلف بمحاربة الفساد، وهو في كل مكان، حتى في البادية العربية، التي نحاول أن نظن أنها مازالت

محافظة على نقائها، والرواية هي صرخة ضمير حيّ، كتبها الروائي بقالب فني متميز، ونحتاج إلى مزيد من التأمل والدراسة، ولاسيما أنّ الرواية العربية في سوريا أخذت في الآونة الأخيرة تحتل مكانة مرموقة في الرواية العربية والعالمية.

الهوامش والمصادر

١ - عبد الكريم ناصيف، في البدء كانت الحرية، دمشق ١٩٩٤م ص٢٢.
٢ - المصدر المذكور، ص ٢٧.
٣ - وليم شكسبير، المؤلفات الكاملة، ط١، ١٩٩٠ المآسي المجلد الرابع ترجمة خليل مطران ص ٧١.
٤ - في البدء كانت الحرية، مصدر سابق ص ٣٦.
٥ - المصدر السابق، ص ٥٦.
٦ - المصدر السابق.
٧ - المصدر السابق ص ٥٦-٥٧.
٨ - دوستيفسكي، الجريمة والعقاب، موسكو، دار رادوغا، ١٩٨٩، المجلد الثاني، ترجمة الدكتور سامي الدروبي ص٦٥.
٩ - نجيب محفوظ، اللص والكلاب. القاهرة، مكتبة مصر، ص١٤.
١٠ - عبد الكريم ناصيف، المصدر السابق، ص١٠.
١١ - المصدر السابق ص ١٥٧.
١٢ المصدر السابق ص ١٣٠.
١٣ - بوشكين، الغجر، بيروت، ١٩٨٢م ص١٠٧.
١٤ - في البدء كانت الحرية، مصدر سابق، ص ٢١٧.
١٥ - محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، بيروت، دار العودة، الطبعة الخامسة ص٣٩٧.
١٦ - في البدء كانت الحرية ص ١٨٨.

نافذة على العالم

ترجمة واعداد
كمال فوزي الشرابي

آداب

**** جاك ريدا، RÉDA الشاعر الفرنسي المحدث، نبذة عن حياته وأعماله وترجمة لبعض قصائده(*).**

الشعر الفرنسي الحديث وجاك ريدا

لايريد الشعر الفرنسي الحديث أن يحبس وجوده في عالم صغير أو في مذهب محدود. إنه

* كمال فوزي الشرابي: أديب وشاعر من سورية، يعمل في مجال الترجمة، من مؤسسي مجلة «القيثارة». من دواوينه: «قبل لاتنتهي»، «الحرية والبنادق».

يرغب- ولو تحت علامات السخرية والمثل المعمَّم- أن يعثر على المجال الذي كان مجاله في الحقب الكبرى. ويتضمن هذا المجال الانشاء الملحمي، أو السرد التعليمي، أو الوصف الكوني، وهكذا نرى بشكل أفضل أنه لاوجود لأية قطيعة بين أعمال أربعة من مشاهير الشعراء في العصر الحديث وهم سان- جون پيرس، وليوپولد سنغور، ورينيه شار، وبيير ايمانويل وسواهم من الشعراء المحدثين الذين لايتسع المجال لذكر أسمائهم. ويظهر هذا الطموح المتجدد في أشكال مختلفة أبرزها ما نسميه مع الروائي والشاعر الفرنسي ميشيل بوتور BUTOR «إرادة النثر Volonté de prose» التي تحرك بحسب رأيه الشعر الفرنسي المعاصر منذ فرنسيس پونج وهنري ميشو.

يمكن أن تأخذ «إرادة النثر» هذه الشكل شبه التقليدي لـ «قصيدة النثر» وذلك كما نراها لدى ايف بونفوا وجاك ريدا. فبعد النجاحات الكبرى التي جناها جاك ريدا بمجموعاته الشعرية (آمين، ١٩٦٨)، (والالقاء الملحن، ١٩٧٠) و(الدوران، ١٩٧٥)- وسنتحدث عنها بعد قليل-، وهي مجموعات فرضت صوته كأحد أكثر الأصوات حساسة وأهمية، أصدر شاعرنا مجموعته (أطلال باريس، ١٩٧٧) فمزج بذلك بين فن النثر وفن الشعر. ونتساءل هنا هل بقي «ضمير المتكلم المفرد Je» الذي يذرع شوارع العاصمة وأماكنها الغريبة وضواحيها، في انطلاقاته على الدراجة الهوائية، هو ذاته «ضمير المتكلم المفرد Je» في القصائد التأملية الكبرى؟ ما على نقاد الشعر الحديث ومتذوقيه إلا أن يقارنوا بين نصين متجاورين لعلهم يحصلون على جواب مقبول.

عاشق باريس الدرّاج ومجموعاته الشعرية

إذن، منذ ما يقرب من نصف قرن وجاك ريدا يذرع باريس، ويتذوقها خطوة خطوة وفي جميع الأوقات. اختفت كتيباته الشعرية الأولى، وضاعت مشروعاته الروائية القديمة في أعداد المجلة الشهيرة (دفاتر

الجنوب). وعرَّفت به أخيراً ثلاث مجموعات ذكرناها آنفاً ولكن لابأس من إعادة ذكرها وهي (آمين، ١٩٦٨)، (الالقاء الملحن، ١٩٧٠)، (الدوران، ١٩٧٥) وقد أعيد طبعها هي الثلاث معاً في مجلد واحد صدر عن دار غاليمار.

تتحدث هذه المجموعات عن مقاطعة اللورين، مسقط رأس جاك ريدا، باعتبارها مقاطعة خفية، فقدت رونقها أحياناً، كما تتحدث عن انفعالات بسيطة. تتخلص من علم ما وراء الطبيعة لتستقر في حقيقة الشأن اليومي، وفي تواضع الأشياء والذكريات. وهي تعزل أيضاً الأصوات العالية لتحل محلها الأصوات الخافتة.

مر جاك ريدا بتجربة (مجلة الجاز) وإدارة (المجلة الفرنسية الجديدة). ومنذ مجموعتيه (اطلال باريس، ١٩٧٧) و(خارج الجدران، ١٩٨٢)– وقد صدرتا أيضاً عن دار غاليمار– فرض جاك ريدا نفسه فلاحاً للعاصمة، فلاحاً يعرف كيف يعثر على زوايا الريف في أعماق كل مقاطعة، وعلى أصداء الريف في الضواحي التي يعتقد الناس أنها أصبحت أخيراً بيوتاً منطوية على ذواتها.

أضف إلى ذلك انه ما من حي أصبح آخر الأمر غير ذي أهمية: فقد بكر جاك ريدا في الاقتراب من أحد سكانه، واقامة مشاركة فيه، والكشف عن وجهة نظر تتعلق به. إنه المتنزه على الحزام الصغير، والمتسكع في المناطق الضائعة. إنه يروي قصائده بقصص نثرية تنسب إلى التقاليد المنفتحة بـ(لوحة باريس) لميرسييه[1] أو بـ(سأم باريس) لشارل بودلير. ولاتطول الحكاية أبداً لتصبح سرداً مملاً، ولاتثقل الملاحظة لتغدو شرحاً أخلاقياً. نثره بكثافته شعر ويبقى بخفائه وهمسه نثراً. وبينما يهجس سكان المدن بايقاع عصرهم وتنظيم أعمالهم وشؤونهم، يصغي جاك ريدا إلى الموسيقا الصغيرة المرافقة التي تعزفها اليد اليسرى وما من أحد يسمعها.

نشر جاك ريدا مؤخراً مجموعة شعرية ذات عنوان يوحي بمضمونها وهو (حرية الشوارع، منشورات غاليمار). وتجهل هذه الحرية التمييز بين الأحياء الجميلة والأحياء الشعبية، وبين المركز والضاحية، وبين الفسح السكنية والأراضي البور، أو تتخطى بالأحرى ذلك التمييز. وبفضل هذه الحرية يستطيع الحالم، على مقطع من الطريق أن يتأثر خطى الذين يشردون من الحساءات الشعبية إلى ملاجىء الليل، ويستطيع أن يلتقي خطوط سير مسلمي البضائع والمتنقلين من منازلهم. ولايبحث جاك ريدا مع ذلك عن أي ملجأ، ولايجبر على أية مسيرة مهنية. انه يخضع للايقاعات الخفية المنطلقة من المدينة، يخضع لقوة الكلمات ولضغط الاشارات التي يتظاهر بأنه قد نسي معانيها.

تحليل آخر لمجموعته الأخيرة (حرية الشوارع)

مع جاك ريدا الساحر تتحدث الجدران. وهي لاتتوقف عن الحديث. وإذا ما ملنا إلى تصديقه فإن الشوارع تظهر له بشكل جمل متكاملة، وتبدو المدينة نصاً يجب حل ألغازه، أو بالأحرى تبدو المدينة توضعات من الحكايات والأقاصيص لاتهمل من الماضي الضائع شيئاً. وأما الأرصفة فهي تنحني أمام اللامبالاة والحلم، ويخيل إلى المرء أن المباني الثقيلة تعاود قراءة دراسة داخلية تسوغ وجودها تحت مظهرها الخصب الأصم. ويتساءل الشاعر:

ولكن هل يوجد شيء آخر
غير ما هو موجود،
وغير حقيقة الأشياء ذاتها
حين يفر فوراً منا ما ينكشف لنا،
ثم يحملنا كالشوارع من بوابة إلى أخرى
لأن العالم يبدأ باستمرار؟

من هنا نجد أن النزهة تقود المتنزه بعيداً ما دام لا يشعر بالبرد ولا بالضجر ولا بالتفاهة... ويُسجَّل كتاب (حرية الشوارع) في قائمة المناهج والمناظر المتعلقة بجغرافية فتون نصب الشاعر لها معالم أو صُوَى في بعض قصائده كـ «وصايا إلى المتنزهين» و«عشب التلاع»... ومع أن جاك ريدا مترحل يسير بسرعة معتدلة فإنه يملك الموهبة النادرة لتصعيد ما يراه... إن الشيء المهم في نظره هو دوماً هناك... لا في أي مكان محدد: لا في شارع معين، ولا في رصيف مزهر، ولا في نهر ممتع... وما من شاعر يشبه جاك ريدا في جعله اللغة ترقص، وتأخذنا بعيداً لتجعلنا ننسى واقعنا اليومي المرهق.

وفيما يلي ترجمة لثلاث من قصائده:

١ – أبولو[٢]

تُختصر الأرض منهم كرائحة دخان.
وتحت الجمجمة الكثيفة التي تهوي نجوماً
أكثر مما يحوي الفضاء بأكمله
نقيس نحن ما بقي من أرض هنا، وقوفاً
في الايقاع الأساسي للسهل على الأودية
التي سبق لها أن امتزجت
نصف امتزاج بحبوب الحراثات،
بين الكتل المنكسرة في إرادتهم ضمها كرؤوس،
كتل ضاعت على الطريق التي ما تزال تغرق
في منعطفات
نحو الأسرار العتيقة لشجرة ميتة، لمشط في
نسيان الأعشاب مغروز– وما يزال نذير الغربان الثلاثة

شديد الوطأة الى اليسار مع دحرجة الغيوم
في الأخاديد التي حفرتها العربات.

* * *

ها هي السماء قد تراجعت فيهم،
وفيهم تتامى المسافة والوهم بلانهاية
عندما تكون السماء هنا هي التي ما تزال تقبل على الجباه
والجدران، وأناملها الزرقاء كأنامل أعمى
تبحث عن الفرق بلطف، قائلة: لكم أحبك، لكم أحبك،
أصغي، أهناك مسافة أخرى لنا غير الحب،
ولكن هذه المسافة حقيقية،
وكأبراج القرى
نحييها من بعيد بكل ما في قاماتنا من نهوض؟

* * *

هكذا تكلمت السماء، وهكذا ما تزال الأرض تتكلم.
في حضن السهل الذي يلين منحدرات تحت الأدواح
ما تزال الانكسارات الأرضية الكبرى تطلق ينابيع،
والأصوات، التي تعوم عند المساء مع الضباب الصديق،
تلمس البلور الأبدي، وتخالط حلم التلال.
ولكن حوار الممكن والقدر يستمر، فوق،
بيكمه الدائم كما يستمر الحوار بين القوس والسهم.
النداء في منتهى قوته، وجوابنا غامض.
(ومع ذلك تبعت الطريق
تحت سماء ترفض زرقتها هوة الكواكب،
ووصلت إلى القرب من جدار تنطلق منه لبلابة في الضياء
كأنها صبية-

لأنادي أيضاً، لأتذكر، وكان الجواب
هو الهواء الساكن فيما بيننا كأنه ابتسامة.)

٢- اعتدال الفصول

بحثت كيف تصنع المياه والصخور والأشجار والطيور
لكي تتعايش معاً، وكيف تتوالد الغيوم التي تمثل
العالم المتشرد، الايقاعي، المولود-
كما يتوالد الحلم المتحرك ذاته في عيون لاتعرف الغُمض.
وعرفت أن كثيرين لم يحظوا بمجد عشبة
في قمة تلة، وأنهم انحنوا تحت الظهر العريض للسماء
التي تتحملنا، وأن الريح تطرد في النور
علائم ما في الثلج من بلورات إلى الطين.
- أيها الرأس
المحروم هنا من كل سند، أين الجدار؟ (جدار
لعدم وجود أم، ولعدم النوم في أظلال حضنها).
ورأيت الفراغ يدخل في المظهر
مع البراعم التي تعود دوماً للمرة الأولى،
تدفعها قوة النسيان التي تنتزع من مرقده
هذا الجسم الواسع الصاخب بالنجوم وتخصبه
ثم تتركه على بابنا المفتوح كأنه إله (...).

٣- من ذكريات الطفولة

من نوافذ المشفى نشاهد منظراً جميلاً حقاً
على هذه الهضبات حيث تبعثرت
أشجار الزينة والسرو بانتظام
قرب أرض صغيرة مسوَّرة
يضحك فيها الاخضرار والرخام.

متنزهان أو ثلاثة في غلواء العمر
جاؤوا إليها في توجههم إلى الربيع ، فلتتوقف الشمس!
ليتأملوا بهدوء لربما (لا في المنتهى الشؤم وا أسفاه
لكل حياة بل أخيراً في موت الموت ذاته
وعذوبة أن يحرك المرء ابهامه ما بين الصفحات.
- بعد أن أبلت القرون بلاط الشارع
وآست حتى الألم الاحتفاظ باسم محفور على الحجر)
ومع ذلك كنت أصغي إلى أبي وهو يعاود حساباته
- من قروض ودفعات -
هو الذي صنع لي قبل أربعين سنة
من علبة ثقاب هذا المركب
الذي بقي في التيارات العميقة ،
وإذا جاء الطراد الأسود ليسد النافذة
فهل ستكون - قلت لنفسي - مساحة على مدى الحفافي
لهذا المركب لكي ينجو نحو الشرارة التي كنت أراها
في العين المعتمة للجنون ، وأنا انحني قليلاً
إلى اليسار (متوقفاً عن الاصغاء لأبي)؟
واعاود رؤية «جانين» في نهاية هذا المركب الضيق
وهي تترك يدها كما في فيلم تنساب فوق الماء
وجانب رأسها ينحني عندما لايعود بمستطاع الانهار
أن تنحدر ،
ويأتي في الخريف أيضاً موسمي المتلاشي
ما دامت الأيام لم تعد تقرأ أي أثر
إلا قليلاً من التاريخ في سماء الصيف وهي تدوي
بعبور الطيور والقاذفات الثقيلة التي غالباً ما تشبه أسماكاً هائلة ،

وحيث الموت لم يعد له معنى إلا عند آخرين،
الموت: هذه الكلمة التي تدرج بين كلمات أخرى
وبين البرق والعنب البري
وكاد مقذافي أن يرتق البياض الأبدي
لابياض الزنبق المثالي لسروالها
ولابياض قلبها حتى أنني أحببت وحدي- والليل يقبل-
امتداد المطلق على جدار بين العيون الباردة
لـ «بنات نعش»
وبين التأسي الأصم للماء وهو يحملنا.

**** (يوميات اختطاف) الرواية الجديدة لغبريل غرثيا ماركيز تفضح ما يجري في كولومبيا من عنف وفساد**

في شهر تشرين الأول عام ١٩٩٣ اقترحت ماروخا باشون وزوجها ألبرتو بياميثار على غبرييل غرثيا ماركيز أن يؤلف كتاباً يسرد فيه التجربة المؤلمة والغريبة التي مر بها هذان الزوجان خلال ستة أشهر. والواقع أن ماروخا كانت قد احتجزت من قبل الفريق المسلح لـ «كارتل ميديين MEDELLIN»، بينما بذل زوجها كل ما لديه من وقت وجهد ونفوذ للعثور عليها. من هذه القصة المتشابكة ولد كتاب قاسٍ، مؤثر، حنون، ممزّق هو مسيرة من الرعب يمكن أن نطبق عليها الجملة الشهيرة التي أتى بها خوسيه مارتي: «عشت في أحضان الوحش الهائل وأعرف ما تحويه أحشاؤه..». وكانت السيرة الأولى لهذه الرواية قد بدأت عندما أدرك المؤلف والشهود أن قضية ماروخا لايمكن فصلها عن قضية تسعة أشخاص آخرين تم اختطافهم في الوقت ذاته ولدوافع مماثلة في كولومبيا أغرقتها بالنار والدم قوات بابلو إيسكوبار. كتب غبرييل غرثيا ماركيز في المقدمة: «لم يكن المقصود قط الرهائن العشر على ما بينها من اختلاف... كما اعتقدنا في البدء، بل كان

المقصود عشرة أشخاص جرى اختيارهم بدقة، وأصبحوا ضحايا اختطاف جماعي خططت له ونفذته جماعة وحيدة لها هدف وحيد».

مر زمن كان فيه الكتاب الكبار ملتزمين. ونفهم من كلمة «التزام» الانحياز إلى أيديولوجيات معينة لم يكن أصحابها يتهربون من مخاطرها وأهم أسسها الكتابة. وثمة أسماء معروفة تمكن مناقشة مدى التزامها وأهميته، وأشهرها البير كامو، خوليو كورتاثار، اندره مالرو، أرنست همنغوي الذي شيد روايته (الشيخ والبحر) على قاعدتين خارقتين في تماسكهما ونقائهما وهما: «قد ينهزم الإنسان ولكن لايمكن تدميره، وقد يُدمَّر الإنسان ولكن لاتمكن هزيمته». ويعتبر غبرييل غرثيا ماركيز أحد أواخر الكتاب الذين يتحركون في كل مجال، ويحقدون على عصرهم بغية تقويمه، ويتحملون مسؤولية هذا الزمان الرديء شهوداً وممثلين ومؤرخين، ونضيف إلى هذه القائمة الموضوعية تماماً، ولكي نبقى في نطاق اللغة الاسبانية: كارلوس فوينتيس، وماريو بارغاس ايوسا، وخورخيه سمبرون.

أصبحت قضية ماروخا والبرتو اذن ظاهرة قومية. وكان يجب أن تعاد صياغة الكتاب، وأن تراجع الاتهامات، وأن يُعثر على حل «تقني» للمشكلة التي طرحتها «حكاية متاهية». ويؤثر عن غبرييل غرثيا ماركيز أنه خبير بالمتاهات، وقادر على الخروج منها. وفي تباشير الفجر الذي تتألق به سنونه السبعون لشد ما رأى هذا العميد الكبير للآداب الاسبانية الامريكية عبور عدد لايحصى من الشياطين، واستطاع أن يروض بعضها ويخضعها، كما جعل بعضها الآخر ينصرف انصرافاً غير مؤذ. في هذه الرواية كما في رواياته وأقاصيصه الأخرى يخلق على الدوام نوعاً من التطابق والتوازن في الملحمة العاطفية: فهناك من جهة عالم غرائبي، متمرد، وهناك من جهة أخرى واقع ملموس، وتاريخ بمعناه الكبير الشامل، تأتي لتندرج فيه وتتشابك تواريخ أو حكايات فردية، وومضات سير، وأجزاء كائنات، وكلمات، وأشباح... وإني لأذكر دوماً مجموعة قصص له عنوانها (مأتم

الجدة الكبيرة)، وأذكر بخاصة قصة قرية صغيرة تكتشف في دهشة وذهول مجيء أسراب من الطيور وتحطيمها النوافذ والحواجز لكي تموت في غرف البشر.

في هذه الرواية الجديدة (يوميات اختطاف) نعثر على الصلة الموجودة بين الرعب والصفاء. فغبرييل غرثيا ماركيز لايضع الإنسان في مركز العالم بل في مكانه الحقيقي سواء كان هذا المكان أساسياً أو ثانوياً. ويذكرنا بأن العنف ينتهي دوماً بأن ينهزم أمام الوعي والضمير.

يعيش سجناء هذه الرواية علاقات غريبة مع جلاديهم ومعذبيهم كما هي الحال دائماً. ويقودنا مؤلف رواية (الساعة الرديئة)، وهو كتاب موضوعه حبس السلام رهينة في يد الإرهاب، في هذا الاعصار من الفساد والمآسي، ولانملك إلا أن نطاوعه ونسير معه. ففي عام ١٩٩١ كانت كولومبيا تغرق في بحر من الدماء والمجازر: مئتا جريمة قتل في أقل من شهرين!... تلك هي الخلفية التي تنبسط أمامها هذه الرواية الشيطانية في تعبيرها عن بعض العنف الذي يعصف بكوكبنا الجميل. كان للقرون الوسطى عداواها من طاعون وكوليرا وجذام، فهل ترى الأزمنة الحديثة قد احلت محل هذا الموت الفجائي نكبات لاعلاج لها وأكثر خداعاً ومكراً باعتبارها مدرجة في ممارسات الدول كلها؟ من الصعب أن نرى في هذه الجرائم والمجازر التي يقترفها بابلو ايسكوبار ومن هم على شاكلته على ظهر كوكبنا وحياً من الله أو غضباً منه كما يشير إلى ذلك الأب أنخل في رواية (الساعة الرديئة). فكيف السبيل إلى الخروج من المتاهة؟ يتساءل الجنرال سيمون خوسيه في بوغوتا الثامن من نوار ١٨٣٠؟ وكيف السبيل إلى الخروج من متاهة العنف والفساد في كولومبيا اليوم؟ يتساءل غبرييل غرثيا مركيز الذي لم يحتمل جحيم الرئيس ارنستو سمبر وعدد من مثقفي كولومبيا الموالين له فقرر أن يبتعد عن بوغوتا ويذهب إلى أي مكان آخر لينعم بالسلام ويستمر في الكتابة.

هذه الوقائع التي تتكرر باستمرار وتعلن عن تنقل غبرييل غرثيا ماركيز وسفره الدائمين يبدو أنها لن تنتهي. فقد عودنا عميد الأدب اللاتيني منذ زمن بعيد على التيه من هاڤانا إلى باريس مروراً ببرشلونة ومكسيكو وسواهما، اللهم إلا إذا كان قد أراد أن يبقى هذه المرة ليلتصق التصاقاً حميماً بما تعانيه بلاده كولومبيا من فوضى وفساد وانحلال . . . إن الأبطال المضادين لأبطال (يوميات اختطاف) يقفون هنا كمرشدين أو كشافين أو أدلاء. وشهاداتهم، وقد أصبحت أدباً، تتوجه إلى سلوكنا الحضاري، إلى حاجتنا إلى العدالة. والواقع أن غبرييل غرثيا ماركيز يرفع في هذه الرواية الحمراء، القلقة، القذرة، الحزينة، جانباً من الشراع ويتوجه إلينا برسالة أمل كماروخا التي انتهى بها الأمر إلى العثور على خاتمها وقد سرق منها ليلة الاختطاف. كان ينقصها ألق ماس وها هي تقع على خاتمها الماسي وتعاود وضعه في اصبعها. لقد عثرت على قطعة من ذاتها، عثرت على كرامتها، على كيانها. أن تدرج الحياة في رواية . . . هذا ما نجح ما ركيز في صنعه. وليس ذلك بالأمر السهل إذا عرفنا أن الحياة كثيراً ما تفيض بشؤونها وشجونها خارج نطاق الحياة ذاتها.

(عذراء القتلة) رواية للكاتب الكولومبي فرناندو باييخو VALLEJO صدرت مؤخراً.

لايشكل العنف في كولومبيا ظاهرة راهنة. فقلما تجد في أمريكا اللاتينية، خلال تاريخها الطويل، دولاً لم تُسحَقْ فيها الديمراطية وحقوق الإنسان والاستقرار السياسي والاجتماعي والاقتصادي من قبل طغمة من العسكريين المتآمرين والعملاء.

كتب ألن روكييه ROUQUIÉ منذ خمسة عشر عاماً في كتابه (الدولة العسكرية في أمريكا اللاتينية): « بالاضافة إلى الفقر المدقع الذي تعاني منه شرائح عريضة من المجتمع في كولومبيا، فإن مستوى الانلفبائية- الأمية- فيها مرتفع جداً، وينقصها التنظيم القومي إنْ من الناحية الجغرافية أو من

الناحية الإنسانية. كما تحكم هذه البلاد المتخلفة كنيسة كاثوليكية ذات حول وطول تعتبر نفسها ظل الله على الأرض. وهناك اقطاعيات مستمرة، وبالمقابل هناك تراث من العنف السياسي تذكي أواره على الدوام حروب عصابات ماركسية مستمرة». على هذا الصعيد البائس والتاعس تقوم الجحيم الكولومبية اليوم.

كتاب فرناندو باييخو (عذراء القتلة) كتاب قيامي. والواقع أن مايبرزه لنا يتخطى كل خيال حول هذا الموضوع. فعصاباته من «الغلمان أو القتلة المأجورين» تنشط كما يشير إلى ذلك اسمها في معارضة النظام القائم ولاتتردد خصوصاً في قتل من تثبت خيانتهم «للقضية»، وهكذا تحول المدينة إلى مسلخ أو مذبح. وما نورده لايمت إلى الخيال العلمي بصلة، ولاهو حلم رديء من أحلام كاتب هجاء، بل هو وقائع تجري يومياً في مدينة ميديين، مدينة المخدرات والجرائم والفقر المدقع.

في مدينة لاتسمى حاضرة العذاب بل حاضرة الكراهية توجد عصابة من «الشياطين السود» همها الاستئصال وإشاعة الارهاب، لا بالمعنى الراسيني- نسبة إلى راسين- ولا بالمعنى الريلكوي- نسبة إلى ريلكه- بل بالمعنى الواقعي المتمثل في بذر بذور الرعب والتدمير والموت. ويخوض اليكسيس و«شياطينه القتلة المأجورون» في مستنقعات من الدم. وتملأ جثث ضحاياهم البرادات في مدينة ميديين وتنضم إليها الجثث التي خضعت للتعذيب والتي أهملت الشرطة والجيش التقاطها. ويتجاوب عنف القتلة المأجورين مع العنف الدستوري للدولة وعنف كارتل المخدرات. إن ميديين مدينة تغور في العدم، وهي مدينة-شبح تشبه المدينة التي يصفها پول اوستر AUSTER في كتابه (أنَّا بلوم): حي البرونكس في نيويورك، بعض شوارع من لاهافانا بييخا اليوم، ضاحية من ضواحي مكسيكو أو بوغوتا...

* * *

هل نحن بعيدون جداً عن مدينة الكوارث هذه؟ لاتنسينا اللغة الرائعة الفخمة العصبية ما تفصح عنه هذه الرواية وما يفصح عنه عنوانها (عذراء القتلة). لقد «اختفت الواقعية السحرية» لآباء الرواية في أمريكا الجنوبية الذين وصلت ترجماتهم إلى أوروبا منذ العشرينات، أقول اختفت من هذه الصفحات التي تتحدث عن الموت الفجائي. وأخلى اللاعقلاني السلفي والتراثي مكانه لواقعية أشد شراسة وايلاماً هي واقعية القتل اليومي. فيا لها من واقعية تبعث الرعب، والحزن في آن!

علوم

**** هل كتب ديغول وتشرشل مذكراتهما بأمانة؟**
بقلم فرانسوا كيرسودي KERSAUDY، أستاذ التاريخ في جامعة باريس ١.

لم يكتب جميع المتنازعين في الحرب العالمية الثانية مذكرات عن الحرب. فروزفلت، وهتلر، وموسوليني ماتوا قبل نهاية النزاع. وانصرف تشانغ كاي- شيك إلى القيام بمهمات أخرى. ولم يقبل ستالين على القيام بهذه التجربة ولعله وجدها شبه مستحيلة. أما الماريشال پيتان فقد أجاب عندما سئل ذات يوم لماذا لم يكتب مذكراته: «لأنه لم يكن لديَّ شيء أخفيه عن الناس!»... وعلى هذا لم يبق لدينا سوى كاتبي مذكرات اثنين عن الحرب العالمية الثانية وهما: ونستون تشرشل وشارل ديغول.

هناك نقطة مشتركة بين الرجلين: فقد انصرفا إلى القيام بهذه المهمة في ظروف متماثلة بعد فشلهما في تصويت عام. صُدم تشرشل صدمة كبرى بعد خسارته الانتخابية صيف ١٩٤٥ فشجعه مَنْ حوله على كتابة مذكراته وأوحوا إليه أن القيام بهذا العمل من شأنه تحسين صحته ومزاجه. وأضافت زوجته: «على أية حال ستمنعه الكتابة من الشرود في البلدان الأوروبية

وتكديس عشرات الشهادات الفخرية» . . . وهكذا انصرف تشرشل إلى العمل منذ مطلع عام ١٩٤٦ .

وبدأ الجنرال ديغول متأخراً ولكن لأسباب شبه مماثلة : فبعد أن غادر الحكومة في كانون الثاني ١٩٤٦ انتظر أن يُستدعى، وفي هذه الأثناء انطلق في تأسيس حركة (تجمع الشعب الفرنسي RPF) حيث قام بحملة ضد «الميوعة والسهولة اللتين يحظى بهما محترفو الوزارات والسائرون في طريق الانحلال» كما كان يحلو له أن يسمي رجال الجمهورية الرابعة. ولكنه أدرك في عام ١٩٥٢ أن المد الشعبي لن يحدث وأن الحركة تعاني من التفتت. وهكذا وجب على الكاتب شارل ديغول أن ينقذ الجنرال ديغول من محاولته اليائسة. وكان زوج أخته جاك ڤاندرو VENDROUX قد خط في الأول من نوار ١٩٥٢ في يومياته ما يلي : «في حال انصراف الانصار والجماهير عن حركة التجمع فإن ديغول سيقلب الصفحة نهائياً لينصرف بجد إلى كتابة مذكراته» .

وكان كل من تشرشل وديغول مهيأ تماماً للقيام بمهمته : فخلال السنوات الخمس للحرب كانا وحدهما قد شاهدا كل شيء، وسمعا كل شيء، وأديا جميع الأدوار، وحركا جميع الخيوط . أضف إلى ذلك أن كلاً منهما يملك ذاكرة هائلة تثير في الوقت ذاته الاعجاب والفزع لدى من حولهما. ولم يكن أي منهما مبتدئاً في فن الكتابة : فديغول سبق له أن سطر خمسة مؤلفات، وتشرشل أثني عشر مؤلفاً منها (أزمة العالم) وهي تاريخ للحرب العظمى الأولى قال عنها لويد جورج LLOYD GEORGE[٣] آنذاك : «انها سيرة ذاتية تلبس قناعاً هو قناع تاريخ الكون» .

امتياز الحصول على الوثائق والمخطوطات

أضف إلى ذلك أن الرجلين كانا يملكان، بواقع انسحابهما الاجباري من الحياة السياسية، كثيراً من الوقت يقفانه على انجاز مهمتيهما. وعلى اعتبار أن رفقاءهما وزملاءهما في السياسة والسلاح، من وزراء وعسكريين

وموظفين كبار، كانوا ما يزالون في الحكومة أو الخدمة، فقد كان لهما امتياز الاطلاع على الوثائق والمحفوظات المتعلقة ببلديهما. وفي فرنسا لم يكن الأمين العام لوزارة الدفاع الوطني سوى جوفروا دو كورسيل COUR-CEL، المرافق السابق للجنرال. وفي بريطانيا أعطى الميجر أتلي ATTLEE تعليماته بأن يتاح لسلفه الشهير أن يراجع جميع وثائق المحفوظات. وأخيراً فإن ديغول وتشرشل يكنان احترام عميقاً للتاريخ، حتى لو تواضع كل منهما وأعلن أنه لا يقوم بعمل مؤرخ، فانهما سيبذلان كل ما في وسعهما للكتابة بما عرف عنهما من اتساع في النظر ومن دقة في الموضوعية اختص بهما الادباء والفنانون الحقيقيون.

ومع ذلك، فإلى جانب هذه التشابهات كم توجد فروق بين الكاتبين! ولكي يقنع المرء بذلك ما عليه إلا أن يراهما يعملان: فالجنرال ديغول يفرض على نفسه في مكتبه بـ «البواسوري» ست ساعات عمل يومياً. ويبذل أقصى ما يملكه من نشاط فيكتب ثلاث مسودات لتستحيل إلى مبيَّضة واحدة كمعدل وسطي. يقول: «كنت دوماً أشعر بكثير من الصعوبة لدى الكتابة». وكان يعاونه في عمله هذه موظف محفوظات ومساعد اسمه رنيه تيبو، و هو موظف كبير في وزارة الشؤون الخارجية. وقام الاثنان بجمع وتصنيف ٢٠,٠٠٠ وثيقة لم يستخرجا منها سوى ٣,٠٠٠. وكان كل ذلك يجري في سرية تامة- والطريف أن اسم تيبو نفسه كان اسماً مستعاراً..-. ولتحاشي تسرب أية معلومة كانت ابنة الجنرال واسمها إليزابيت دو بواسيو تضرب على الآلة الكاتبة الصفحة التي ينتهي والدها من كتابتها. وكان الجنرال يقرأ مقتطفات من مذكراته لأشخاص من الأسرة نادرين: زوجه، ابن حميه، صهره، اندرو مالرو، ريمي... وحين انتهى من كتابة الجزء الأول أرسل إلى ثلاثة من الناشرين، وهم پلون، وغاليمار، ولافون، يرجوهم المجيء لأخذ العلم في دار السيد جورج پومپيدو، وتم ذلك كله في منتهى التحفظ والسرية.

ولنلق الآن نظرة على ونستون تشرشل وهو يعمل في قصره الريفي الصغير بـ «شارتويل». ويقدمه لنا مساعده السيد كيلي في أوج نشاطه فيرينا إياه جالساً في سريره وعلى رأسه أو كتفه درة- أنثى ببغاء- وعلى ركبتيه قط، وعلى قدميه كلب صغير. ومن سريره- أو من مغطسه- يملي بلا انقطاع أقواله على امناء سره الذين يتناوبون العمل. وتتكدس الوثائق التي يحتاج إليها في قبو القصر، وغالباً ما تختلط بدفاتره المدرسية، أو تتراكم حتى السقف حول المدفأة التي تعمل بالمازوت. كل ذلك يثير الرعب والهم في نفس القائم على محفوظاته.

مأساة عتيقة

ورحلات خيالية غنائية

يحملون إليه من القبو المستندات، فيشطب منها ما يشطبه، ويقص ما يهمه، ويرمي ما تبقى. . . ويقدّم له المخططات ثلاثةُ أو خمسة أو سبعة مساعدين، ثم مسودات الفصول المختلفة، فيعيد فيها النظر، ويعاود الكتابة، و«يشرشلها» بحسب التعبير الصحافي آنذاك ثم يرسل كل شيء إلى «خبراء» يراجعونها ويعلقون عليها. ويتألف هؤلاء الخبراء من عشرين أو ثلاثين أو أربعين شخصاً ما بين جنرالات، ووزراء، ونواب، ودبلوماسيين، ومؤرخين، بمن فيهم طبعاً جميع زملائه ورفقائه في زمن الحرب، ونذكر منهم: پاونال، إيسماي، شيرويل، مورتون، ماك- ميلان، بيفر بروك، بوثبي، سماتس، أنطوني ايدن، الن، دوف كوپر، الخ . . . ومن المؤكد أن هذه المذكرات الحربية هي من صنع تشرشل ولكنها تعتبر أيضاً عملاً جماعياً . . .

ثم فجأة يقفز تشرشل من سريره. ويرحل مع حقائبه الـ ٥٥ إلى باريس، ولوزان، ومراكش حيث يعاود الاملاء والرسم، وكل ذلك على نفقة ناشريه الامريكيين والبريطانيين الذين يتلقون منه عدداً من الصفحات كلما انهى كتابتها. وتخضع كل ورقة لـ «رقابة» مسبقة وذلك من قبل زوجه،

وأصدقائه، ووزارة الخارجية، ووزير الحرب، والحكومة، والملك، وايزنهور . . . هل نستطيع أن نتصور الجنرال ديغول ولو لمحاً يقبل بأية رقابة من أية جهة كانت؟ وليس هذا كل شيء: فقبل النشر ظهرت مقتطفات من عمل تشرشل في مسلسلات في كل من الصحف الانكليزية والامريكية الكبرى. وصعق ديغول وقال جملته المشهورة: «هل يمكن أن تروا فوڤنارغ أو سان سيمون- مفكران وأديبان فرنسيان- ينشران أعمالهما في مقطعات منفصلة على صفحات الجرائد في ذلك العصر؟». وأخيراً فإن الطبعة الأمريكية لمذكرات تشرشل ستصدر، لأسباب مالية، قبل الطبعة البريطانية. من يتصور أن (مذكرات الحرب) للجنرال شارل ديغول تظهر، أول ماتظهر، في اسبانيا أو ألمانيا؟ وكان قد سبق للجنرال ديغول أن دهش عندما كان الموضوع يتعلق بترجمة انكليزية لمذكراته: «ولكن مضمونها فرنسي! وقد كتبت للفرنسيين!».

تطلب المشروع بالضبط سبع سنين بالنسبة إلى ديغول وتشرشل معاً. وماذا كانت النتائج؟ في فرنسا صدرت (مذكرات الحرب) في ثلاثة أجزاء وتسعمئة صفحة ومأساة عتيقة لها بطلان: فرنسا وديغول. ويتميز الأسلوب بالفخامة، والنداءات الدعائية، والمعاني المقلوبة، والجناسات الاستهلاكية، والاستعارات المقصودة: «النار والبرد في الأحداث الكبيرة»، «الجمهورية قوية، فخور، أخوية»، «هذا الابحار في البحر المضطرب للتاريخ»، وأيضاً «الانحناء على هاوية تدحرجت فيها فرنسا»، «لأبين لفرنسا طريق الخلاص». وحين يصل إلى جان مولان MOULIN(٤) يقول عنه: «رجل ايمان وبعد نظر، لايشك في شيء ويحذر كل شيء، ويتطلع إلى القيام بالأعمال العظيمة». أو حين يقول عن الرئيس لوبران LEBRUN(٥): «في الواقع ثمة شيئان ينقصانه فقط كرئيس دولة: أن يكون رئيساً، وأن تكون هناك دولة». وتختبىء في هذا الأسلوب الذي لايمكن تقليده أشياء مكشوفة لا حصر لها: إملاق فرنسا الحرة غير الطبيعي في بداياتها، العزلة الساحقة

للزعيم، المجابهة المستمرة مع الحلفاء الانكلو- أمريكان، الصراع المستمر والمستتر في آن والعنيد أيضاً ضد الشيوعيين الفرنسيين حتى آخر يوم من أيام الحرب- وحتى لمدة طويلة بعدها...

في الجهة الأخرى من بحر المانش نلقي نظرة على ما صنعه ونستون تشرشل: (الحرب العالمية الثانية)، ستة أجزاء، ثلاثة آلاف صفحة، ملحمة أخرى ولكن مسرودة كحكاية استناداً إلى آلاف الوثائق، رحلات خيالية غنائية، غمزات إلى القارىء، قصائد أحياناً، أقوال من التوراة، جمل جميلة على وجه الخصوص حيث يظهر تأثير كل من غيبون GIBBON[٦] وماكولي MACAULAY[٧]: «وهكذا فإن مكر الأشرار قد وجد مدعوماً من ضعف الأخيار»، وأيضاً الإشارة «إلى هذه المستويات السعيدة الصافية حيث تُسوَّى جميع المسائل من أجل الخير الأكبر لأكبر عدد من الناس وذلك بفضل رجاحة عقل الأكثرية وبعد استشارة الجميع».

كشوف ساحرة

وبينما لا يهتم الجنرال ديغول في النهاية، وهويشير إلى النزاع العالمي على جميع الأصعدة، إلا بفرنسا، يتوسع تشرشل في أبحاثه ويقف فصولاً بأكملها على ألمانيا، واليابان، وايطاليا، والاتحاد السوفييتي، واليونان، وبالطبع على الولايات المتحدة. ويقع القارىء البريطاني أيضاً على الكثير من الكشوف في هذه الشهادة الساحرة: هزال وسائل الدفاع في بريطانيا مع مطلع الحرب، تبعيتها الكبرى للولايات المتحدة من الناحيتين الاقتصادية والحربية، العلاقات الخاصة بين تشرشل وروزفلت، المساومات البعيدة عن الواقع التي كانت تجري مع الديكتاتور جوزف ستالين، ثم... المفاوضات السرية مع ڤيشي، تحتيات الحرب، وأخيراً وبشكل خاص النشاط الهائل الذي يفوق طاقة البشر لتشرشل كرئيس للوزراء ووزير للدفاع في جولته خلال خمس سنوات إلى جميع وسائل الاقناع لكي يمنح مواطنوه هذه الحرب أفضل ما في لديهم. والحق يقال أن جائزة نوبل التي توجت الكاتب

تشرشل كانت موجهة بالدرجة الأولى إلى الزعيم الحربي الصلب والدؤوب الذي تدين له أوروبا على وجه الخصوص بانقاذها من أيدي النازيين والفاشيين.

كل هذا جيد جداً، ولكن هل يتصور القارىء حقاً أن هذين المناضلين العملاقين قد كتبا مذكراتهما لقتل الوقت، أو للقيام بعمل مؤرخين، أو بحثاً عن عزاء بعد فشلهما السياسي؟ الواقع أن تشرشل كان مسوقاً خلال مدة تدبيجه مذكراته بثلاثة دوافع كبرى: الأول هو أن يجد مسوّغاً لوجوده لاالأن هزيمة حزب المحافظين في الانتخابات قد فسرت على أنها جحود لأعمال تشرشل فحسب، بل أيضاً لأن دوره خلال الحرب قد أُعيد النظر فيه من قبل عدد من المؤلفين وبخاصة بتشر BUTCHER وانغرصول INGERSOLL وإليوت روزفلت.

الدافع الثاني أن يهيء عودته إلى العمل باظهاره المكاسب التي جنتها بريطانيا من أعماله السابقة. الدافع الثالث تقريب الصلات مع الولايات المتحدة على اعتبار أن تشرشل ينتظر منها مرة أخرى أو بالأحرى مرات مبادرات الانقاذ في حرب كوريا، وأزمة برلين، وتهديد ستالين الذي كان يضغط على صدر أوروبا الغربية بأكملها.

وماذا بشأن (مذكرات الحرب) لشارل ديغول؟ إنها تأملات تتسم بالحنين إلى أمجاد الماضي من قبل «رجل شيخ يشعر باقتراب البرد الأبدي!». هذا غير صحيح! فهذه الحكاية الملحمية، «المكتوبة للفرنسيين»، والتي ما فتئت تثير عظمة فرنسا ويقظتها الممكنة على الدوام، ليست بكل بساطة سوى نداء إلى الشعب وتمديد لحزب ديغول الذي يطلق عليه اسم (تجمع الشعب الفرنسي) بوسائل أخرى... ومن غير المجدي البحث عن رسالات تصعيدية: ففي كل من الكتب الثلاثة التي تؤلف هذا العمل الصرحي تبدو جميع نهايات الفصول نداءات موجهة بأكملها إلى المستقبل: «هل يمكنني تجميع فرنسا؟»، «اعلم إلى من تنظر فرنسا»، «يجب الآن تجميع

آلامها ما إنْ تخرج من الهاوية»، «الآن وقد ساعد الشعب والدليل كل منهما الآخر فإنهما بدآ مرحلة الانقاذ»، «هذه الشعلة من الطموح القومي كيف السبيل إلى ابقائها ملتهبة حين تتوقف الريح عن الهبوب؟»، «لم آملْ قط من ترصد قبس الأمل في الظلام الحالك». . . ويمكن القول أن أية صلة بالماضي لن تكون سوى مجرد مصادفة! ويكفي لنقتنع بذلك أن ننظر إلى مراسلات الجنرال في تلك الحقبة: فالجزء الأول من (مذكرات الحرب) سيظهر في ٢٥ تشرين الأول ١٩٥٤. وعلى هذا كتب ديغول في ١٢ من الشهر المذكور إلى إبنه: «سنرى ماذا ينجم عن ذلك. وأقصد بالطبع التأثير الذي ستحدثه المذكرات في الرأي العام». ونقع على المزيد من الايضاح أيضاً في رسالته إلى رئيس الوزراء پول رينو: «آمل بعد أن تنتهي من قراءة مجموع الجزء الأول الذي لايشكل سوى ذكرياتي أن نستطيع ايجاد فرصة لالتحدث عن الماضي فحسب بل عن المستقبل أيضاً». . .

السكوتات النصفية
لدى تشرشل

ثمة واقع يقول أن هذه المذكرات ليست فقط أعمالاً تاريخية موضوعية، مؤثرة، نزيهة، بل هي أيضاً أسلحة تسمى أسلحة إعادة الغزو أو الفتح. . . ولهذا يجب على القارىء ألا يأخذها على محمل الكلام المنزل. وهكذا فإن (الحرب العالمية الثانية) لونستون تشرشل تورد في متونها أوامر عسكرية وتعليمات وإرشادات إلى الوزراء والموظفين المدنيين والرؤساء العسكريين ما بين عامي ١٩٤٠ و١٩٤٥، إلا أنها لا تورد الأجوبة على الاطلاق. هل قصد تشرشل من ذلك أن يجعل القارىء يستسلم بسرعة إلى بداهة التعليمات علماً بأن الكثير من هذه التعليمات كان يثير اعتراضات خطيرة. أضف إلى ذلك أن قراءة هذه المذكرات تعطي انطباعاً بأن تشرشل كان دائماً يتخذ المبادرات الديبلوماسية والستراتيجية بالاتفاق الكامل مع وزرائه وجنرالاته. وبعبارة أخرى لاشيء قيل في موضوع القرارات غير

المعقولة لرئيس الوزراء. ولاشيء قيل أيضاً حول التهديد بالاستقالات الجماعية التي كان يهدد بها رؤساء الأركان عندما كان تشرشل يتدخل بشكل عاصف ليحل قائداً محل قائد على مسرح الحرب في برمانيا، أو ليأمر بعقد جلسة مستمرة يناقش فيها «هروب» جزيرة صغيرة عند رأس سومطرا اكتشفه على خرائطه. قال روزفلت: «تخطر ببال وينستون كل يوم مئتا فكرة، اثنتان منهما فقط جيدتان... ولكنه لايعرف أبداً أية فكرتين هما!». والواقع أن الخلافات في أثناء الحرب مع روزفلت وأيزنهاور- وقد أصبح فيما بعد رئيساً للولايات المتحدة- قد حذفت تماماً من مذكراته (الحرب العالمية الثانية) وكذلك هُذِّبَت البرقيات المتعلقة بفرنسا الحرة وفيشي والولايات المتحدة وبولونيا والاتحاد السوفييتي.

هل جرى الأمر على هذا المنوال فيما يتعلق بـ(مذكرات الحرب) للجنرال ديغول؟ نعم مع الأسف الشديد... لنأخذ الجزء الأول من هذه المذكرات: ففي ١٦ حزيران ١٩٤٠ كان ديغول في لندن: «بدأت بتنظيم اتجاه [لوپاستور] التي كانت تحمل ألف مدفع من عيار ٧٥، قادمة من الولايات المتحدة. واستناداً إلى تقرير من بعثتنا العسكرية تحولت وجهة السفينة بناء على أوامر مني من بوردو التي كانت تقصدها إلى مرفأ في انكلترا [انظر الجزء الأول من (مذكرات الحرب) للجنرال شارل ديغول، وعنوان هذا الجزء «النداء» ص٦٣]. ولسوء الحظ لم يكن الأمر كذلك فالسفينة المذكورة لم تكن تحمل ألف مدفع بل ٩٥ مدفعاً فقط، ولم تكن في عرض البحر في ١٦ حزيران بل كانت في مرفأ نيويورك. ولم يكن من الواجب عليها الذهاب إلى بوردو بل إلى ميناء بريست. ولم تبدل خط سيرها إلى لندن بل إلى هاليفاكس بكندا، لابأمر من الجنرال ديغول بل بأمر من الأميرال دار لان. ثم أننا إذا عدنا إلى مفكرة قائد السفينة فسنجد أن [لوپاستور] لم تتلقَّ أي أمر من ديغول، وهذا يُفهَم جيداً ما دامت البعثة العسكرية الفرنسية في لندن التي تحدث عنها الجنرال لم تحول أي أمر بتبديل

خط سيرها . . . وثمة ما هو أسوأ إذ لم تجرِ السفينة أي اتصال بالجنرال ديغول طيلة ذلك النهار من ١٦ حزيران! [أخذنا هذه المعلومات المتعلقة بالسفينة المذكورة من السيد برنار ديتريمو، وهو وزير سابق].

ومما يدعو إلى الاستغراب أيضاً ما ورد في الجزء الثالث من المذكرات وهو يتعلق بالأحداث التي جرت في سورية خلال شهر أيار ١٩٤٥ : «في ٢٨ أيار هوجمت جميع مراكزنا بدمشق من قبل عصابات من مثيري الفتن والقلاقل ومن قبل وحدات من الدرك السوري. واستمر اطلاق النار بدمشق خلال أربع وعشرين ساعة. ولكن في اليوم التاسع والعشرين من أيار تبين أن قواتنا صمدت. [. . .] ولوضع حد لذلك أمر الجنرال أوليفا-روجيه، المندوب الفرنسي في سورية، باخضاع مواقع التمرد. وتم ذلك خلال أربع وعشرين ساعة. [. . .] وفي عشية اليوم الثلاثين سيطرت السلطات الفرنسية على الوضع [. . .]. وأرسلت برقية بالتوقف عن إطلاق النار في ٣٠ أيار الساعة ٢٣. ولكن السيد تشرشل، وقد أُنبىء بنهاية المعركة في دمشق، بادر فوراً إلى إرسال انذار بالتهديد»[شارل ديغول، (مذكرات الحرب)، الجزء الثالث، «الانقاذ» ص١٨٩- ١٩٠].

يا لها من ملحمة عظيمة تزهو بها فرنسا، ويا له من دليل ساطع على خداع بريطانيا وغدرها! ولقد استطعنا- مع الأسف- أن نحقق في الوقائع لدى شخصيات مدنية وعسكرية فرنسية كانت موجودة آنذاك في سورية، كما لجأنا إلى الملفات الدبلوماسية والعسكرية الفرنسية- بما فيها ملفات الجنرال ديغول. واليكم نتيجة هذه التحقيقات:

لم يقع أي هجوم على المواقع الفرنسية من قبل السوريين في ٢٨ أيار والجميع متفقون على أن الهدوء كان يسود دمشق في ذلك اليوم. وفي اليوم التالي، وكان الهدوء مايزال سائداً، على الأقل حتى الساعة ١٩، أعطى الجنرال أوليفا- روجيه أمراً، من دون أي استفزاز ظاهري، بقصف المدينة. وبعبارة أخرى فإن هذه الساعات الست والثلاثين من «المعارك البطولية» إنما هي من نسج الخيال وحده.

ولنكمل: «في ٣٠ أيار كانت السلطات الفرنسية سيدة الموقف» وهذا أمر غير صحيح على الإطلاق أيضاً إذ استمرت المعارك نهار ٣٠ أيار وحتى في أثناء نهار ٣١ منه!

وكان الفرنسيون يطلقون النار على كل ما يتحرك- بما في ذلك المدنيين وسيارات الاسعاف- وحتى على كل ما لايتحرك: الفنادق، المدرسة الأمريكية، قطار للصليب الأحمر البريطاني الخ... أضف إلى ذلك أن الجنود السنغاليين قد اقترفوا بأمرة الفرنسيين مذبحة رجال الدرك السوريين الذين كانوا يحرسون المجلس النيابي السوري كما هو معروف.

الشؤون والأمور

التي نسيها ديغول

وأخيراً: «الأمر بالتوقف عن اطلاق النار أبرق به في ٣٠ أيار الساعة ٢٣» وهذا أيضاً غير صحيح: فقد أرسل الأمر في ٣١ أيار الساعة ٢٣,٣٥، وتسلمته دمشق في الأول من حزيران الساعة الواحدة صباحاً، أي بعد تسع ساعات من «الانذار بالتهديد» الذي أرسله تشرشل. يدل على ذلك نص البرقية: نتيجة للتدخل البريطاني لن تطلق النار بعد الآن من دون أمر».

وفي مكان آخر من (مذكرات الحرب) للجنرال ديغول نقع على سكوتات مفحمة، فماذا نقرأ في هذا الجزء الثالث ذاته حول قضية الماريشال بيتان؟: «من دون أي تدخل مهما يكن شأنه في التحقيق الذي تقوم به المحكمة العليا، أعلمت الحكومة هذه المحكمة برغبتها في انهاءاجراءات الدعوى بأسرع ما يمكن. وحكمت المحكمة بالعقوبة القصوى ولكنها أعلنت في الوقت ذاته عن عدم امكان تنفيذها على الاطلاق». [المصدر ذاته ص ٢٤٨- ٢٥٠]. هذا صحيح، إلا أن ديغول لايذكر ما قاله مع ذلك لاثنين من وزرائه، أولاً: «يجب أن يحكم على الماريشال بالموت»، ثانياً: «تدبّروا امركم مع القضاء لكي يرافق الحكم بالموت طلب للعفو». ونقل الوزيران

التعليمات إلى المدعي العام مورنيه الذي نقلها بدوره إلى رئيس المحكمة مونجيبو وجماعة المحكمين.

من الطبيعي القول: انه يجب على الشجرة ألا تخفي الغابة: فمذكرات الحرب لكل من رئيسي الدولتين هي بشهادات لاتُعوض وأعمال ذوات مرجعيات لايمكن الاستغناء عنها. ولكن يجب ألا ننسى أنها أعمال فنانين عظيمين يمحوان منها النتوءات الخشنة لمنحها المزيد من الصقل والملاسة ونقل رسالة لاتعتورها الازدواجية. في (الحرب العالمية الثانية) لتشرشل نعثر على الرسالة التالية: تغلبت انكلترا والامبراطورية على الإعصار وكتبت لهما النجاة منه بفضل الديمقراطية، والبرلمان، والملك، والولايات المتحدة، وونستون تشرشل... أما الرسالة التي حملتها (مذكرات الحرب) للجنرال ديغول وأوصت بها فهي أن ملحمة فرنسا المحاربة المناضلة كانت رائعة، وماجدة، وساطعة، وأنه ليس على القارىء الفرنسي إلا أن يستيقظ من غفلته لكي يتابع العمل...

فنون

**** الموسيقار النمساوي انطون بروكنر BRUCKNER**
بمناسبة مرور مئة عام على رحيله (١٨٢٤ - ١٨٩٦)

احتفلت الأوساط الموسيقية النمساوية في العام المنصرم بمرور مئة عام على رحيل الموسيقار انطون بروكنر (١٨٢٤ - ١٨٩٦). وبهذه المناسبة نقدم للقارىء نبذة عن حياة هذا النابغة وتحليلاً لبعض أعماله.

I- حياته:

ظهرت موهبته باكراً، وتلقى دروسه الموسيقية الأولى على يد والده وكان معلم مدرسة، وأميناً لسر البلدية، وعازف ارغن. ثم أكمل دراسته في مدينة هورشينغ مع ابن خاله جون بي. فايس الذي علمه العزف على

الأرغن والكمان الجهير. ثم انتقل إلى فيينا ودرس فيها مع سيمون سيختر أصول التأليف، ومع أوتوكيتزلر نظريات الأشكال واستعمال الآلات. وكان في أثناء ذلك قد مارس مهنة مدرس وعازف ارغن في كلية سان- فلوريان بالقرب من مدينة لينز (١٨٤٥ - ١٨٥٦)، كما مارس مهنة عازف ارغن في كاتدرائية لينز حتى عام ١٨٦٨.

لفت أنطون بروكنر إليه الاهتمام بتأليفه بعض الأعمال الموسيقية ومنها (صلاتان لراحة الموتى) و(قداس). في تلك الحقبة قام برحلة إلى ميونيخ حيث استمع إلى أوبرا ڤاغنر الشهيرة (تريستان وايزولده) وتعرف بهذا الموسيقار الكبير. وبين تلك السنة والسنة التي تلتها ألف (أول سنفونياته) و(القداس من مقام مي مينور- النهوند-).

في عام ١٨٦٨ استقر في ڤيينا وبقي فيها حتى وفاته. وهناك مارس نشاطات مختلفة: تعليم التناغم، والطباق، والعزف على الأرغن في المعهد الوطني، انتسابه عضواً إلى فرقة البلاط، تعليمه كأستاذ مساعد العزف على البيان والارغن في معهد أو دار معلمات سانت- آن، تدريسه التناغم والطباق في الجامعة. وفي عام ١٨٩١ منحته هذه الجامعة مرتبة الدكتوراه الفخرية.

قام بعدة جولات فنية في أوروبا قدم خلالها حفلات في العزف على الارغن في كل من نانسي، وباريس، ولندن، وذهب عدة مرات إلى بايروت حيث حضر عام ١٨٧٦ العرض الأول لـ (رباعية ڤاغنر) الشهيرة ثم في عام ١٨٨٢ حضر عرض أوبراه (پارسيفال). كما قام بعدة رحلات عمل إلى بعض المدن الألمانية ورحلة إلى سويسرا (١٨٨٠).

في أثناء إقامته الطويلة بڤيينا ألف أهم أعماله من (سنفونيات) و(قداديس) و(مزامير)، كما ألف (تسبيحة شكر لله) و(مؤلفات للجوقة) الخ... وتبدو مهنته للملاحظ السطحي هيِّنة سعيدة، إلا أنها كانت في الواقع قاسية مضطربة: فقد كان عليه أن يتحمل عداء زملائه الموسيقيين

كبرامس وبولو وجواشيم، وكراهية بعض النقاد كهانسليك. وبالمقابل حظي موسيقارنا باستلطاف موسيقيين آخرين وتشجيعهم كڤاغنر وليستْ، كما أحاطت به حلقات من التلامذة الأوفياء كماهلر وقائد الفرق الكبير نيكيش، وقد عملوا جميعهم بنشاط واخلاص على نشر أعماله وتعريف الجمهور بها وانجاحها.

II– أعماله:

تعتبر سنفونيات بروكنر أهم أعماله لذلك نكتفي بايراد أسمائها وتحليلها، وهي تسع سنفونيات، التاسعة منها غير مكتملة. ألفها بروكنر في حقب منوعة من حياته.

الأولى من مقام «دومينور» وقد نظمها عام ١٨٦٥ وقدمت في لينز عام ١٨٦٨، وأعاد الموسيقار النظر فيها وأكملها عام ١٨٩٠. السنفونية الثانية هي أيضاً من مقام «دومينور» ألفها عام ١٨٧٣. الثالثة من مقام «ره مينور» وقد أهداها لڤاغنر عام ١٨٧٧. الرابعة من مقام «مي بيمول ماجور – العجم–»، وقد أطلق عليها اسم (السنفونية الابداعية). الخامسة من مقام «سي بيمول ماجور (١٨٩٤). السادسة من مقام «لاماجور» بدأها عام ١٨٨٣، وأتمها وقادها الموسيقار غوستاف ماهلر عام ١٨٩٩. السابعة من مقام «مي ماجور» (١٨٨٤) وتعتبر أروع ما ألف بروكنر. الثامنة من مقام «دو مينور» وقد أهداها إلى الامبراطور فرانسوا– جوزف عام ١٨٨٢. ولانملك من التاسعة سوى ثلاث حركات. وهناك أيضاً سنفونية عاشرة لم تنشر، الفها بروكنر في لينز عام ١٨٦٩، وقد أظهرها للملأ وأعاد النظر فيها تلميذه سيريل كينيه وكان المعلم قد أهداها له.

شيد بروكنر عمائر سنفونياته وفق مخطط الصوناتا، ولكنه تجاوز بأحجامها الأمثلة التقليدية إلى أبعد مدى. فحركات «الأداجيو– اللحن الأمهل–» تحوي صفحات ذوات الهام عميق: يكفي أن نذكر في هذا المجال «اللحن الأمهل» في السنفونية السابعة وقد كتب بروكنر جزءاً منها حين شعر

باقتراب رحيل فاغنر عن هذه الدنيا، وكتب الجزء الآخر حين تلقى نبأ هذا الرحيل. كما نذكر «اللحن الأمهل» في السنفونية التاسعة وقد سربله بروكنر بوشاح من العاطفة الدينية، ويمكن أن يصلح كـ «نهاية» لهذه السنفونية التي تنقصها «الخاتمة»، وكان بروكنر كثيراً ما يوصي باستعمال مقطوعته «تسبيحة شكر لله» لاتمامها.

ونلاحظ على وجه العموم في سنفونيات هذا المعلم عظمة البناء الصرحي، وحسن السيطرة على استعمال الآلات، والغنى العظيم في التوافقات التناغمية، بينما نلاحظ في الوقت ذاته رقة الابتكار لديه. ولقد تأثر بروكنر بعدة موسيقيين مشهورين منهم موتسارت وبتهوڤن، كما تأثر خصوصاً بڤاغنر، ولم ينجح على الدوام في كبح جماح طبيعته الصوفية والابتداعية النموذجية، ولا في التحرر من عدة عناصر عرفية وأكاديمية. هذا الحكم أعيد النظر فيه جزئياً على أثر نشر توليفات سنفونياته منذ عام ١٩٣٢ بشكلها الأصلي، وذلك كما عثروا عليها في المكتبة الوطنية بڤيينا. وقد أتاح لهم هذا الأمر أن يلمسوا أن التغييرات والتقطيعات التي أوحى بها إلى بروكنر قواد الفرق الموسيقية لاتصلح لشيء، وأن الفكر الموسيقي للمؤلف يجد في شكله الأول أكثر تعابيره صفاء وأشدها منطقية وتميزاً.

الهوامش

(*) ملخص محاضرة ألقاها مترجم «نافذة على العالم» ومُعدُّها بناء على دعوة من المركز الثقافي الفرنسي بدمشق مساء الأربعاء ٢٨/ ٥/ ١٩٩٧ بحضور الشاعر جاك ريدا نفسه، وبمناسبة زيارته إلى سوريا لمدة أسبوع، وقيامه بنشاطات ثقافية بدمشق وحلب.

(١) لوي سيباستيان ميرسييه MERCIER: كاتب فرنسي (١٧٤٠- ١٨١٤). ألف رواية استباق عنوانها (العام ٢٤٤٠، إذا كان ممكناً)، كما ألف مآسي شعبية منها (منقلة صانع الخل)، وصوَّر المجتمع الفرنسي في نهاية العهد القديم (لوحة باريس).

(٢) أبولّو APOLLO : مركبة الفضاء الشهيرة وكان على متنها ثلاثة رواد. والقصيدة تأملات حول الأرض والسماء ومغازلة بينهما علماً بأن الأرض اسم مؤنث بينما السماء اسم مذكر باللغة الفرنسية.

(٣) الكونت الأول ديفيد لويد جورج أوف دوايفور: سياسي بريطاني (١٨٦٣ - ١٩٤٥). زعيم الجناح اليساري في حزب الأحرار. طالب باصلاحات اجتماعية سمحت له وظيفته كوزير للمالية بأن يحققها (١٩٠٨ - ١٩١٥). كان وراء القانون الذي حدَّ من سلطة اللوردات (١٩١١). في أثناء الحرب العالمية الأولى أصبح وزيراً للتموين ثم وزيراً للحرب وأخيراً رئيساً لمجلس الائتلاف (١٩١٦ - ١٩٢٢). أدى دوراً مهيمناً في مباحثات معاهدة فرساي (١٩١٩). في عام ١٩٢١ اعترف بدولة ايرلندة الحرة.

(٤) جان مولان MOULIN: اداري ومقاوم فرنسي (١٨٩٩ - ١٩٤٣). والي مقاطعة أور - إي - لوار عام ١٩٤٠. رفض أن يلبي مطالب الألمانيين عندما احتلوا مدينة شارتر. انتقل إلى لندن وهناك أصبح عام ١٩٤٣ أول رئيس لمجلس المقاومة الوطني. حين عاد إلى فرنسا أوقفه رجال الغيستابو في حزيران ١٩٤٣ بناءً على وشاية، وعُذِّب، وتوفي خلال ترحيله من فرنسا إلى ألمانيا. وضُمع رماده في مقبرة العظماء بالبانتيون عام ١٩٦٤.

(٥) البير لوبران: سياسي فرنسي (١٨٧١ - ١٩٥٠). وزير عدة مرات (١٩١١ - ١٩٢٠). رئيس مجلس الشيوخ (١٨٣١) ثم رئيس للجمهورية (١٩٣٢ - ١٩٤٠). انسحب من الحكم في تموز ١٩٤٠.

(٦) ادوارد غيبون: مؤرخ بريطاني (١٧٣٧ - ١٧٩٤). كان وسيبقى دوماً بمؤلفه (تاريخ انحطاط الامبراطورية الرومانية وسقوطها، ١٧٧٦ - ١٧٨٨) أحد كبار الذين أرخوا زوال الحضارة الرومانية.

(٧) توماس بيبنغتون ماكولي (١٨٠٠ - ١٨٥٩) مؤرخ وسياسي بريطاني. له (تاريخ انكلترا، ١٨٤٨ - ١٨٦١). وقد لقي هذا الكتاب نجاحاً عظيماً، وحصل به مؤلفه على مرتبة «نبيل».

كتاب الشهر

إقامة السلام مع الكوكب

ميخائيل عيد

الكوكب مثل كل طويل الاناة: يعاقب بقسوة حين يعاقب.. قد يعود ذلك لأن نظامه كلي وشامل.. وحين يمس شيء ما جوهر نظامه الذي هو أساس توازنه يكون الارتجاج قوياً ويكون رد الفعل فوق طاقة البشر وغيرهم من الكائنات.

* ميخائيل عيد: أديب وشاعر من سورية، يكتب الشعر والقصة، ويهتم بالترجمة. آخر أعماله: «الفانوس السحري».

حين كان الانسان غير كبير العقل ويملك القليل من التقنيات كان أقرب الى نواميس الطبيعة واكثر انسجاماً معها وكانت تتحكم به وتحد من جموح نزواته . . ثم تطور عبر مسيرة شاقة ومعقدة و«كبر عقله» وكثرت أدواته وشرع يتحكم بالطبيعة ويروضها بقسوة وكأنه يريد أن ينتقم منها اذ كانت تعمل بشيء من القسوة في بعض الاحيان.

وتمادى الانسان واستطالت اغصان شجرته وأسكره جمال أزهارها ولذيذ مذاق ثمارها وازداد تمادياً . . وغاب عنه أنه يبني هنا على حساب ما ينهدم هناك . . فما من شيء يبنى إلا على حساب شيء أو أشياء . . .

وكثر الذين يقرعون نواقيس الخطر في أيامنا . . وكثر صياحهم فالكارثة الشاملة قريبة . . بل يزعمون أحياناً أنها تقريح الابواب وان الوقت «الاحتياطي» قد انتهى . . أو يكاد .

فهل صحيح أن مكاسب الانسان قد ألحقت بنظام الطبيعة خسارة لا تعوّض؟ شريعة «السوق» هي إما أنا أو أنت! فهل جعلنا شريعة السوق هي اساس تعاملنا مع الطبيعة؟

باري كومونر في كتابه «إقامة السلام مع الكوكب» الذي يحمل الرقم(٢٥) في سلسلة «العلوم» التي تصدر عن وزارة الثقافة ، والذي ترجمه الاستاذ عارف حديفة ، يؤكد ذلك ويقدم الاثباتات على ما يقول مدعماً كل ذلك بالاحصاءات الرسمية وغير الرسمية . وقد يكون ذا مغزى خاص ان يكون عنوان الصفحة الاولى من الكتاب هو «حالة الحرب مع الكوكب» . «يعيش البشر في عالمين» ، «عالم الطبيعة الذي أنشأته سلسلة عمليات فيزيائية ، وكيميائية ، وبيولوجية طيلة تاريخ الأرض البالغ خمسة بلايين سنة . اما العالم الآخر فهو من ابداعنا نحن ، ويشمل المنازل والسيارات ، والمصانع ، والمخابر ، والطعام واللباس ، والكتب ، والرسوم ، والموسيقا والشعر . ونحن نقبل بالمسؤولية عن الأحداث في عالمنا الخاص ، ولكننا لا

نقبل بها عما يجري في عالم الطبيعة». «إن هذا التقسيم قد خرق الآن على نطاق الكوكب. فمع ظهور ثقب حجمه حجم قارة في طبقة الاوزون الواقية للارض، وخطر ارتفاع درجة حرارة الأرض، قد تصبح حتى فترات الجفاف، والفيضانات، وموجات الحر، من أعمال الانسان غير المقصودة»(ص٥) «ان النشاط البشري قد أحدث في ظروف الأرض تغييراً لاتسجله الكاميرا. ففي أرجاء العالم كافة يوجد الآن نشاط اشعاعي لم يكن هناك من قبل، وتوجد مخلفات خطرة للتفجيرات النووية، وصناعة الطاقة النووية، ودخان ضبابي يلف المدن الكبرى، ومبيدات حشرية تركيبية مسرطنة اكتشفت في لبن الأمهات في جميع انحاء العالم، وغابات شاسعة اجتثت فدمرت بذلك بيئات خاصة وانواعها المتوطنة فيها»(ص٦). وقد «زادت نسبة احتواء الغلاف الجوي على ثاني أكسيد الكربون ٢٠٪ منذ عام ١٨٥٠..» «سوف يذوب الجليد القطبي وتتمدد المحيطات ذات الحرارة الزائدة، وهذا سيرفع مستوى سطح البحر، ويغمر مدنا عديدة» «ويشتد عنف الطقس»(ص٨).

إن ما يلزمنا هو «ادراك التفاعل بين عالمينا: عالم البيئة الطبيعية» «وعالم التقنية الذي صنعه الانسان-وهو عالم بلغ جبروته حداً جعله يستحق عبارة التفخيم هذه»(ص٩). «إن العالمين في حالة حرب». فأحد القوانين الاساسية في عالم البيئة «يمكن أن يلخص بالقول «كل شيء مرتبط بكل شيء آخر». فالسمكة في الماء «ليست سمكة فقط وليست أم سمكة أخرى فقط، بل هي أيضاً منتجة فضلات عضوية تغذي كائنات حية دقيقة، وتغذي نباتات مائية في نهاية المطاف، وهي مستهلكة للاكسجين الذي تنتجه النباتات بالتركيب الضوئي، ومرتع للطفيليات وفريسة البازمن الحيوانات المائية». «اما عالم التقنية، فإن لإجراءاته المكونة -آلاف الاشياء المختلفة التي صنعها الانسان- علاقة مختلفة جداً بالمحيط. فالسيارة مثلا، لا يحددها الجوار بقدر ما تفرض نفسها عليه»(ص١٠) وفي الزراعة تعاظم تسرب

السماد الكيميائي الآزوتي «الى المياه الجوفية على شكل نترات لوثت الأنهار والبحيرات ومصادر المياه. . »(ص١١)

«اما قانون البيئة الثاني: «الكل شيء مستقر يمضي اليه». فهو يعكس، مع القانون الأول، الأهمية الجوهرية للدورات في عالم البيئة. ففي نظام بيئة مائية، مثلاً، تتحرك العناصر المشاركة عبر عمليات دورية مغلقة. . ». «في مثل هذا النظام الدوري المغلق لا يوجد شيء مما يسمى «نفاية»، فكل ما ينتج في مثل هذا النظام من الدورة «يمضي إلى مستقر» ثم يستخدم في مرحلة تالية، وفي المقابل، تحكم عالم التقنية عمليات خطية. . » يتحول الناتج عنها أو قسم منه الى نفاية تصرف «إلى الانهار أو المحيط، كنفاية تفسد نظام البيئة المائية»(ص١٢)

«وقانون البيئة الثالث غير الرسمي هو: «الطبيعة خير من يعرف». فانظمتها «مقاومة للتغير إذا تركت وشأنها»(ص١٣). «ومعدل التطور فيها بطيء جدا». وفي نظام البيئة «أنزيم قادر على تحليل كل مركب عضوي ينتجه كائن حي. والمركبات العضوية غير القابلة للانحلال الإنزيمي لا تنتجها الكائنات الحية. وهذا التنظيم جوهري لانسجام نظام البيئة، يتألف عالم التقنية من الاشياء والمواد التي تعكس عملية تبدل وتغير سريعة وصارمة، ففي اقل من قرن تقدم النقل من عربة الخيل الى سيارة فورد من طراز، T، ثم الى المجموعة الحالية من السيارات والطيارات التي تعدل كل عام»(ص١٥)

ثم ان «لكل تقنية حديثة أخطاء جسيمة لا تظهر كإخفاق في إنجاز هدفها المرسوم بل كتأثير خطير في البيئة. فالسيارات تسير عادة على مايرام بيد أنها تنفث الضباب الدخاني، ومصانع الطاقة تولد ما يكفي من الكهرباء، إلا أنها تنفث أيضا ملوثات خطرة. . »الخ(ص١٧)

«وبما أن الأزمة البيئية قد خلقتها الحرب بين العالمين اللذين يشغلهما المجتمع البشري، فلا يمكن أن تُفهم حق الفهم إلا من خلال

تفاعلهما»(ص١٨) ان البشر «جنس شاذ، متفرد بين الكائنات الحية، محكوم عليه أن يدمر موطنه الخاص». على هذا النحو يتم أحياناً تبسيط المشكلة. فهل ينبغي أن نحمي عالم البيئة من التدمير من أجل عالم البيئة ام من اجل زيادة رفاهية البشر الذين يعتمدون عليه؟» ثم كيف نفسر كلمة رفاهية؟ وهل كل التقنيات مضادة للبيئة أم أن «التقنيات المتوافقة مع عالم البيئة موجودة وإن كان استخدامها قليلاً حتى الآن»؟(ص١٩).

«إن الالتباس الذي خلقه الموطن المزدوج الذي نعيش فيه أدى الى استجابات واسعة النطاق للغاية.» «إن هذا الكتاب محاولة لتحليل الحرب بين عالم البيئة وعالم التقنية.» «وهو ليس صرخة حرب مع هذا الطرف او ذاك، بقدر ما هو خطة للتباحث حول إنهاء هذه الحرب الانتحارية لاقامة السلام مع الكوكب.»(٢٠)

العنوان الثاني في الكتاب هو «الاخفاق البيئي» والمؤلف يرى أن «الولايات المتحدة مكان مناسب للبحث عن اجابات» «فهي البلد الذي رسخت فيه الحركة البيئية أول ما رسخت»(٢١) «فالمعلومات عن مناحي تلوث الهواء متوفرة في البيانات السنوية التي تنشرها وكالة حماية البيئة (EPA) منذ عام ١٩٧٥ وهي تبين «أن خفض مستوى التلوث خفضاً حاداً أمر ممكن». والنجاح «في خفض تلويث الرصاص إنما يكشف الاخفاق في تحقيق خفض مماثل في طرح ملوثات الهواء كلها.» والدخان «الضبابي خطر متصل على صحة سكان المدن. ويعتبر المطر الحمضي من النتائج المترتبة على عدم حل مشكلات تلوث الهواء»(ص٢٥) لقد خفضت مقذوفات بعض المصانع من ثاني اكسيد الكبريت لكن «مقذوفات أكاسيد النتروجين من مصانع الطاقة ووسائل النقل قد ازدادت» لذلك «فإن تحسناً مهماً في مشكلة المطر الحمضي غير متوقع..»(ص٢٦) «والتغير الاكثر لفتاً للنظر كان التغير -نحو الأسوأ- في مستويات النترات، إذ لوحظ ازدياد في ٣٠٪ من المراكز،

وانخفاض في ٧٪ منها فقط»(ص٢٨) «والضوابط التي حددها مرسوم المياه النظيفة والمئة بليون دولار ونيف التي انفقت للوفاء بها، اخفقت في تحسين نوعية المياه في معظم الأنهار»(ص٢٩) «إن تلوث الهواء والماء يحتل المرتبة الثانية من الاهتمام العام بعد خطر بيئي جديد هو المواد الكيميائية السامة. فلأول مرة في غضون الاربعة بلايين سنة التي هي تاريخ الحياة على الكوكب تنوء الكائنات الحية تحت عبء طائفة غريبة ضارة بها من المواد التي صنعها الانسان»(ص٣٢). فمئات «المواد الكيميائية السامة، والعديد منها مسرطن، بقيت موجودة في مصادر المياه والهواء والطعام»(ص٣٣). «اما تلوث البيئة بالمواد المشعة فهو نسيج وحده، إذ أنه ينشأ عن قطاع وحيد من قطاعات الانتاج هو معالجة الطاقة النووية من أجل اغراض سلمية أو عسكرية»(ص٣٦). وقد بلغت الطاقة النووية «مرحلة نضجها المؤذية»(ص٣٩). ويؤكد تقرير حديث أن «الاخفاق في تحسين نوعية الهواء في المدن يشمل العالم كله»(ص٤٠). ويجري «تدمير المصادر الطبيعية بمعدلات متزايدة. ولعل أكثر المشكلات خطورة هو تدمير الغابات العذراء، ولا سيما في المناطق الاستوائية حيث تعيش أصناف متنوعة جداً من النبات والحيوان»(ص٤٢).

ويطرح المؤلف السؤال: «كيف نستطيع أن نفسر إخفاق الجهود الواسعة التي بذلت من أجل تنظيف الطبيعة؟»(ص٤٥) ويؤكد: «إن وسائل التحكم لا تُحدث الا تحسناً قليلاً، أو لا تحدث أي تحسن، في نوعية البيئة لأنها تُبطل ذاتها في نهاية الأمر»(ص٤٦). لكن «الوقاية تنجح لأنها موجهة إلى منشأ الملوث في العملية الانتاجية ذاتها-الآلية الهائلة المتنوعة للصناعة والزراعة والنقل»(ص٤٨). إن مرض التلوث مرض عضال «ليس في وسعنا إلا أن نتوقاه. ولكن بدلاً من توقي المرض جرى استخدام الضمادات»(ص٥٠).

وقد أدى الانتقال الى الخيوط الصنعية والاكياس البلاستيكية «إلى اعتداء جديد على البيئة أو شدد اعتداءً قديماً»(ص٥١) «وتُماثل المبيدات من حيث الجوهر العقاقير الصيدلية، إذ أن تأثيرها المقصود يصاحبه في الغالب آثار جانبية خطرة»(ص٥٤) وقد اكتشف أن الكثير من المبيدات ضار «ومع ذلك يرش في الولايات المتحدة كل عام ٧٥٠ مليون رطل من المبيدات الحشرية»(ص٥٥) وتزداد الاصابة بالسرطان. .

وتستعمل «بلدان العالم الثالث كثيراً من المبيدات المحظورة في البلدان المتطورة بسبب مخاطرها البيولوجية. . .». . «نتيجة لذلك، فإن الغذاء الذي تنتجه بلدان العالم الثالث هو في الغالب شديد التلوث»(ص٥٧) والخلاصة هي «حين يُهاجم الموت في المنشأ -في عملية الانتاج التي تولده- يمكن أن يزال، وما أن يُنتج حتى يفوت الأوان»(ص٦٠).

«لقد مُني الجهد البيئي بالاخفاق. .» و«الكلفة المترتبة على هذا الخفاق هي بالطبع بقاء البيئة ملوثة.» إن الوقاية من المرض «ناجعة اكثر من معالجته بكثير.»(ص٦١) وكثيرا مانكون أمام «منطق سليم واخلاقية مثيرة للسخط.»(ص٦٩) فقد اقترح «بعض الاقتصاديين أن تقوم حياة الانسان على أساس قوة الكسب. وعلى هذا تكون حياة المرأة أقل قيمة من حياة الرجل وحياة الأسود أقل قيمة من حياة الأبيض. . .» «وهذا أمر شائع في حقيقة الأمر. .» إذ ان «أشد النفايات سمية ترمى بالقرب من مساكن الجماعات الزنجية والاسبانية الفقيرة.»(ص٧١) «إن وكالات البيئة أصبحت قادرة قدرة لافتة للنظر على ابتكار سبلٍ جديدة للتراجع أمام الاخلاق.»(ص٧٣) «ومن سوء الحظ أن جهاز المناعة في مجال العلم البيئي قد اضعفه ضغط خارجي-من مكتب الادارة والميزانية، مثلاً.»(ص٧٧) «ففي عام ١٩٨٧، عينت وكالة حماية البيئة طائعة مجموعة من العلماء مهمتهم مراجعة تقديرات الدايوكسين التي جرت عام ١٩٨٥ في ضوء

المعطيات الجديدة والتفسيرات البديلة . وقد قدم هؤلاء العلماء مسودة تقرير اتبعوا فيه صاغرين التعاليم العلمية التي وضعها مكتب الادراة والموازنة حول ادارة الأخطار ليكون مسخرة سافرة . »(٨٠) والنقص الخطير في التقرير ليس اغلاطه الصارخة وحسب «فالخطأ الاكثر جسامة هو أن هذه البنية العلمية المهلهلة قد اقيمت من أجل حماية السياسة العامة من التدقيق الشعبي»(ص٨٣)

إن الانظمة البيئية «تحكمها قوى طبيعية عنيدة وثابتة الى حد كبير، على حين تخضع أنظمة الانتاج لعمليات فوضوية تحكم اختيار الانسان . »(ص٨٥) «إن التغير في تقنية الإنتاج هو إذن في كل حالة أمر يحدثه المنتج وتحكمه مصالح المنتج»(ص٨٦) إن «الدافع الاقتصادي -وخاصة توقع ارباح اكثر- قد فرض التغييرات الجارفة المضرة بالبيئة في تقنية الانتاج منذ الحرب العالمية الثانية . » وثمة صراع «لا مفر منه بين هدفين مطلوبين اجتماعياً هما : الانتاجية الاقتصادية ونوعية البيئة . »(ص٨٧) وقد اكره العمال الصناعيون على «أن يكونوا في أحوال كثيرة موضعاً للتجارب البيئية مثل خنازير غينيا، وعانوا الآثار المبكرة والشديدة للمواد السامة التي اكتشفت فيما بعد في البيئة . » فثمة مواد ضارة لم تحظر الا بعد ثلاثين عاماً من اكتشاف ضررها(ص٨٩) ومن المعترف به أن «صانعي القرار في الشركات الأمريكية تحركهم بوجه عام مكاسب قصيرة الأمد . »(ص٩٠) والمصاعب تنشأ «من اصرارهم على توجيه الاستثمارات الجديدة بحسب توقع عائدات سريعة تزيد معدل ارباحهم السنوي . »(ص٩١) والاعتماد الكبير «للتقنية الزراعية على المواد الكيميائية لم يلحق الضرر بالبيئة فقط، بل باسباب رزق المزارعين أيضا . »(ص٩٢) وكانت الارباح الصافية «للصناعة الكيميائية في عام ١٩٨٦، ٦و٢ بليون دولار . إن علم الحساب علم مهلك : فاذا طلب من الصناعة الكيميائية أن تزيل المواد السامة المطروحة في البيئة، فإن الكلفة ستجعل هذه الصناعة غير رابحة اجمالاً . »(ص٩٥)

وقد تضررت انتاجية نظام البلاد الاقتصادي، باهمالنا للخدمات البيئية العامة من مثل معالجة المياه، ومياه الصرف الصحي.» ففي ظل ادارة ريغان حدث «انخفاض حاد في الدعم المالي لهذه الخدمات الأساسية وذات الأهمية البيئية.»(ص١٠٠)

«إن الغاء مركزية شبكة الطاقة الكهربائية يمهد السبيل الى الطاقة الشمسية الأجدى أيضا من أي طاقة من حيث المردود حين تُنتج للاستخدام» «ويمكن أن تجنى مكاسب مماثلة، بيئية واقتصادية من اعادة تنظيم الانتاج الزراعي على اسس سليمة. إن الزراعة بالغة التأثير من الناحية البيئية في تحويل الطاقة الشمسية الى غذاء وألياف.»(ص١٠٢) ومتوسط «السنوات الخمس يبين أن المزارع العضوية قد انتجت من كل فدان الدخل الصافي نفسه الذي انتجته المزارع التقليدية.» ويمكن «انتاج الطاقة في المزرعة ايضا على شكل ايثانول مصنوع من تخمير المحاصيل، وبقاياها.»(ص١٠٤) وحتى في صناعة السيارات «يمكن انشاء محركات لا تنتج اكاسيد النتروجين»(ص١٠٥) إن تحسناً بيئياً واقتصادياً اكبر «يمكن انجازه بالانكباب على نظام النقل كله.»(ص١٠٦)

إن النظرة التي ترى «أن رفاه الأمة يعتمد على «المشروع الخاص» نظرة راسخة في الحياة السياسية الأميركية بحيث أن إثارة مسألة امكان التدخل الشعبي كثيرا ما تكون مفتوحة للسخرية.»(ص١٠٩)

والقمامة «ملوثة للبيئة، وهذه هي النتيجة النهائية لعمليات الانتاج الخطية التي تزود العائلات والمؤسسات التجارية بالبضائع المطلوبة. فما يدخل المنازل من سلع يتحول معظمه الى القمامة، إن عاجلاً أم آجلاً». مثل الصحف واوعية الحليب الخ.. ومعظم التغيرات «التي زادت تدفق القمامة» «قد خلفتها قرارات المنتجين»(ص١١٠-١١١)

ويحث موظفو البلديات عن حل.. فحفروا الحفر وطمروا القمامة ثم خطرت لهم «فكرة قديمة هي حرق القمامة» واقيمت مرمدات «إلا أن

معظمها توقف عن العمل» «وظلت القمامة تتدفق دون رحمة»(ص١١٣) واعيد طرح فكرة تحسين المرمدات ودار حولها جدل طويل واخفقت «المعطيات في دعم النظرية -المستمدة من مصانع الطاقة- التي اعتمد عليها مهندسو مرمدات القمامة للتحكم في مقذوفات الدايوكسين» (ص١٢٢-١٢٣) وتبين أن «الدايوكسين يتركب في مرمدات القمامة.» (ص١٢٤) ثم ان «مرمدات القمامة، مثلها مثل الطاقة النووية قبلها، تزداد كلفتها باطراد بما ان المعالجات مطلوبة للتحكم في عيوبها البيئية الملازمة لها.»(ص١٢٥)

وبعد الكثير من البحث والتجارب في مدن كثيرة ظهر أن هناك «مجالاً لاختيار احدى تقنيتين للتخلص من القمامة يمكن أن يخففا الى حد بعيد من الاعتماد على الحفر وهما: الإحراق أو المعالجة الشاملة»(ص١٤٣) وأزمة القمامة «توضح كآبة الصورة البيئية..»(ص١٤٥) والمعالجة الشاملة «ذات مردود أفضل من الاحراق، إذ انها تحفز في الواقع اقتصاد المنطقة لا تستنزفه»(ص١٤٦)

واحدى «فضائل النظرة البيئية هي أننا نرى كوكب الأرض كلاً منسجماً، نظاماً شاملاً من الماء والتربة والاحياء، يحيط به غلاف رقيق من الهواء» وحين ننظر اليه «وعيننا على تجلياته الانسانية -عالم التقنية والأنظمة التي تنشئه- نراه منقسماً الى قسمين. يشتمل قسمه الشمالي على عالم التقنية الحديثة -المصانع، ومحطات الطاقة، ووسائل النقل، والمصانع البتروكيميائية- والثروة التي يخلقها، أما قسمه الجنوبي فيشتمل على معظم سكان الكوكب الذين يعيشون كلهم تقريباً في فقر مدقع.» وتغدو البلدان النامية «ضحايا الصادرات السامة أيضاً.»(ص١٤٩) واكثر من ذلك ثمة من يزعمون أن «مشكلة التلوث نتيجة من نتائج تزايد السكان. فلا يهم كثيراً كم يرمي الانسان الأمريكي من القمامة...» «لذلك فإن حرية الإنجاب سوف تسبب الدمار.»(ص١٥٠) وقد زعم بعضهم أن «التحكم في عدد السكان

هو السبيل العملي الوحيد للتخفيف من التلوث . . . » . . لعل كل مشكلة بيئية أو اجتماعية أو سياسية «تنشأ من زيادة السكان وتتفاقم من جرائها . . » ومعروف أن «النوع الذي يعيد انتاج ذاته متجاوزاً بذلك ما يتحمله موطنه، تأخذ الضوابط والتوازنات الطبيعية تفعل فعلها فيه . . . والنوع الانساني يحكمه القانون الطبيعي نفسه . »(ص١٥١) وهذه الآراء «تصدر اكثر ما تصدر عن مفهوم ايكولوجي جوهري يخص العلاقة بين من يأكل وما يؤكل . » ويحث «بعض المهتمين بالبيئة على خفض عدد السكان ويعارضون إعانة الجائعين معتبرين إياها عملاً من أعمال الضلال العديمة الجدوى . . »(ص١٥٢)

والحقيقة أن القضية هي «كيف نوجد نظام انتاج يمكن أن ينمو ويتطور في انسجام مع البيئة»(ص١٥٦) والمجاعات «لا يسببها نقص الغذاء في العالم بل التوزيع غير العادل وهذا ليس ظاهرة بيئية، بل ظاهرة سياسية واقتصادية . » (ص١٦١) وتبين «المعطيات المتوفرة عن الجوع، ونوعية البيئة، في البلدان النامية أن تأثير حجم السكان فيهما أقل من تأثير الوضع الاقتصادي وأنواع تقنية الانتاج التي تستخدمها . » كما ان «ازدياد السكان، شأن العوامل الأخرى يسهم في زيادة طلب الغذاء وفي الضغط على البيئة . »(ص١٦٢) فاذا استمر مستوى المعيشة في التحسن «فإن عدد السكان سيبدأ في آخر الأمر بالتوازن . »(ص١٦٧) وقد بينت التجربة «أن السعي إلى تنظيم الاسرة قد فشل في خفض معدل المواليد، على حين أفلح في ذلك تحسين مستوى المعيشة . »(ص١٦٩) وطريقة التحكم «في النمو السريع للسكان في البلدان النامية» هي مساعدتها «على التطور والاسراع في بلوغ مستوى الرفاه الذي هو الدافع الحقيقي لانخفاض معدل المواليد في العالم»(ص١٧١) إن العالم الثالث «يتم إفقاره بشكل فظيع، وإنه يناضل ، ضد فروق كبيرة، من أجل تطوير مستوى معيشة شعوبه . »(ص١٧٢) واذا لم يُعمل شيء «ابتغاء إعادة تنظيم توزع الغذاء والموارد الاقتصادية فان

الفقراء والجائعين في العالم سيتضاعفون . . » وسيزداد تلوث العالم . (ص١٧٣) وستنحدر الاهتمامات الاخلاقية . «إن هذه المشكلات كلها لها حل مشترك هو ازالة الفقر . »(ص١٧٤) «بيد أن الحلول البديلة التي قدمت حتى الآن هي أيضاً صعبة، ومجهدة اجتماعياً، وبعضها مقيت من الناحية الأخلاقية . » ومن مقترحات «جاريت هاردن «من الواضح أن إرسال الطعام هو أسوأ ما بوسعنا القيام به . إن القنابل الذرية ستكون أرحم . فالشقاء لن تدوم شدته إلا بضع دقائق . . »(ص١٧٥)

ويقدم المؤلف رأيه الشخصي مستنتجاً ان «ازمة السكان في العالم، والتي هي الحصيلة النهائية لاستغلال الأمم الغنية للامم الفقيرة ينبغي معالجتها باعادة ما يكفي من الثروة المنهوبة من البلدان الفقيرة الى تلك البلدان لكي تقدم لشعوبها الاسباب والموارد لتحديد نسبة المواليد فيها . » إن «السبب الجذري لأزمة السكان في العالم هو الفقر . »(ص١٧٦)

«لقد اخفقت حملة تنظيف البيئة اخفاقاً كبيراً . . . » فثمة قناعة راسخة في «المجتمع الأمريكي بأن القرارات التي تحدد ما يُنتج، وبأي وسائل تقنية، يجب أن تبقى في أيدي الشركات الخاصة، والمتحدة عموماً . ففي الولايات المتحدة يبدو أنه حتى المناقشة العامة لهذا المبدأ الاساسي من المحرمات، ناهيك عن نقده . »(ص١٧٨) وقد عاد بعض الناس الى الأرض «يزرعون ما يأكلون، ويبنون منازلهم، ويصنعون أثاثهم ويعالجون النفاية . . » والتمس آخرون الاعتماد على الذات «على المستوى الاقليمي . »(ص١٧٩) . . ولكن «لا سبيل الى اعادة تنظيم المجتمع على أسس سليمة من الناحية البيئية من دون التحدي المباشر للقوى السياسية المحافظة الجبارة وبصراحة اكثر، للمفاسد التي تهيمن على نظام الانتاج . » وليس جديداً «أن يتوهم بعض الناس أن تحسين البيئة قضية محايدة سياسياً . »(ص١٨٠) لقد دعا نيكسون وعمل كي «تستعيد» امريكا «نقاوة هوائها» ولكنه أدرك «بعد أقل من عام أن المحافظة على البيئة تهدد مبادئ سلطة الشركات . » . . «وبما أن التلوث ملازم

لتصميم تقنيات الانتاج بالذات، فان التنظيم لن يكون له إلا تأثير محدود بعد اختيار التقنية، إذ أنه يعالج الأعراض بدلاً من المرض. »(ص١٨١) «إن السبيل السياسي الصعب هو السبيل الوحيد المفضي الى السبيل البيئي السهل. »(ص١٨٢)

ويرى القادة البيئيون أنه من أجل سن قوانين صارمة لتحسين البيئة «يجب استمالة أغلبية أعضاء الكونغرس. إلا أن المشرعين واقعون أيضاً تحت تأثير جماعات الضغط الصناعية الطائلة الأموال التي تقاوم بشدة مثل هذه التقييدات على أعمال شركاتها. »(ص١٨٣) وفي كثير من الأحيان تخاطب منظمات البيئة الشركات خطاباً يشبه الاستجداء (راجع ص١٨٥) «إن المنظمات الوطنية تعالج الداء البيئي بالتفاوض حول نوع الضمادة، وتعالجه الفئات الاجتماعية بالسعي الى الوقاية منه. »(ص١٨٧) «إن التحكم في التلوث ليس كافياً. سيتحسن وضعنا بيئياً واقتصادياً عندما يمتنع حدوث التلوث في المقام الأول. »(ص١٩٢)

ومن ثم.. يرد السؤال: «ما الذي يمكن القيام به لإنهاء الحرب بين الطبيعة والانسان، بين عالم البيئة وعالم التقنية؟» ثمة من يرون أن النصر لا يكون الا «باندحار عالم التقنية» ولكنهم يسألون كيف؟ ويختلفون.. «ويؤمن بعض الناس بالتعادل» ويريد آخرون «أن ينتزعوا جزية باهظة، إذ يطالبون بأن يخفض عدد سكان العالم، ويخفض معه مستوى النشاط الاقتصادي، والاجهاد البيئي. »(ص١٩٩)

«أنا أعتقد أن العالمين يتبادلان التدمير في هذه الحرب. فالطبيعة تُدمر، والمجتمع البشري يعاني لا بسبب التدمير فقط، بل لأن نظام انتاجنا الحالي المدمر للبيئة يقلل من فرص النمو الاقتصادي، ولا سيما في البلدان النامية.» إن الوقاية «تتطلب تحويل البيئة» وهذا يعني «اعادة تصميم واسعة لأهم الأنظمة الاقتصادية والزراعية وانظمة الطاقة والنقل..» «وأن الوسائل

السياسية المناسبة يجب بالتالي أن تتطور»(ص٢٠٠)ويجب تضييق «الهوة الاقتصادية بين الشمال الغني والجنوب الفقير. .» «يجب أن يكون عالم التقنية الجديد منتجاً ومنسجماً مع عالم البيئة في آن معاً.» ولكن هذا كله «ليس إلا منطقاً، ليس إلا مجموعة من الأفكار المعقولة والمجردة. أما الواقع الراهن فهو غير منطقي، وهو من الضخامة والحصانة بحيث يبدو غير قابل للتغير. هل نحن محكومون إذن بمواصلة حربنا الانتحارية مع الكوكب؟»(ص٢٠١)

ان التحويل «الجديد يقتضي حافزاً جديداً، إذ أن الحافز القديم -الحد الاقصى من الربح الخاص القصير الأمد- هو ذاته المسؤول عن العلاقة المشؤومة بين التقنيات الحالية، وتأثيرها الوخيم في البيئة. ومن ناحية أخرى، من الثابت أن إدخال تغييرات كهذه في أنظمة الانتاج أمر ممكن ضمن حدود الواقع المعاصر.»(ص٢٠٢)

إن المنتجات البتروكيميائية المستخدمة الآن على نطاق واسع «تمثل اكثر المشكلات صعوبة، وإحلال مواد أقل سمية محل المواد الكيميائية الرائجة إجراء فعال أحياناً.»(ص٢٠٣) ويمكن تلافي الكثير من الاخطاء «إذا رأعينا مبدأً مهماً هو التكامل الصحيح بين المرفق غير الضار بالبيئة، ونظام الانتاج الكلي.»(ص٢٠٤) والاجراءات «التي تحسن في البداية فعالية الطاقة والبيئة باستخدام وقود احفوري غير متجدد يمكن أيضاً أن تسهل الانتقال الى الطاقة الشمسية المتجددة.»(ص٢٠٥) «وتنشأ قضية مماثلة من إدخال أنواع بديلة من الوقود لخفض تلويث وسائل النقل للهواء.»(ص٢٠٦)

إن الحاسبات الحالية تشير «إلى أن اكثر الكوارث احتمالاً تسخين الأرض- يمكن درؤها إذا قمنا بأعمال ملائمة في العقود القليلة القادمة، ولكن يجب الشروع بذلك الآن. وفي العشرين سنة المقبلة، من الضروري إجراء التغيير الرئيسي المطلوب للوقاية من تأثير البيت الزجاجي. .» أما كلفة

تحويل أنظمة الانتاج الحالية إلى انظمة «تحافظ على سلامة البيئة» فأمر «يتعلق بسياسة استثمار الأموال.»(ص٢٠٧-٢٠٨)

وتبقى مسألة توفر الرأسمال الكافي وفي الفترة المطلوبة. كما تبقى مسألة: «وما الدافع والمبادئ الضابطة التي ستضمن توظيف الأموال في التقنيات الانتاجية المناسبة؟»(ص٢٠٩) «وفي الصناعة البتروكيميائية تزداد الأمور تعقيداً»(ص٢١٠) «وهناك في الزراعة مشكلة إعادة التوظيف الخاصة التي ترتبط بحالة التربة. فالاستخدام الكثيف للمواد الكيميائية الزراعية يرافقه عادة فقدان مستمر للخصوبة الطبيعية، والعناصر الطبيعية المنظمة للحشرات، من مثل المفترسات.»(ص٢١١)

إن «البدائل السليمة بيئياً لتقنيات الانتاج الحالية الشديدة التلويث موجودة.» وثمة ترتيبات «يمكن أن تضغط على المقاولين للقيام بالاستثمارات اللازمة. هل سيكفي هذا لحل الازمة البيئية؟ هل يمكن الالتفاف حول الحاجز الايديولوجي الذي يحرس الاستثمار الخاص من التدخل الاجتماعي على هذا النحو؟ أم أن الأمر سيتطلب مناحل القضية الايديولوجية ذاتها؟»(ص٢١٨)

«إن التاريخ يحذرنا من الإفراط في التفاؤل. في نيسان من عام ١٩٧٠ ظهر أن انتصارنا وشيك في الولايات المتحدة على الأقل، فالاحتجاج التلقائي العام على أوضاع البيئة سرعان ما أدى إلى وعود بالعمل من جميع القادة السياسيين تقريباً.» «والآن، مع حلول الذكرى العشرين للاخفاق الكبير في وضع برنامج بيئي عملي يواجهنا خطر أن يكرر التاريخ نفسه.»(ص٢٢٠) وهناك «تناقض أيديولوجي أعمق بين الوقاية، السوق الحرة، وهو أن الوقاية تعني التحكم في تصميم عمليات الانتاج وفقاً للمصلحة الاجتماعية في نوعية البيئة..»(ص٢٢١).. [«الاختيار في اقتصادنا القائم على المشروع الحر في يد الخاصة وليس العامة، وهو مبدأ لا يناقضه إلا القلة من الامريكيين، فما قولك في تحديه.» «وفي كل الأحوال

ليس هناك قانون ينص على أن الشركات يجب أن تؤثر مصالح الأمة على مصالح أصحاب الأسهم. »(ص٢٢٢). يقول مدير احدى الشركات: «إن همنا الاقتصادي ليس انتاج الطاقة بل تأمين أفضل العوائد الممكنة للمساهمين.» ومعنى «المشروع الحر» هو «إن صاحب الرأسمال حر في استثمار أمواله في أي مشروع يقدم له أفضل نسبة مرجوة من المردود.. »(ص٢٢٣) «إن السلطة الاقتصادية التي يتولاها قلة من الاشخاص يهيمنون على شركة جبارة هي قوة هائلة تستطيع أن تضر أو تفيد عدداً كبيراً من الأفراد، وتؤثر في مناطق كاملة، وتغير مجرى التجارة، وتسبب الدمار لجماعة، والرخاء لأخرى.»(٢٢٤) إن الحقيقة «لا يمكن أن يبدلها الاستحسان ولا الاستهجان، والحقيقة هي، كما رأينا، أن تحسناً جوهرياً في البيئة لا يمكن أن يحدث إلا حين يكون اختيار تقنية الانتاج أمراً متاحاً للتدخل الاجتماعي..» «إن المجتمع الأمريكي ليس مهيأ لتولي هذه المهمة..»(ص٢٢٥)

إن الصمت الذي استقبلت به رسالة الاساقفة الكاثوليك «هو أحد التعبيرات الكثيرة عن القناعة الراسخة في الولايات المتحدة بأن نظامنا الاقتصادي يختار تلقائياً تلك المشروعات الانتاجية التي تستخدم مواردنا الطبيعية والاقتصادية والبشرية استخداماً فعالاً للغاية، وبالتالي يقدم أفضل خدمة للمجتمع. ومع أن مزايا النظام معترف بها اعترافاً شاملاً تقريباً، فإنه نادراً ما يسمى باسمه، أي النظام الرأسمالي. فهذا يعتبر خرقاً للأعراف السياسية، وإدخالاً للأيديولوجيا المتحزبة الى ما يفترض أنه إجماع وطني لايُجهر به.». «ولكن اذا رغبنا في حل الأزمة البيئية -دعك من القضايا الاجتماعية- فإن القضية الإيديولوجية لا يمكن أن نتجنبها.»(ص٢٢٦) «إن تطور التقنية سيستمر، ورأسماليو المستقبل سيرتكبون أخطاء بيئية جديدة إذا تركوا لخططهم الرامية إلى كسب أقصى الأرباح القصيرة الأمد.»(ص٢٢٧)

وثمة مسألة أخرى هي: «كانت الهيمنة الخاصة على الانتاج التي تبنتها البلدان الاشتراكية قد تطورت في الواقع في البلدان الرأسمالية بعد الحرب

العالمية الثانية . . » ومن غير المعقول أن نتوقع من السيارة «أن لا تنفث في موسكو الملوثات ذاتها التي تنفثها في روما . »(ص٢٢٨) «بيد أن قرار تصنيع هذا المحرك أو ذاك لا يقوم على أساس الضرورة العلمية ، بل على أساس الخيار الانساني . وهذا الخيار يرتبط بالسياسة وليس بالعلم . »(ص٢٢٩)

إن السوق «وسيلة مفيدة لتسهيل تدفق السلع من المنتج الى المستهلك ، إلا أنه يتحول إلى شر اجتماعي حينما يسمح له بالتحكم في تقنية الانتاج . . » ومفهوم «السوق الذاتي التنظيم» هو «اسطورة خطرة ومهلكة اجتماعياً . إن السوق خادم عجيب ، ولكنه سيد يسبب كوارث» (ص٢٣١-٢٣٢)

إن الامر يحتاج الى أن «تطرح مطالب المجتمع في قوة ووضوح» لا أن «نعتمد على النية الطيبة للشركات حيال البيئة . وباختصار ، يجب اقامة مؤسسات تحقق التوجيه الاجتماعي لقرارات الانتاج ، وهذه السلطة الرسمية لا بدمنها لحل الأزمة البيئية ، ومن المرجح لحل قضايا اجتماعية أخرى . »(ص٢٣٥)

«إن التاريخ القريب تأكيد قوي على أن الدافع الديمقراطي العام يمكن أن يترجم الى اشكال عملية جديدة» وليس من الحكمة ان ننبذ الفكرة القائلة : «إن الديمقراطية البيئية والاقتصادية يمكن أن تتحقق بتطبيق التوجيه الاجتماعي للانتاج . من المفيد أن نتذكر أن حرب عالم التقنية ضد عالم البيئة يشترك فيها جنرالات وجنود يمانعون هذه الحرب . »(ص٢٣٧) ومن الممكن «أن يتغلبوا على جشعهم إلى أرباح اكثر ، ويوقفوا حربهم الايكولوجية خوفاً من أهدافها . لكن الوقائع تشير إلى أن هذا الأمر غير مرجح . . » وليس «مرجحاً أن يتخلوا طوعاً عن مواقعهم القوية ، ويوقفوا الحرب على البيئة . »(ص٢٣٨)

وقد سعى «الخضر» الى لعب دور في حل هذه المشكلة ولكنهم لم

يجتذبوا «العاطلين عن العمل، ولا الناخبين الآخرين الذين تعاطفوا معهم» فواجهوا منذ البداية «مشكلة الارتباط الوثيق بين الايكولوجيا والاقتصاد» مثلهم مثل «الحركة البيئية عامة.»(ص٢٣٩) «وبعد كارثة تشيرنوبل، وما خلفته من آثار، ازداد تقارب الديمقراطيين الاجتماعيين من موقف الخضر المناهض للطاقة النووية» ويقدم الحزب «الاخضر» في المانيا الغربية «مثالاً حياً ومؤثراً على ترابط الايكولوجيا مع الاقتصاد، وعلى ترابطهما مع السياسة.» وفي ايطاليا يشاطر الخضر «أحزاب اليسار الايطالية توجهها السياسي العام. ويودي هذا الى تشكل ظاهرة الخضر الحمر..»(ص٢٤٠)

«أما في الولايات المتحدة، فقد اتخذت السياسة البيئية منحى متميزاً. فالحركة البيئية هنا جزء من الظاهرة التي أدت منذ الحرب العالمية الثانية الى ظهور موجات متتالية من الحركات الشعبية التي توجهها قضية بعينها: من أجل الحقوق المدنية، أو ضد التجارب النووية، من أجل حقوق المرأة الجنسية أو ضد الحرب في فيتنام، من أجل البيئة، أو ضد الطاقة النووية من أجل الطاقة الشمسية أو السلام العالمي.»(ص٢٤١) واكبر اخفاق لهذه الحركات «كان عجزها عن ترجمة ملايين الأصوات التي يمثلها أنصارها المتحدون الى قوة انتخابية ذات وزن تستطيع أن توصل إلى الحكم من يحمي مكاسبها ويوسعها.»(ص٢٤٢)

إن التجليات البارزة للمشكلة البيئية «التي عزلت المشكلة «باعتبارها اهتماماً خالصاً» ليست إلا التعبيرات الملموسة عن مشكلة تحتية عميقة هي كيف يوجه النظام الوطني للانتاج. ههنا تقف الحركة البيئية على أرض مشتركة مع الحركات الأخرى، لأن كل واحدة منها لها صلة جوهرية بالتحكم في الانتاج. فمن المظاهر الخطيرة للتمييز دفع أجور للنساء، والأقليات العرقية، أقل من أجور البيض، وهذا شأنه شأن التلوث يرجع الى القرارات التي يتخذها مدراء المشروعات الانتاجية..» «والعلاقة بين هذه الأرض المشتركة، وقضايا السلام، والسياسة الخارجية، أقل مباشرة من

غيرها، ولكنها مع ذلك جوهرية . فهي توضح، مثلاً، التسويغ الجلي للميول العدوانية عند الحكومة الامريكية في السنوات الأخيرة، وهي أن القوة يجب استخدامها حيث اقتضى الأمر دعماً للحكومات، والجماعات السياسية التي تفضل مبادئ «المشروع الحر» في السيطرة الاقتصادية، شأن الولايات المتحدة.»

«إن الطريق الذي سلكه مارتن لوثركنغ في الأعوام الأخيرة من حياته مثال على الحيطة . لقد أحرز كنغ، وهو في أوج تأثيره، انتصارات كبرى، وتبعه جمهور عريض كقائد لهجوم قوي على المظاهر البارزة للتمييز العنصري. .» ثم بدأ كنغ «قبل اغتياله ببضع سنوات، يربط التمييز العنصري بأصوله، وبالتالي بالقضايا الاجتماعية الاخرى. .» «وهكذا قاد مسيرة الفقراء (البيض والسود) في واشنطن، وايد اضراب عمال التنظيفات في ممفيس وأعلن معارضته للحرب في فيتنام.» «وربما مات وهو مؤمن أن هذا الطريق الجديد قد قربه من لب المشكلة التي تصدى لحلها، وهو أنه تحت الأساس القانوني للتمييز العنصري ترقد المشكلات الأعمق، مشكلات الفقر والعنف، وأن جذور التمييز العنصري هي أيضاً جذور الفقر والحرب.» (ص٢٤٤) «إن الطريق الذي أخذ يسلكه مارتن لوثر كنغ قبل وفاته لم تعثر عليه الحركة البيئية بعد، ولا أي من الحركات الأخرى المناضلة من أجل قضية معينة . إلا أن التجربة البيئية تلقي ضوءاً ساطعاً على الاتجاه الذي ينبغي أن تتخذه.»

إن الحرب ضد الطبيعة عالمية «ولن ينهيها إلا عمل عالمي. .»

«هناك تقييدات خطيرة على البلدان النامية، وإذا لم تخفف ستضعف قدرتها كثيراً على المشاركة في التحول إلى أنظمة انتاج تحافظ على سلامة البيئة» إن دفع فوائد ديونها «يحكم على معظمها بالارهاق الاقتصادي. .»(ص٢٤٥) وهناك الحقيقة الفاجعة «وهي أن كثيراً من البلدان

النامية قد دمرتها الحروب . . » «إن معظم شعوب العالم الثالث تعاني فقراً مدقعاً، ويحكمها أقلية صغيرة، وغنية نسبياً، محلية أو اجنبية . والواجب الانساني يقضي أن لا تتحمل الشعوب الفقيرة التي لم تتحرر بعد هذا الوضع إلى ما لا نهاية . »(ص٢٤٦)

وسيحتاج حل «الازمة البيئية الى ٥٠٪ تقريباً من الانفاقات العسكرية العالمية، أي أننا نستطيع أن ننهي هذه الأزمة بالتخفيف الشديد لالتزام العالم بالسياسة العسكرية . . »(ص٢٤٨) إن البحث «والتطوير العسكريين قد أصبح معدل الانفاق عليهما ضعفي معدل الانفاقات العسكرية الاجمالية . ونتيجة لذلك تجند القوات المسلحة الآن نصف العلماء والمهندسين في العالم . » «وتؤدي الانفاقات العسكرية الى انحطاط الطاقة الانتاجية للأمة وتضعف قدرتها على التطور الاقتصادي . » «فعند الأمم المصنعة، هناك علاقة عكسية بين معدل زيادة الانتاجية، وموازنة البلاد العسكرية، ويعبر عن هذه العلاقة كنسبة مئوية من الإنتاج القومي الاجمالي . »(ص٢٤٩) «إن الطائرة ستصبح وسيلة إنتاج تخلق الثروة وهي تطير . ومن ناحية أخرى إذا اشترت القوات الجوية الامريكية تلك الطائرة ذاتها، فلن تنتج شيئاً ذا قيمة اقتصادية . لذلك هناك صلة قوية بين إعادة البناء الايكولوجية ونزع السلاح . » إن الحرب والتهديد بها «عقبتان كبيرتان أمام حل أزمة البيئة . »(ص٢٥٠) إن الولايات المتحدة «لا تزال تتمسك بالخطر الصارم حتى على بحث التزامنا بالتوجيه الخاص حصراً للانتاج–فما قولك في بحث تغييره!»(ص٢٥١)

إن العدوان الذي نشنه على الطبيعة «الحروب والتهديد بالحروب، التي أوقعت العالم في البؤس، لها أصل واحد هو إخفاقنا، في البلدان الرأسمالية والاشتراكية على السواء، في الانتقال إلى مرحلة تاريخية جديدة، إلى ديمقراطية لا تشمل فقط الحرية الشخصية والسياسية، بل القرارات الأولية التي تقرر مستقبل حياتنا، وحياة الكوكب . الآن وقد بدأ

الناس في العالم يعرفون أن البقاء يتوقف على إنهاء الحرب مع الطبيعة وعلى انهاء الحروب بيننا نحن على السواء، فإن درب السلام يصبح واضحاً على كلتا الجبهتين. فمن أجل اقامة السلام مع الكوكب يجب أن نقيم السلام بين الشعوب التي تعيش عليه. . »(ص٢٥٢)

واكرر مع المؤلف كلمة «يجب» وأبتسم. . فالذين في يدهم مفاتيح الأمور. . يعرفون ماذا يفعلون. . ويعرفون ماذا يجب. . المسألة هي: كيف سيتحرك الاخرون الذين هم نحن! بأي منطق سوف نعالج ما ليس منطقياً؟ إن الخطر الداهم يستدعي نهوضاً عاجلاً. . فمتى؟